الحياة في البلاط الملكي المصري

ألفريد جاشوا بتلر



ترجمة وتحقيق

د/محمد عزب
أستاذ مساعد الأدب الإنجليزي جامعة شقراء

د/مي موافي
مدرس اللغويات والترجمة جامعة الأزهر

دار غراب للنشر والتوزيع

الحيـــــــاة

في

البلاط الملكي المصري

للمؤرخ :ألفريد جاشوا بتلر

ترجمة وتحقيق

محمد عزب

مي موافي

ليليث للنشر
والتوزيع

الحياة فى البلاط الملكى المصرى

د/ محمد عزب ـ م.م / مي موافى

رقم الايداع / ١٣١٩٦/ ٢٠١٣ ط1

الترقيم الدولى / ٥ - ٣٧ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / فاطمة عشرى

لوحة الغلاف مُهداة من د/ مي فاروق

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

المراسلات : ٩ش صلاح الدين - العطارين

مول الوطنية التجارى - الدور الثانى

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤن الفنية

باتلر، ألفريد جوشوا

الحياة فى البلاط الملكى المصرى ، الفريد جوشوا باتلر

، ترجمة وتحقيق محمد عزب ، ومى موافى

دار ليليت للنشر والتوزيع ،٢٠١٣

ص ،سم

تدمك /٥ -٣٧ -٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١_ الحياة فى البلاط الملكى المصرى

أ - عزب ، محمد (مترجم ، محقق)

ب - موافى ، مى (مترجم ، محقق)

رقم الإيداع ١٣١٩٦ _ التاريخ / ١١ - ٦ - ٢٠١٣

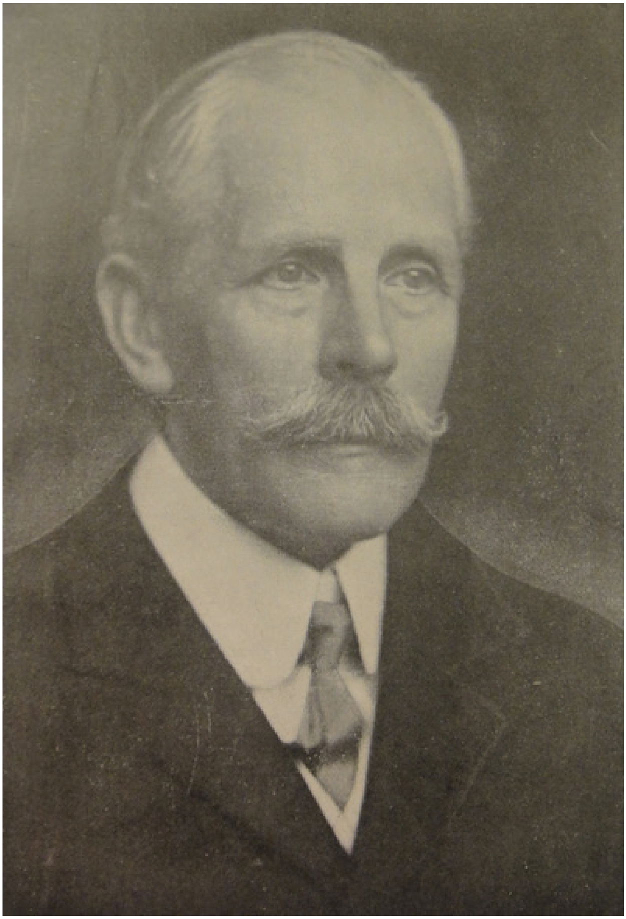
صورة الغلاف

http://www.flickr.com/photos/37232142@N06/4276405907/?reg=1

رسم بأقلام الرصاص والفحم و ألوان الباستيل، إهداء من د/ مي فاروق.

في الصورة:

محمد علي باشا	والي مصر	١٨٠ - ١٨٤٨
إبراهيم باشا بن محمد علي	والي مصر	يوليو / نوفمبر ١٨٤٨
عباس حلمي الأول بن أحمد طوسون باشا بن محمد علي	والي مصر	١٨٤٨ - ١٨٥٤
محمد سعيد باشا بن محمد علي	والي مصر	١٨٥٤ – ١٨٦٣
إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي	والي مصر / خديوي مصر	١٨٦٣ – ١٨٧٩
محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	خديوي مصر	١٨٧٩ – ١٨٩٢
عباس حلمي الثاني بن توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	خديوي مصر	١٨٩٢ - ١٩١٤
حسين كامل بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	سلطان مصر	١٩١٤ - ١٩١٧
فؤاد الأول بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	سلطان مصر / ملك مصر	١٩١٧ - ١٩٣٦
فاروق بن فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	ملك مصر	١٩٣٦ - ١٩٥٢
فؤاد الثاني بن فاروق بن فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي	ملك مصر	١٩٥٢



ألفريد جاشوا بتلر

مقدمة للمترجمين

- تلقى ألفريد جاشوا بتلر (١٨٥٠-١٩٣٦) تعليمه الجامعي في جامعة أكسفورد وواصل دراسته العليا ملتحقا بالعمل كعضو هيئة تدريس بكلية براسنوز **Brasenose College** عام ١٨٧٧ وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٠٢.

- في يناير من عام ١٨٨٠ استدعاه الخديوي محمد توفيق[١] (١٨٥٢-١٨٩٢) ليتولى تعليم أبنائه فمكث في هذه الوظيفة حتى فبراير ١٨٨١.

- خلال الشهور التي قضاها بتلر في مصر انكب على دراسة التاريخ والآثار القبطية والإسلامية وشهد مقدمات الثورة العرابية.

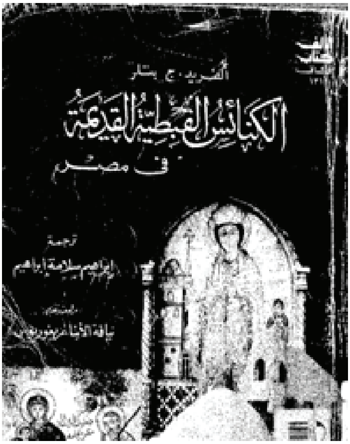
- عاد بتلر إلى مصر زائرا وباحثا عام ١٨٨٤ وعقب عودته لإنجلترا وضع كتاب «الكنائس القبطية القديمة في مصر» **The Ancient Coptic Churches of Egypt** (في جزأين) صدر عام ١٨٨٤ ونشرت الهيئة المصرية للكتاب ترجمته عام ١٩٩٣ لإبراهيم سلامة إبراهيم.

- ألف بتلر أيضا كتاب «فتح العرب لمصر» **The Arab Conquest of Egypt** ظهر عام ١٩٠٢ وترجمه الأستاذ محمد فريد أبو حديد وصدر عن مكتبة مدبولي في عام ١٩٩٦ أي بعد نيف وتسعين سنة من صدوره الأمر الذي يعكس تردي واقع الترجمة في عالمنا العربي.

---

(١) سادس حكام الأسرة العلوية. أمه نور شفق هانم، كانت جارية لإسماعيل ثم تزوجها.





- كتب بتلر هذا الكتاب الذي بين أيدينا مسجلا فيه واقع الحياة في مصر كما شاهدها، ورغم أن عنوانه يعطي إحساسا أنه حول أروقة الحكم وحسب، إلا أنه يرصد الكثير من الظواهر الاجتماعية في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

- لا يسعنا ونحن نقدم ترجمة هذا الكتاب الهام إلا أن نبدي – كما فعل الأستاذ محمد فريد أبو حديد آنفا- دهشتنا من عدم التصدي لترجمته على مدار كل هذه السنين. لا ندري هل التعاطف الذي أبداه بتلر تجاه الخديوي توفيق(٢) هو

(٢) من الجدير بالذكر في هذا الشأن أن بتلر يُبدي إعجابا كبيرا بدماثة خلق الخديوي توفيق وقد يكون محقا في ذلك فالرجل على المستوى الشخصي كان لين الجانب والعريكة. لقد راجعنا كتاب رئيس تحرير جريدة المحروسة، عزيز زند « القول الحقيق في رثاء وتاريخ المغفور له محمد باشا توفيق»، ١٨٩٢ فوجدناه – ولو أن شهادته مجروحة لأن الصحيفة محسوبة على النظام- يثني علي أخلاقه. كتب عبد الرحمن الرافعي في صفحة ٣٣ من كتابه «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي»، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣: «وكان له (توفيق) في استقامته الشخصية وميله إلى الاقتصاد ما يجعله بمنأى عن أخطاء أبيه.» زد على ذلك أن توفيق كان على علاقة بالأفغاني قبل توليه الحكم. من ناحية أخرى يجب أن نفرق بين

السبب باعتبار أنه رب نعمته أو أن السبب هو تعليق الدكتور إبراهيم عوض، أستاذ النقد الأدبي بكلية الآداب، جامعة عين شمس بأن بتلر «لا يعجبه شيء في أخلاق الناس هناك (مصر) ولا في تصرفاتهم وينظر إليهم من علّ... ولا يُظهر الكتاب أي تعاطف من جانبه معهم على الإطلاق»[٣]؟ ربما، لكن هذا لا يمنع أن الكتاب يرصد بحرفية عالية العديد من الأعراف والعادات والتقاليد المهمة.

توفيق الإنسان وتوفيق الحاكم .لاشك أن توفيق الحاكم قد ورث تركة ثقيلة، لكنه استقوى بالأجانب ومهد بسياسته الهشة للاحتلال البريطاني، كما أنه كان على علاقة بالماسونية العالمية. إن ارتباط اسم الخديوي بانتكاسة الثورة العرابية هو ما جعل الكثيرين يغضون البصر عن صفاته الشخصية أو أي مميزات أخرى قد تكون حاضرة في فترة حكمه مثل حفر الرياح التوفيقي والذي افتتحه عام ١٨٩٠ وافتتاح المدرسة التوفيقية بشبرا (كان توفيق مهتما بالتعليم؛ وهو الوحيد من أبناء الخديوي إسماعيل الذي تعلم في مصر.) ما يعرفه أغلب المصريين عن الخديوي توفيق هو قوله لعرابي: «لقد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.» (لاحظ أن الخديوي توفيق هو من رقى عرابي إلى رتبة العقيد وأن الأخير تزوج من بنت ممرضة إبراهيم إلهامي باشا بن الخديوي عباس الأول والد زوجة الخديوي توفيق C. C. Long, The Three Prophets: Chinese Gordon, El-Maahdi & Arabi, New York, D. Appletion, ١٨٨٤, p.٩١) فيرد عليه عرابي: "لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم." كتبت سناء البيسي: "ولكن الباحث في الأصول والجذور والمراجع والكتب ومنها ... كتاب البحر الزاخر في علوم دولة الأوائل والأواخر لمحمود فهمي باشا الموجود منه نسخة واحدة وقامت بطباعته المطبعة الأميرية عام١٣١٢هـ... إلخ سوف يجد أنه حوار شط في الخيال ولم يحدث أن قيل وأن مصدره المباشر مذكرات أحمد عرابي نفسه التي كتبها من الذاكرة ... وانتهي منها يوم ٢٦ يوليو١٩١٠ أي قبل وفاته في٢٢ سبتمبر١٩١١ بعد عودته من المنفى في سيلان." جريد الأهرام العدد ٤٣٩٩٣، السبت ١٩ مايو ٢٠٠٧.

(٣) من مقاله عن حرق مكتبة الإسكندرية. (www.moheet.com/٢٠١١/٠٩/٢٦/د-إبراهيم-عوض-اتهام-المسلمين-الأوائل/) إن السبب وراء ترفع بتلر في بعض المواضع من الكتاب هو قدومه مصر من إنجلترا حيث يتواجد نظام طبقي راسخ. في الحقيقة إن عدم تبسط الكاتب مع المصريين لا يعني على الإطلاق عدم احترامه لهم، فالرجل كان منصفا في مواضع كثيرة وأشاد بهم، لكنه أيضا لا يستطيع غض الطرف عن بعض العادات السيئة الموجودة في المجتمع في ذاك الوقت فيعرض لها وينتقدها. لابد أن نذكر أيضا أن عائلة المؤلف نفسه لا تنتمي للطبقة الأرستقراطية النبيلة لأن Butler يعني الشخص الذي يقدم الشراب للملك Wine steward.



الخديوي توفيق مع زوجته الأميرة أمينة إبراهيم إلهامي ابن عباس الأول الشهيرة «بأم المحسنين» وأولاده الأميرة نعمت الله (ولدت ١٨٨١) والأميرة خديجة (ولدت ١٨٧٩) والأمير محمد علي (ولد ١٨٧٥) والأمير عباس حلمي، الخديوي عباس حلمي الثاني فيما بعد (ولد ١٨٧٤) وتغيب عن الصورة الأميرة نازلي (١٨٧٧)

معلومات عن النسخة الإنجليزية للكتاب

This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online. It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Since this book was published in England (Publisher: London, Chapman and Hall, 1887), it is subject to fact sheet P-01: UK Copyright Law, issued: April 2000, Last amended: 27th November 2009.[4] 1-Duration of copyright: The 1988 Copyright, Designs and Patents Act states the duration of copyright as: i-For literary, dramatic, musical or artistic works 70 years from the end of the calendar year in which the last remaining author of the work dies.

نشر هذا الكتاب في إنجلترا عام ١٨٨٧ وتوفى مؤلفه عام ١٩٣٦. طبقا لقانون حماية الملكية في المملكة المتحدة الصادر في أبريل ٢٠٠٠ والمعدل بتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٩ فإن المدة القانونية لحقوق الملكية بالنسبة للأعمال الأدبية وما في حكمها هي سبعون عاما من وفاة المؤلف.

بطبيعة الحال لم نجد الكتاب في أي مكان في مصر نظرا لقدمه. الإشارتان الوحيدتان إليه تعودا إلى المؤرخ إلياس الأيوبي (عكا ١٨٧٤- مصر ١٩٢٧)

(٤)(http://www.copyrightservice.co.uk)

والدكتور إبراهيم عوض الذي طالعه أثناء دراسته في إنجلترا. إذن النسخة الوحيدة المعلومة لدينا بمصر هي التي أثبتها الأيوبي في كتابه «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من ١٨٧٩-١٨٦٣، ج٢، القاهرة، دار الكتب المصرية،١٩٢٣، ص ٣٩٩ وترجم منها فقرة توضح ما أسره الخديوي توفيق لبتلر عن علاقته بأبيه الخديوي إسماعيل.[٥]

مُسح الكتاب إليكترونيا ورُفِع على الشبكة الدولية للمعلومات بواسطة «جوجل» **Google**. تبين أن الكتاب يفتقد جزأين: من صفحة ٢١-٢٤ ومن صفحة ١٣٦-١٣٧. خاطب المترجمان أمناء مكتبة جامعة كاليفورنيا[٦] فأمدوهما - شكر الله لهم- بالصفحتين الأخيرتين. ثم عاد المترجمان لخاطبا أمناء المكتبة أستراليا القومية فأمدوهما شاكرين بالصفحات من ٢١-٢٤.[٧]

(٥) ما فتيء والدي يسيء الظن بي ويسيء معاملتي إلى درجة أن أحد وزرائه – ولم يكن أرفعهم شأنا – تطاول عليّ ذات يوم إلى حد امتهاني وتهديدي بأن والدي قد يبعث بي إلى السودان إن لم يجد مني زيادة إقبال على مساعدته في مشروعاته الرامية إلى توسيع نطاق المدنية الغربية في القطر. فأجبته: «إن الخديوي أبي وولي نعمتي فإن شاء فله أن يبعث بي حيثما يريد، ولو إلى أقاصي السودان، بل له أن يأمر بطرحي في النيل، وما أنا إلا بممتثل لأوامره بكل خضوع.» غير أن بعض أهل البلاط كانوا يعتقدون أن تلك المعاملة قد أقرحت قلبي، وجعلتني أتمنى، في صميمي، أن تسرع الأيام نحوي بالعرش فعرض عليّ وزير آخر من وزراء أبي- ولعله أقربهم إلى قلبه- بكتابات، مرتين، أن يعمل على تغريقه في ميناء الإسكندرية، لدى عودته إليها من الأستانة، فيما لو وافقت على ذلك، فأبيت باشمئزاز. وقد أطلعت والدي فيما بعد على تلك الكتابات، فعانقني طويلا والدموع ملء عينيه، وقال لي: «لقد كنت مغشوشا فيك، يا بني، وأعتقد أنك تخامر عليّ فاصفح عما مضى.» انظر «حياة البلاط بمصر» ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨. (انتهت ترجمة إلياس الأيوبي)

(٦) Jennifer L. Dorner, Head of Instruction and User Services, University of California, ٣٠٢-Berkeley Moffitt, MC ٦٠٠٠ Berkeley, CA ٩٤٧٢٠-٦٠٠٠, Phone: ٥١٠ ٧٦٨-٧٠٥٩, Fax: ٥١٠ ٦٤٢-٩٤٥٤, Email: jdorner@library.berkeley.edu

(٧) Tony Luckhurst, Senior Interlibrary Loans Officer, Document Supply Service, National Library of Australia, (Ph) +٦١ ٢ ٦٢٦٢ ١٤١٤, (email) tluckhurst@nla.gov.au

discomfited Jew in the Arabian Nights, "Oh, Ezra! Oh Moses and the Ten Commandments! Oh Ezra's ass!" Thus, at any rate, Egypt was delivered from the children of Israel.

A great fête was given in honour of Sir Rivers Wilson and the Commission in the gardens of Râs-el-Tin palace, which were illuminated. There was a grand military procession by torchlight, and a procession of native trade-guilds. The latter was rather disappointing; the gardeners carried nosegays of flowers, but none of the other crafts had any emblem, though all had music. After this there was a grand illumination of the harbour and ships. The sight under the moonlight was splendid. Scores of little boats were moving about decked with lanterns; but the most picturesque of all were two Greek ships, with lofty prow and stern after the classical model, such as might have been used by the Greeks two thousand years ago here in this very harbour of Alexandria. I was rowed about for some time in a luxurious twelve-oared galley; and the remembrance of that Egyptian night upon the sea still lives in my mind with the remembrance of sunny days in a caique upon the Bosporus, and of moonlight nights in a gondola at Venice.

dust-laden nostrils. So we move on into the bazaar, where heat and dust are redoubled in spite of the carpets strewn beneath our feet. There is an instant of rest while an ox is being slain, then forwards again over his blood, and out at last into the air at the far side of the town. There we wheel about and charge our way back again. As we leave the city-gate another ox is sacrificed, dancing-girls beat their tambourines, His Highness's carriage goes at a trot, the donkeys at a gallop, and we reach the steamers at sunset, as the muezzin calls to prayer from the lighted minarets. The evening ended with a grand display of fireworks on the river bank: while over the water boats were moving decked with Chinese lanterns, and laden with singers, who dropped fire-fountains as they passed. The broad river under the full moonlight was magnificent.

From Suhâg, our next station, we had hoped to reach the ruins of Abydos—ruins which enshrine the bas-relief of Seti I., that most beautiful of all Egyptian sculptures. But time failed us. Suhâg is an entirely miserable place, and we were glad to get on to Girgah, so called after St. George, the patron saint of the Coptic Christians. We reached the town at sunset. After dinner I witnessed a dis-

صورة لصفحة ١٣٦ التي أرسلتها مكتبة جامعة كاليفورنيا للمترجمين وصفحة ٢١ التي أرسلتها مكتبة جامعة أستراليا

الفصل الأول

بركان أثناء الليل- نائب حاكم الإسكندرية - استقبال الخديوي - الرحيل إلى صعيد مصر- رفقاء السفر- قتال صوري للبدو- مشاهد من أسيوط - فتيات يرقصن في جرجا- الشلال وفيله- مزايا الحماية القنصلية- مشروع الدوق

استلمت في شهر يناير من عام ١٨٨٠ برقية تستقدمني على وجه السرعة إلى مصر لأتولى التدريس لأبناء الخديوي من الذكور. وبالرغم من أن صديقًا على دراية بالشرق قد أوعز لي بأن السرعة تعني بالنسبة للشرقيين شهر أو اثنين إلا أنني ارتأيت وآثرت أن ألتزم حرفيًا بالنص، أو قل أنني لم أكن قد تعلمت بعد المثل المصري الذي يقول «العجلة من الشيطان».

لذا سرعان ما وجدت نفسي على متن سفينة طرود فرنسية مبحرة من خليج نابولي غير آسف على توديع هذا المشهد الصحو الذي كان آخر ما علق من أوروبا في ناظري. وبينما راحت السفينة تنأى عن الشاطئ وقعت عيوننا على منظر القصر الأحمر بأبهته وفخامته حيث كان يعيش الخديوي السابق إسماعيل في كمدٍ واستياء.



وكان مما زاد حنقه وأجج سخطه في ذاك الوقت أن إحدى جواريه قد واتتها الجرأة والجسارة فلاذت بالفرار مع ضابط وسيم من نابولي. لو حدث هذا الأمر في مصر لتم القبض على الجارية وقتلها، لكن في إيطاليا حيث قُلم ريش إسماعيل[٨] فقد ثروجت الفتاة ولابد أنها عاشت حياة هانئة مطمئنة؛ ولابد أيضًا أن التحدي الذي مثله هذا الهروب إلى الحرية المدنية قد خلف مرارة في حلق إسماعيل فلا عجب إذن أن بادر بإرسال ابنه الأمير حسن إلى القسطنطينية ليستأذن السلطان متوسلاً وراجيًا أن ينتقل للإقامة في إسطنبول حيث ما زالت هناك وسائل شرقية ماضية وسريعة للانتقام.[٩] لدي الكثير لأقوله فيما بعد عن إسماعيل باشا، هذه الشخصية الغريبة التي جمعت بين الفرعون وهارون الرشيد على أعتاب القرن التاسع عشر.

أبحرنا عبر مياه فسفورية هادئة. قبيل الفجر أُستدعيت لمشاهدة جزيرة سترومبولي[١٠]التي تأخذ شكل المخروط ويندفع منها على فترات فوران من

(٨) تم خلع الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩. (المترجمان)

(٩) بالفعل انتقل إسماعيل للآستانة عام ١٨٨٨ وأقام بقصر «إميرجان» المطل على البوسفور حتى وفاته. (المترجمان)

(١٠) Stromboli.

اللهب كما لو كان كيرًا[11] ضخمًا تفاوت وهجه وسط دياجير الظلام فوهن وتقطع أحيانًا وارتفعت أحيانًا أخرى ألسنة النيران المتناثرة من فوهة البركان. شاهدنا الجبل وقد أبرقت ربوعه القاتمة تارة بأشكال غريبة تشبه النجوم وتارة أخرى تدفقت منه شلالات هادرة من الحمم الحارقة؛ ثم عاد السكون مرة أخرى ولف الصمت والعتمة الدامسة ثنايا الجبل. حين مررنا بمدينة ميسينا[12] حالت عاصفة متصاعدة بيننا وبين رؤية المدينة البعيدة. اختفى الساحل برمته وظلت الأمواج تتقاذفنا وسط الأمطار والحلكة القاتمة حتى فتحنا عيوننا بغتة على عالم آخر مشرق. تهادت السفينة عبر أجواء من الخيوط الذهبية والمياه الهادئة إلى داخل ميناء الإسكندرية.

بمجرد أن ألقت السفينة مراسيها حاصرنا أسطول جرار من المراكب الصغيرة. انتظرت على السطح حتى صعد إليّ ضابط مصري في لباس البحرية، ثم حياني مستفسرًا بالإنجليزية عن اسمي؛ وحين أكدت له أني ضالته قدم لي مرافقه، نائب حاكم الإسكندرية. عقب ذلك قادني بكثير من الاحتفاء إلى زورق طواف رائع بعشرة مجاديف حيث اتكأت إلى وسائد مخملية ناعمة قرمزية اللون ومذهبة. عندما وصلنا إلى الترسانة حيانا طاقم الفلك ومن ثم غادر الضابط. حينئذ وجهني نائب المحافظ نحو عربة تجرها الخيول كانت في انتظارنا. انطلقت العربة في شوارع الإسكندرية ونحن نتلقى عدد لا يحصى من السلامات والتحيات، وظل مرافقي يلفت نظري إلى هذا المبنى أو ذاك وهو يسألني عن رأيي في المدينة، وكان بعد كل ملاحظة يبديها يشير إلى فؤاده مضيفًا بضحكة قصيرة «أنا نائب حاكم الثغر.» هنأت مرافقي على انتشائه بمنصبه الرفيع واضُطررت بقدر ما سمح به ضميري إلى إظهار بعض الحماس لبنايات

(١١) كير الحداد .Forge (المترجمان)

(١٢) Messina.

متواضعة حتى لا أقع في شبهة النفاق بينما رحت في قرارة نفسي أقارن بينها وبين قصور ومعابد مدينة الإسكندر. توقفت العربة عند خياط القصر الذي أخذ مقاساتي من أجل الزى المقرر، ثم انتهت رحلتنا أمام فندق «أوروبا»[١٣] بميدان محمد علي[١٤] الذي شهدت نوافذه بعد قرابة العامين والنصف ارتكاب أبشع مذابح العرابيين.[١٥] عاد نائب حاكم الإسكندرية يؤكد على شرف منصبه مرة أخيرة قبل أن يودعني حتى اليوم التالي.

في السابعة صباحا كان المُخلص صاحب المكانة السامية في الانتظار. اصطحبني مرةً أخرى إلى الخياط وانطلقنا من هناك إلى محطة السكك الحديدية وقد لمعت عيناه وقرقر صوته بضحكة طويلة إزاء ما ظن أن القدر حبانا به من حظ طيب. أخيرًا ناولني الرجل مكتوبًا إلى زكي باشا، رئيس التشريفات الخديوية. شكرته على العطف الذي أبداه تجاهي فعقب قائلا بالفرنسية: «كلا يا سيدي... عليك فقط أن تشكر صاحب النعم فما أنا إلا خادمه المتواضع. آه يا إلهي... كم أغبطك يا سيدي فعما قريب تكون في السراي بجانب الأميرين الصغيرين وبالقرب من مولانا... أنا نائب حاكم الإسكندرية.» جاهدت كي أحتفظ بالجد والوقار حيال نوازعه المفضوحة ووعدته أنني سأذكره عند الخديوي و بأنني سأخبره بالمعاملة الطيبة التي تلقيتها. حينئذ أشرق وجهه ثانية وأخذ يصافحني من جديد ثم شرع القطار في التحرك وقد خالط صفيره تأكيد مرافقي أنه نائب حاكم الإسكندرية.

(١٣) Europe Hotel.

(١٤) ميدان القناصل أو ميدان عرابي (المنشية) حاليًا. (المترجمان)

(١٥) يقصد بتلر قصف الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢. (المترجمان)

في القاهرة كان في انتظاري مسئول من السراي أوصلني إلى «الفندق الجديد»[١٦] والذي شيده إسماعيل بهذه البهرجة والفخامة لينزل به ضيوف حفل افتتاح قناة السويس. بعد فترة وجيزة من إقامتي بالفندق زارني «تورابي بيك»،[١٧] السكرتير الإنجليزي للخديوي للترحيب بي نيابة عن جلالته. أخبرني تورابي بيك أنه سيتم استقبالي في القصر في غضون يوم أو يومين، ولم يفته أن يمتدح عطف الخديوي وطيبته. كرر تورابي الزيارة في اليوم التالي حاملاً رسالة استفسار من جناب الوالي عن بعض الأمور، كما حمل إليّ أخبارًا جيدة مفادها أن الخديوي سيقوم بجولة في الصعيد في ظرف أسبوع. وأثناء زيارته قدمني تورابي إلى فتاة جميلة من يهودي الإسكندرية تتحدث الإنجليزية ببراعة وإتقان رغم عمرها الذي لا يتجاوز السادسة عشر، ناهيك عن الألمانية والفرنسية والإيطالية وبعض العربية. على أي حال من الشائع في مصر أن تجد أطفالاً يتحدثون العديد من اللغات.

عندما غادر تورابي زُرت روجرز بيك،[١٨] أعظم دارسى العربية في زمانه من الإنجليز بما فيهم الأستاذ بالمر.[١٩] يعتقد أهل هذه اللغة أن روجرز هو الأجنبي الوحيد الذي يتحدث العربية كواحد منهم، بل أفضل من أفضلهم. أخبرني روجرز بما يتناقله بعض المصريين من أنه قد وصلت مسامع الخديوي أخبار كنز هائل من الذهب والجوهر؛ ومن ثم فقد بيت جلالته النية للتوجه إلى الصعيد لاستخراجه، لكن البعض الآخر رفض هذا الكلام؛ فهل يُعقل أن يُقدم رجل في مثل مكانة الخديوي على هذه المغامرة الشاقة؟! مستحيل بالطبع.

(١٦) New Hotel. فندق قصر الجزيرة أو "الماريوت" حاليًا. (المترجمان)

(١٧) Turabi.

(١٨) توفي روجرز بيك Rogers عام ١٨٨٤. (المؤلف)

(١٩) Palmer.

وصلت في اليوم المحدد لاستقبالي إلى قصر عابدين حيث يُمضي الخديوي دومًا ساعات النهار. تم توجيهي نحو حجرة انتظار جلس بها ضباط تشريفات ومسئولون آخرون يدخنون على راحتهم. عندما سُمح لي بالدخول على جناب الخديوي تخطيت غرف انتظار أخرى حسنة الفرش ثم صعدت سلمًا رائعًا من الرخام وانتهى بي المطاف في رواق ضخم. حين ولجت في الردهة كان جلالته بمفرده فقام من جلسته وصافحني مشيرًا إليّ لأجلس بجواره. كنت بالطبع قد ارتديت الزى الجديد وكذا الطربوش الذي لُقنت آنفًا أنه لا يصح ولا يليق مطلقا خلعه في الحضرة الخديوية وإلا عُدت هذه الفعلة وقاحة كبيرة. من الصعب أن أجد كلمة طيبة لوصف غطاء الرأس هذا الذي نزعت حوافه والمسمى بالطربوش فلا هو بالجذاب ولا هو فعال في الحماية من الشمس، لكن فيما عدا ذلك فإن الزى أوروبي وهو عبارة عن معطف طويل وياقة منفصلة. في الحقيقة حين قرر البَاشَوات استبدال أثوابهم الفضفاضة بحثوا في أوروبا عن طراز من الملابس المحترمة وانتهوا إلى حُلل القساوسة البريطانيين. تُضفي هذه الملابس من الناحية الفنية مشهدًا حزينًا إذا ما قورنت بثياب الشرق الناصعة الخفيفة، كما أنها من الناحية العملية غير مريحة وغير مناسبة للأجواء الحارة، لكن تم غض الطرف عن هذه العيوب نظرًا لما تمثله هذه الأزياء من مكانة أدبية. يُسمى هذا المعطف أيضا «ستامبولين»[٢٠] وربما كان للأتراك بكياستهم الشرقية الفضل في تعديل المثل الشهير فجعلوا الذئب يرتدي ثوب الرعاة.[٢١]

(٢٠) Stambouline نسبة إلى إسطنبول التي ظهرت فيها هذه المعاطف أولا في بدايات القرن التاسع عشر. (المترجمان)

(٢١) أصل المثل «في ثوب الحملان» A wolf dressed in sheep's clothing. (المترجمان)

حين يتأهب المرء لدخول الحضرة الخديوية يجب عليه التأكد من أن أزرار معطفه مغلقة، تمامًا كما يفعل أبناء البلد حين يسحبون أكمامهم الطويلة لتغطي كفوف أيديهم. لكن ما أعظم دماثة خلق الخديوي وتبسطه وتلطفه! خلع وجهه البشوش الذي يُرى دائمًا على سجيته وكذا صوته الذي يأخذ بالألباب وتصرفاته المهيبة الرزينة على شخصيته سحرًا وفتنة ورثهما عن والده وأورثهما بدوره لأولاده.

تحدث الخديوي بودٍ كبير وأنا أدخن لفافة من التبغ قُدمت لي. من الغرابة بمكان أن الخديوي لا يدخن، بل قل أنه الشرقي الوحيد الذي قابلته لا يدخن. وجدت الفرصة سانحة فأخبرت الخديوي بالقصة التي أشاعها أهل البلد عن الكنز المدفون. ضحك جلالته معلقًا بحسن نية واضحة أن الكنز الوحيد الذي يطمع فيه هو رضا ورخاء شعبه.

قبيل نهاية المقابلة أعطاني الخديوي إحساسًا بأنه راضٍ عني وأن الأميرين الصغيرين سوف يراودهما نفس الشعور. أخبرني كذلك أنه يأمل في تحسن لغته الإنجليزية عن طريق التحدث معي من وقت لآخر. بدوري أخبرت جلالته أن وجودي في خدمته شرف كبير ثم سلمت عليه وتراجعت للخارج مبقيًا وجهي ناحيته كما هو مُتبع.

قضيت الثلاثة أو الأربعة أيام المتبقية قبل المغادرة إلى الصعيد بطبيعة الحال في معاينة شوارع ومساجد قاهرة الأعداء، تلك المشاهد التي ألفها الرحالة وخط معظمهم كتبًا عنها. ليس لدي النية أن أصف مشاهد من هذا النوع بالرغم من استمتاعي ببهاء القاهرة وتنوع ألوانها ووفرة فنونها وعذوبة الحياة بها.

عشية يوم الرحيل ركبت مع تورابي بيك قاصدين الباخرة لمعاينة أماكن الإيواء الخاصة بنا. سُررت كثيرًا حين علمت أني سأشاركه القمرة فالرجل في أعماق وجدانه إنجليزيًا مخلصًا بالرغم من أنه وُلد في تركيا وبالرغم من أنه أمضى سنوات عديدة من عمره في العمل بالسفارة التركية بإنجلترا. أصابنا الهلع حين نزلنا إلى القمرة ووجدناها خاوية اللهم إلا من مرتبة على كل مضجع دون ملاءة أو بطانية. بالنسبة لأهل البلد تعتبر هذه رفاهية مفرطة؛ ومن سوء الطالع أن أحدهم كان مسئولاً عن الخدم والحشم في الباخرة. لم يكن هناك بد في صباح اليوم التالي من أخذ مناشف وملاءات وصابون بالإضافة إلى أمتعتنا العادية. لقد بدأ يتكشف لي أنه حتى في معية الأمراء الشرقيين ليست كل الأشياء في أبهى وأحسن صورة. الحقيقة أن الخديوي قد أعطى أوامره بتوفير سبل الراحة للأوروبيين بصحبته والذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، لكن ما حدث هو أن خدمه من السكان المحليين فسروا هذه الأوامر طبقًا لمفهومهم. زد على ذلك أن رئيس الديوان الملكي الذي كان عبدًا ثم أُعتق امتلك جهلاً مطبقا بالأساليب الغربية، بل حمل للأوروبيين بغضًا جليًا كلما طل علينا بطلعته الكريهة وجبينه المقطب محاولا في بعض الأوقات إخفاء هذا المقت وراء ابتسامة صفراء مصطنعة. لقد تعلمت مع مرور الوقت كيفية التعامل مع هذا الشخص، بل ووقفت منه موقف الند للند دون إحجام أو تردد كلما اقتضت الضرورة ذلك.

في الثاني والعشرين من شهر يناير لعام ١٨٨٠ انطلقت رحلتنا. تقريبًا ذهبت الحاشية برمتها الأمر الذي تطلب ثلاث بواخر كبيرة ناهيك عن سفينة الإمداد. أمرني الخديوي أن أسجل يوميات السفر، لكني أدون في هذا الكتاب أمور شخصية كثيرة تم حذفها من اليوميات كما نحيت جانبًا جلة الأوصاف والأحداث المثبتة فيها. لقد خبر الكثيرون شمس مصر الساطعة وجمال مشهد الغروب بها

وبهاء النيل الذي يجري على وتيرة واحدة وسحر الكرنك وفيلة، لكن الفرصة لم تُتح لأحد منهم ليقطع هذه الأراضي ويزور آثار الفراعنة بصحبة حاكم البلاد.

في بداية الرحلة كان الطعام سيئًا و»عينات» إذا جاز لي استعارة اللفظ خاصة وجبة الإفطار التي اشتملت على شريحة من الخبز ونوعين من التوابل وطبقين صغيرين وضعت في أحدهما مربى الورد وفي الآخر زيتون منقوع في الزيت مما جعله غير مستساغ بالمرة في السابعة صباحًا. كانت وجبة الغداء ووجبة العشاء متشابهتين إلى حد كبير، والموعد المقرر للأولى هو منتصف الظهيرة والثانية قرابة الساعة السابعة هذا إذا كانت سفينة الإمداد على مقربة منا، لكنها بوجه عام كانت جد بطيئة ولم تلحق بنا إلا «حسب التساهيل والمقادير» كما يقول المصريون.

اعتدنا نحن الأوروبيون الخمسة تناول الطعام مع تورابي على مائدة تغطي سطحها صينية كبيرة مستديرة وأمام كل واحد منا صحن وشوكة وسكينة. في البداية كانت تأتينا قطع الفروج أو الدجاج الرومي ثم يليها البامية أو الفول المصري بالزيت ثم خروف كامل وتليه «الضلمة»[٢٢] وهي عبارة عن أرز ملفوف في ورق الكرنب ثم كوارع الخروف وبعدها «بيلاف» الأرز[٢٣] ثم فطائر الحلوى وأخيرًا الموز والبرتقال. أما الأطباق الجانبية فكانت تشتمل على الخص وشرائح اللفت النيئ وكلاهما مغموس في الزيت و»تومية»[٢٤] يقول من جربها وتعود على طعمها أنها لذيذة وشهية جدًا، لكني من النوعية التي تحسب كل خطوة وتبعاتها.[٢٥]

(٢٢)"المحشي" أو الملفوف. (المترجمان)

(٢٣) أرز بالخلطة. (المترجمان)

(٢٤) ثوم مهروس مع طحينة وزيت وتوابل. (المترجمان)

(٢٥) استخدم بتلر هنا كعادته في هذا الكتاب وغيره عبارة من لغة أجنبية غير الإنجليزية. وإنما يدلل

كان الخدم مستعدين بعد كل وجبة بالإبريق والطست[٢٦] والمناشف. يُمسك أحدهم بالطست بينما يصب آخر سرسوب من المياه النظيفة على اليدين. شاهدت بعض الأهالي أثناء وضوئهم يضعون رغوة الصابون في أفواههم ويستخدمون السبابة كفرشاة أسنان. ومن العادات الأخرى التي يصعب قبولها أنهم يعمدون إلى التجشؤ ليس فقط للتغلب على الإحساس بالامتلاء ولكن ليوصلوا رسالة للمضيف من باب الأدب والذوق مفادها أن الطعام كان رائعًا. فإذا تجشأ الضيف في وجه رب الدار وهو يستعد للمغادرة دل ذلك على حسن تربيته وكرم منبته. لقد سمعت بأذني صاحب وليمة يرد متمتمًا وعلى وجهه علامات الرضا: «أكرمك الله.» ما من شك أن هناك قدر جميل من التلطف والمجاملة في سلوك الشرقيين.

أما الجنود الموكل إليهم حراستنا فإنهم يجلسون القرفصاء في دوائر تضم كلا منها خمسة أو ستة أشخاص يتجمعون حول طبق كبير ويغرزون فيه أصابعهم بنهمٍ شديد.

ربما يجدر بي هنا أن أقدم رفقاء السفر: تورابي بيك الذي أشرت إليه في معرض حديثي آنفًا؛ وهو تركي قارب الستين من عمره ومازال يتمتع بالمرح الذي ينعكس على وجهه الطيب البشوش وقلبه الوفي، كما أن له عزيمة ماضية. ولتورابي طريقة مرتخية في السير تشبه مشية الأطفال، لكنه يمتلك شهية مارد جبار. لا يشعر تورابي بالسعادة دون سيجارة في فمه، لكنه يكون أتعس البشر حين يُضطر - من باب اللياقة - أن يدخن السيجار. وتورابي - أضف إلى هذا

ذلك على سعة إطلاعه وتنوع مشارب ثقافته. تنتمي العبارة المستخدمة في نهاية هذه الفقرة إلى الفرنسية وهي Premier pas qui coute أي «عواقب تجربة شيء لأول مرة». (المترجمان)

(٢٦) حرفها المصريون إلى «طشت» حتى يسهل نطقها. (المترجمان)

- باحث إنجليزي من الطراز الأول، لكنه فشل - بعد إقامته لمدة خمسة عشر عاما بمصر - في تكوين جملة واحدة باللغة العربية! دائمًا ما يُرى توراني في حالة تذمر وتبرم، لكنه يحتفظ برباطة جأشه وهدوء أعصابه. لقد وجدت في هذا الرجل ألطف وأظرف الندماء، كما كان له حظوة في عين الخديوي فعده الأخير أخلص المقربين وأحكم المستشارين. مسكين توراني! بعد أربعة أعوام من تاريخ تدوين يوميات الرحلة مشيت في موكب جنازته المهيبة ووقفت هناك بالقرب من قبره خارج أسوار القاهرة حين كان جسده الملفوف في أكفان المسلمين يُسجى في مكان رقاده الأخير بينما رفع الشيوخ أصواتهم بالدعاء له. لا أذكر يوم رحيله دون حزن وأسف ولا طيب ذكراه دون تأثر وأسى.

بلغ عدد الأوروبيين في بطانة الخديوي أربعة غيري ومنهم الفرنسي «جودار»[٢٧] بيك الذي يقترب عمره من الخمسين. عمل جودار لسنوات عديدة كمدير لمكتب الخديوي إسماعيل واحتفظ بنفس الوظيفة عندما انتقلت مقاليد الحكم إلى ابنه توفيق. كان عالمًا، لكنه يتكلم بصوت عالٍ ولا يتحدث سوى لغته. يمتلك جودار هذا وجهًا بيضاويًا ينتهي بذقن مدببة. كان الرجل داهية وبخيلاً، وافتقر إلى روح الدعابة فنادرًا ما شوهد ضاحكًا اللهم إلا في مناسبات معدودة. كان جاف المشاعر متحفظًا يلوذ بالصمت على متن السفينة ويتوارى عن الأنظار على اليابسة. يأتي بعد ذلك مدير المراسم، «تونينو»[٢٨] بيك الإيطالي الجنسية. ولد تونينو في مصر وكان يتحدث الفرنسية والعربية. كان تونينو مغرمًا بسرد النكات والقصص الغرامية التي تمس شغاف القلوب، وفي جميعها يكون هو البطل أما البطلات فأميرات من أقطارٍ متنوعة. وكانت دائرة معارفه واسعة، كما كان متأقلمًا تمامًا مع سلوكيات أولاد البلد ويستطيع

(٢٧) Goudard.

(٢٨) Tonino.

دون عنت تقمص شخصية «دارهم ما دمت في دارهم...» والعودة إلى أصل طبيعته. أما «مارتينو» بيك وهو أيضًا إيطالي خلف جودار في مهامه فهو رجل حسن الطلعة، جميل المحيا، وسيم ومتأنق وعلى خلق. يتحدث الفرنسية بطلاقة ولا بأس به في اللسان العربي؛ وهو قاص جيد للنوادر والطرف، لكنه يميل إلى السخرية بمن حوله؛ وهو بينهم أحكم من ضب.[٢٩] وأخيرًا كان هناك ضابط أسترالي عصبي المزاج أُشيع عنه أنه قتل غريمًا له في منازلة بطعنة سيف منذ شهور قليلة. احترف هذا الشاب الذي يتقن ستة لغات العمل آنفًا كجندي مرتزق في الحبشة والمكسيك، لكنه تمتع - عدا ذلك- بخفة الظل وطيب الخلق.

كما رأينا فإن رفقاء السفر تجمعوا من كل صوب وحدب، لكن العجب يزول حين تعلم أن حاشية الخديوي ضمت أيضًا - بالإضافة إلى المصريين- أتراك وشراكسة وسودانيين وأرمن. لقد نجحنا في التآلف والوئام على نحو طيب؛ ولم نحتاج إلى مترجمين رغم تعدد الألسنة وتنوعها. لجأنا إلى لعب الورق والشطرنج طلبًا للتسلية في ساعات المساء. عرفت أن كلمة «كش» تعود إلى اللفظة العربية «شيخ» وأن «كشك ملك» تعني «الشيخ مات» وأن «الرخ» أصلها «ركن». ومن الأشياء العامة أيضًا التي تعلمتها عن ظهر قلب قاعدة ذهبية أختصرها في عبارة «لا تدع العجب يتملكك»، فمثلاً حين رأيت بيك يمص عود قصب طوله خمسة أقدام في ثوان معدودة أو باشا يمسح حذائه بمنديله لم أسمح لعلامات الفضول والدهشة أن تستحوذ على وجهي. ومن الأسرار الأخرى الناجحة في التعامل مع الشرقيين هو أن تنظر إلى كل الأمور بعين الرضا. القاعدة الثالثة هي أن تكون على أهبة الاستعداد لمشاركة الآخرين جميع

(٢٩) في النص الإنجليزي Wise as a weasel أي «في حكمة ابن عرس» ويقابلها في العربية «أحكم من لقمان» أو «احكم من ضب» وقد وقع اختياري على الثانية للمقابلة بين حيوان وآخر. (المترجمان)

المعارف التي في حوزتك، فالمعلومة التي تعتبرها تافه قد تكون جديدة عليهم. في الواقع إن أردت أن تستميل قلوب هؤلاء الناس وتفوز بها فعليك أن تكون صاحب «خلق رزين ومعرفة متجددة وثغر مبتسم.»

تتسم بعض عادات وتصرفات الشرقيين بالغرابة الشديدة. على سبيل المثال دفعتني الظروف أن أكون شاهدًا على أحد البكوات وهو يأخذ حمامه. في البداية وقبل الاغتسال لف الرجل جسمه بقطعة من القماش حتى رقبته؛ وبعد أن تأكد تمامًا أن المياه لن تطوله، دعك خديه ويديه ثم جفف نفسه وهكذا أصبح نظيفًا! أما شعره فقد استعد له بفرشتين. ملأ الرجل فمه بالماء حتى آخره ثم لفظه فجأة على الفرشتين وأخذ يمشط بهما أعلى رأسه بحركات دائرية خفيفة. ولأن شعره كان قصيرًا بطبيعة الحال فلم يحتاج أي ترتيبات أخرى. لقد كان المشهد بالغًا في السوء. يمكنك أن تعاين قلة نظافة أهل البلد في الطبقات الدنيا. لقد رأيت أناسًا يغسلون أرجلهم ووجوههم وأيديهم ثم يشرعون في مضمضة أفواههم في خزانات المياه الملحقة بالمساجد والتي يتم تزويدها بالماء دون تغييره الأمر الذي جعلها مرتعًا للغرين والطحالب الخضراء ومصدرًا للرائحة النتنة الكريهة.

تدفق الفلاحون من قراهم واحتشدوا على ضفتي النيل بطول الرحلة رافعين البيارق وهي ترفرف على وقع الطبول. في محطتنا الأولى، «الواسطة» شكل البدو مضمارًا بالقرب من سفننا الرابطة وأمتعونا بعروض للمهاجمة والمناورة بالخيل وهم يصوبون ويطلقون زند البنادق في تمثيل لجو المعركة. لمعت السيوف والرماح والطبنجات وسط عاصفة من الغبار وارتفعت صيحات الحرب حتى غطت على صوت الحوافر. حين توقف القتال وذهب المحاربون المنهكون

ليقطعوا بعض أعواد قصب السكر لعشائهم حل محلهم جموع غفيرة من الفقراء الذين جلسوا في صبر لساعاتٍ في طوابير طويلة أمام باخرة أفندينا لينعموا بلمحة من صاحب النعم.

في «بني سويف» استقل الخديوي الركاب الرسمي متوجهًا صوب المسجد كأي مسلم صالح. واصلنا السفر من هذا المكان حتى «المنيا» حيث ألقت السفينة مراسيها قبالة القصر الخديوي مع مغيب الشمس. كان المشهد رائعًا فأسوار القصر التي تمتد بمحاذاة الشاطئ لنصف ميل كلها مضاءة، كما تنتشر المصابيح والمشاعل في الباحة الأمامية للقصر ولمسافات طويلة. انطلق الخديوي من فوره إلى شوارع المدينة التي تزينت على الجانبين بالمنصات الخشبية المزركشة والتي تأخذ شكل الأقواس ويتدلى منها الأعلام والفوانيس. وهنا وهناك جلس في مقصورات وسرادقات على الأرصفة الرواة والمنشدون و»الحكواتية» ومجموعات موسيقية صادحين بالألحان الغنائية والقصص التي تُدخل السرور والإمتاع على نفوس المشاهدين. حين مررنا بهذه المنصات لم يكن هناك بد أحيانًا من التدافع ونحن نشق طريقنا بصعوبة بالغة وسط حشد كثيب من الجماهير، لكنهم تقبلوا الأمر بروح طيبة. لقد كان المشهد برمته وبألوانه المتباينة لوحة شرقية بامتياز: حارات مزدانة بالقناديل ومزخرفة بأقمشة الشوادر النفيسة وبازارات ترتفع حوالي قدمين[٣٠] عن مستوى الشوارع وتفتح مباشرة عليها وتجار بذقون وقورة يجلسون متربعين على سجاد فارسي وعباءات وعمائم ووجوه متفاوتة في صنوفها وأشكالها. وكنا كلما توقفنا بمنزل أحد التجار الموسرين تعزف فرقة موسيقية السلام ويحيينا العبيد باسطين السجاد في الفناء لنسير عليه. ندلف أولا في قاعة مكسوة بالرخام ثم ردهة تُسمى بحجرة

(٣٠) القدم من ٢٥-٣٠ سنتيمتر (المترجمان)

الضيوف حيث يقدم لنا المضيف التحية ويليها القهوة والعصائر والسجائر، كل هذا والشعراء ينشدون أغنيات عربية قصيرة على وقع آلات غريبة.(٣١)

في «منفلوط» عاينت لأول مرة الطقوس المسماة بالذكر وهو نوع من التضرع الديني المثير، وقد أُقيم هذه المرة بمناسبة تشريف الخديوي. وقف الدراويش المعممون في صفين متقابلين على أرجل ثابتة وأخذوا ينشدون ويتمايلون مع ارتفاع وانخفاض الموسيقى من جانب إلى آخر أو ينحنون بشدة للأسفل حتى كادت العمائم في كلا الصفين أن تتلامس. عادة ما تصدمك الموسيقى العربية بصخبها المضجر، لكن هذه المرة كان هناك شيئًا شجيًا ومُمتعًا. بقي لي أن أشير إلى أن الذكر يقام في كل الاحتفالات الدينية الكبيرة.

وصلنا «سيوط» أو «أسيوط»، عاصمة الصعيد في الثامن والعشرين من يناير. وهناك اصطف آلاف الناس على ضفتي النهر وأُطلقت قذائف المدفعية تحية للخديوي الذي وطأ الثرى في وقت مبكر من الظهيرة. مضى الجزء الحار من اليوم واقتربت الساعة من الرابعة عصرًا فاستقل جلالته الركاب الرسمي متجهًا صوب المدينة وقد تقدمه بعض الخيالة من الأهالي يليهم حامل الراية بعمامته الخضراء والتي تشير إلى أنه من سلالة الرسول ووراءه جمع من الراكضين الحفاة أو ساسة الخيل في جلابيبهم البيضاء القصيرة وعليها صدرية مطرزة بالذهب وألوان أخرى رائعة؛ ثم يأتي خلفهم قسم من الحرس الراكب وحصانان أسودان يجران عربة الخديوي وخلفها عشرة من الحراس الراكبين ثم البطانة على الحمير وهو أقصى ما استطاعوا توفيره لنا من وسائل ركوب، ولصيقًا خلفنا على كلا الجانبين امتطى البدو خيولهم العربية المتبخترة، ثم انتهى الموكب بسكان البلد.

---

(٣١) "الربابة" على الأرجح. (المترجمان)

لم يكن الطريق معبدًا وتكدس فيه التراب لمسافة تصل إلى حوالي ثلاث بوصات؛ لك أن تتخيل حجم الغبار الذي تثيره حركة الخيول وهذه الجماهير الغفيرة من البشر وهم يتدافعون وكلهم أمل أن يقتربوا بقدر الإمكان من الخديوي. من حسن الحظ أنني امتطيت حمارًا جيدًا يسحبه مكاري صغير في السن. جاهد الفتى بيده وأسنانه ليبقيني في مكاني خلف الحراسة الراكبة طيلة المسافة، وأحسب أنه نجح في ذلك. بشق الأنفس واصلنا التقدم حوالي ميل صوب وجهتنا وسط أجواء داكنة بسبب ذرات الغبار التي علقت بالهواء، وما إن بلغنا بوابة المدينة حتى حدث أمرٌ متوقع بطبيعة الحال. كانت البوابة ضيقة وتسمح بالكاد بمرور عربة الخديوي. في اللحظة التي عبر فيها الحرس هذه النقطة اندفعت الجماهير العريضة إليها فوقع المحذور. انحشرنا جميعًا وتوقفنا عن الحركة للحظات. من مكاني وسط مدخل البوابة شاهدت طليعة الأهالي على كلا الجانبين يطيحون على الأرض بشكل عنيف ثم يختفون تحت ضغط وابل من الأجسام المندفعة من الخلف. لابد وأن كثيرًا من العظام قد سُحقت بل أحسب أن حياة البعض قد فُقدت، لكن في الشرق لا يتم الإبلاغ عن مثل هذه الحوادث. عندما خف الضغط عن الجانبين تنفسنا الصعداء في المنتصف وخرج حماري من المعمعة منتصرًا بعد محاولة مضنية ليبقى واقفًا على رجليه. في المدينة قوبل الخديوي بالموسيقى وصيحات الجنود تحية لعظمته. أوغل الرجال في الانحناء أمامه جناب الخديوي دون أن ينبسوا ببنت شفة تاركين التهليل للنسوة اللاتي انطلقن بالزغاريد من على أسطح المنازل. لا شك أن صوت الزغرودة له علاقة بالكلمة اللاتينية **Ululatus** والتي تستخدم للتعبير عن الفرح أو الندب.(٣٢)

(٣٢) يستخدم بتلر الصوت Ul-ul-ul وهو محاكاة طبيعية للإشارة إلى الزغرودة وأظنه أخطأ والصحيح أنه Lolololololololelele أما اللفظ الإنجليزي فهو Ululation والزغرودة لا تستخدم في المناسبات

عندما انعطفنا نحو الشوارع الضيقة بدا المشهد ممتعًا ومفعمًا بالحياة إلى حد يصعب وصفه. كان كل شيء في مقدمة الموكب هادئًا ومنتظمًا؛ وكان الأمر جد مختلف في مؤخرته حيث استعرت معركة الفوز بالأماكن وزاد الهرج والمرج. انشقت الأرض عن مجموعة من حاملي الهراوات الطويلة جاءوا لنجدة البطانة فأوسعوا المتزاحمين ضربًا حتى انفضوا من حولنا. شارك الصبي المكاري في جهود إفساح الطريق مستخدمًا عصاه بمهارة فائقة. لقد شاهدته وهو ينقر بها على كتف رجل ضعف حجمه تقريبًا! انهالت مئات الضربات على الجانبين، لكنها لم تثر استياء الناس أو امتعاضهم؛ ولم يسع أحد منهم للرد بمثلها. في الحقيقة لقد تخلل الموكب أيضًا وبصفة لا تنقطع وقائع جانبية صغيرة. هناك مثلا العربي عاثر الحظ الذي فقد أحد نعليه في الشجار وانبطح ليمسك به وهو يسب ويلعن لأن القادمين من الخلف أخذوا يركلون الخف هنا وهناك؛ وشاهدت رجلاً يضرب من حوله بقوس آلة الربابة العاجي بطريقة وحشية، لكن أحدًا لم يُصب بأذى؛ ورأيت بلطة تُقذف في الهواء وتدور بصورة خاطفة ثم تستقر في يد صاحبها؛ وهناك أيضًا هذا الضابط السمين الذي وقع من على الحمار وتدحرج على الأرض وسط قهقهة الحاضرين مما أشعره بالحرج؛ ناهيك عن الرجل الذي اندفع بعد فترة صوب عربة الخديوي ومعه مبخرة وصلت رائحتها الجميلة إلى أنوفنا التي ملأها الغبار. ومن ثم تابعنا التحرك داخل الشارع التجاري حيث تضاعف القيظ والغبار بالرغم من وجود السجاجيد المفروشة تحت أقدامنا. توقفنا لبضع لحظات من الراحة حيث ذُبح ثور أمامنا، ثم واصلنا على دمائه حتى خرجنا أخيرًا للهواء الطلق مرة أخرى في أقصى المدينة، فقمنا بالدوران وعدنا من حيث أتينا. عندما أوشكنا على مغادرة بوابة المدينة ذُبح ثور آخر بينما

الحزينة اللهم إذا كان الميت شهيدًا أو نحو ذلك كما صور مخرج فيلم عمر المختار؛ وهناك قول بأن أصول الزغرودة فرعونية ومن ثم يكون اللفظ اللاتيني مستعارًا لأن الفراعنة سبقوا الرومان. (المترجمان)

انبرت بعض الفتيات في الرقص والضرب على آلة الرق. انطلقت عربة أفندينا بأقصى سرعة وشرعت الحمير في العدو فوصلنا البواخر مع المغيب حين نودي للصلاة من المآذن المنيرة. انتهت الأمسية بعرض كبير للألعاب النارية على ضفاف النيل، بينما انتشرت على صفحة مياهه القوارب وقد عُلقت في مقدمتها المصابيح الصينية ومُلئت بالمغنين الذين راحوا - وقت مرورهم بنا- يطلقون عبوات نارية تخرج منها شرارات على هيئة نوافير. لقد كان النهر الفسيح رائعًا في تلك الليلة التي اعتلى فيها البدر السماء.

حدانا الأمل أن ننطلق من محطتنا التالية، سوهاج، إلى أطلال «أبيدوس»[٣٣] التي تحتفظ بلوحة سيتي الأول من النحت البارز وتُعتبر بحق أجمل ما نحت المصريون على الإطلاق، لكن الوقت داهمنا. سوهاج في مجملها مكان بائس، لذا شعرنا بالسعادة حين واصلنا إلى جرجا التي أخذت اسمها من «مار جرجس»، القديس الحامي للأقباط.[٣٤] وصلنا هذه المدينة مع غروب الشمس. بعد تناول العشاء شاهدت عرضًا للألعاب النارية انطلق هذه المرة من باخرة الخديوي. تحدث جلالته بسعادة بالغة عن الحفاوة التي استقبله بها رعاياه الذين توافدوا وتزاحموا للترحيب به في كل مكان قصده. عندما زار إسماعيل باشا الصعيد، هرب السكان مذعورين، خاصةً كل من كان له ممتلكات لاعتقادهم أن الباشا سيأمر بعمل تحريات دقيقة عن أفضل الأراضي وأجودها؛ فإذا كان الهكتار[٣٥] يساوي مثلا خمسين ليرة[٣٦] أُجبر صاحبه على بيعه بخمسة

(٣٣) Abydos، مدينة بغرب البلينا، سوهاج. (المترجمان)

(٣٤) St. George، ٢٨٠-٣٠٣م. كلمة «مار» في «مار جرجس» هي كلمة سريانية وتعني السيد. ويُصور مار جرجس دائمًا وهو يحارب التنين في القصة المعروفة؛ ويعتقد بعض المسيحيين أنه الخضر عليه السلام. (المترجمان)

(٣٥) وحدة لقياس المساحة تساوي ١٠٠م^2. (المترجمان)

(٣٦) بين عامي ١٨٤٤ و ١٨٨١ كانت الليرة التركية تساوي حوالي ستة جرام ونصف من الذهب الخالص. (المترجمان)

ليرات فقط. لا أزعم أني أفهم الكيفية التي يتحول بها حاكم طيب إلى شخص شرير؟! إن من يعمدون الآن إلى ممارسة هذا النوع من الجور والطغيان هم شيوخ القرى ومديرو الأقاليم.

كانت جرجا مضاءة على نحو بديع. قبيل التاسعة انطلق الخديوي على حصانه الرصاصي في الشوارع. بعد ذلك قام كبار رجال الحاشية بزيارة طائفة متنوعة من أكابر وسادات البلدة الذين - وإن كانوا لا يتحدثون سوى العربية- إلا أنهم أمتعونا بالقهوة وشربات اللوز والبيرة والشمبانيا. زد على ذلك أنه في ثلاثة بيوت متفاوتة قامت فتيات مُحزمات ارتدين عباءات قطنية منقوشة تصل إلى الأرض بتقديم عروضٍ راقصة. خِيط على بدل الراقصات رقائق من الذهب وسلاسل من العملة وأجراس صغيرة؛ كما ارتدين أيضًا كِردانات وأساور من اللجين النقي. بعض هذه القلائد عتيقة وفي غاية الجمال، لكن أصحابها يرفضون بيعها بوجه عام. يُصاحب الرقص عزف المزامير وقرع الطبول بإيقاع موسيقي ممل يأتلف من أربع حركات وحسب. تحمل العوالم أيضًا الصاجات في أصابعهن ويجرجرن سيقانهن من أقصى القاعة إلى أقصاها دون رفع أقدامهن عن الأرض مطلقًا.



في أحيان أخرى يقمن بهز الجسم فقط مع ثبات القدمين. يمكن لأكثرهن مهارة بالطبع حمل قارورة مليئة بسائل فوق رؤوسهن بينما تُضع مكان السدادة شمعة

موقدة، ثم تؤدى الحركات الراقصة بثبات بحيث لا يتحرك السائل ولا يُومض لسان اللهب. ويبقى السؤال بطبيعة الحال، ما فائدة هذا الأداء الراقص وما مغزاه؟ الأفضل أن ندع هذا التساؤل دون إجابة.

جلسنا على الأرائك حول القاعة، وحين فرغت الفتيات من الرقص اندفع بعضهن من حين لآخر ملقين بأنفسهن على رُكَب المشاهدين. كان من اليسير تجنب هذه الفعلة عن طريق إناخة أحد الساقين مع لي الأصابع للأمام. بإيعاز من بعض الرفقة جلست فتاتان على ركبتي تورابي بيك. كان ارتباك الرجل بين رغبته في قبول الموقف ومحاولة التظاهر بأن ما لديه من فضيلة يأبى إلا إظهار الامتعاض له أمرًا طريفا بشكل كبير.

في أسيوط ابتعنا جميعا العاج، أما في قنا فقد اشترى البَاشَوات الذين يملكون منازل ضخمة آلاف القدور دون مبالغة في أقفاص من الخوص. تقع قنا على البر الشرقي للنيل، لذا كان علينا أن نعبر إلى الضفة الغربية للنهر لرؤية معبد «دندرة» الشهير. كانت المركبات الخديوية في انتظارنا هناك لتنقلنا إلى المعبد الذي يقع على مسافة ميلين على طريق «مصري»، وأعني أنه ليس طريق على الإطلاق بل مدق يتكوم فيه الغبار لعمق ثلاث بوصات. عندما وصلنا إلى المعبد عادت المركبات أدراجها. خُصص لنا نصف ساعة فقط لنشاهد الآثار الرائعة التي أتينا من أجلها. حين خرجنا من الصرح الضخم وجدنا خليط من الجياد والحمير في انتظارنا من أجل رحلة الإياب. ركب الخديوي حمارًا؛ وقفزت أنا على أقرب فرس تبين بعد ذلك أن لجامه مقطوع؛ كما كان فمه يزبد ويرغي باللعاب والدماء. لم يبق من اللجام سوى مقدار قدم واحد الأمر الذي تطلب مني الإتيان بحركات بهلوانية لأجمع طرفيه معًا، ونجحت

في فعل ذلك. بعد ذلك جُلب حصان الخديوي فركبه معاليه وركض به إلى مقدمة الموكب. فجأة بدأ حصاني في التقهقر والرفس والركل بوحشية، ثم اللف والدوران، ثم الانطلاق والعدو بسرعة كل هذا معًا مما جعلني أتطوح بجنون فوق الحقول والحواجز. اقتحم الحصان أكوامًا من قصب السكر ثم هاج وماج على جمع واقف من العرب حتى شتتهم. وما زال على عناده وجنونه حتى أفلحت أخيرًا في الوصول به للساحل فنزلت من عليه وكلي فخر لأني بقيت على ظهره وواصلت الرحلة سالمًا حتى نهايتها.

في إسنا زرنا معبد من العصر البطلمي، وخلافه لم يكن ثمة ما يبقينا هناك فبدأنا في اليوم التالي المرحلة الأخيرة من الرحلة في اتجاه الشلال. بعد غروب شمس ذاك اليوم بفترة طويلة بدت في الأفق البعيد أضواء أسوان. كانت الملاحة عبر الثلاثة أميال المتبقية على المدينة بطيئة ومحفوفة بالمخاطر؛ ولولا ما قام به سكان البلدة من تحديد النتوءات الصخرية بوضع الفوانيس عليها وكذا إضاءة السفن في المراسي لما تيسر لنا الوصول إلى وجهتنا تلك الليلة. رست بواخرنا بشكل طيب بحلول الساعة الثامنة مساءً فهرع بعض ممن يتمتعون بالحكمة إلى اليابسة ليبتاعوا ريش النعام والعاج والمشغولات الفضية والنصال الحادة المجلوبة من السودان ذلك لأنهم أدركوا يقينًا أن الأسعار سوف تصل إلى ثلاثة أضعافها في اليوم التالي بمناسبة تشريف الخديوي.

في صباح اليوم التالي وبينما كنت أرتدي ملابسي على راحتي جاءني خبر مفاجئ «لقد بدأ جلالته في التحرك». في غضون ثلاثة دقائق كنت على سطح الباخرة فوجدت الخديوي والبطانة يركبون أربعة فلائك كبيرة لكل منها ثمانية مجاديف. وبالرغم أن الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا إلا أن الشمس كانت

تصب لهيبها دون رحمة على مسافر لم يمهله الوقت ليتناول النزر اليسير من فطوره. قُضي الأمر وطغى السعي لمشاهدة الشلال على كل ما عداه. كانت محطتنا الأولى هي جزيرة «إلفنتين»[٣٧] حيث زرنا المقياس القديم للنيل وبعض الخرائب (الأطلال) الأخرى. عدنا وانطلقنا لأعلى النهر ومع حركة المجاديف زاد المشهد حولنا إثارة. على الجانب الأيمن لاحت مجموعة من الروابي الصخرية المتراصة في شكل خطي وقد اكتست قممها برمال ذهبية تميل إلى الحمرة وتختلف في لمعانها عن الرمال الصفراء الباهتة التي نراها على الشواطئ أو حتى رمال الصحاري. على اليسار ارتفعت الصخور المشقوقة والمسننة عن قطع اليابسة الرمادية على حافة المياه منحدرة نحو الجبال وما خلفها. يمكن للمرء أن يشاهد القبور والأطلال التي انتشرت بشكل عام على رؤوس الجبال؛ كما يمكنه كذلك في أغلب الأماكن ملاحظة بقايا كتابات هيروغليفية على صخور تعرضت للتآكل والإبلاء بفعل المياه.

سار حشد كبير من المصريين بمحاذاتنا على اليابسة، وأذهلونا بقدرتهم على صعود وهبوط الجروف الوعرة حيث يتعذر - حتى على القطط- إيجاد موطأ قدم! وكنا كلما أوغلنا في التقدم ضاق علينا الممر المائي وأصبحت مياهه حبيسة بين شطري الصخور. أدى ذلك في النهاية إلى اشتداد التيارات المائية الأمر الذي استحال معه مواصلة التجديف. جنحنا إلى اليابسة بعد رحلة استغرقت ساعتين وتسلقنا التلال الزاخرة بكل أطياف وألوان الجمال من كريستال وجرانيت ورخام و»سيانيت» أو الحجر الأسواني، نسبة إلى «سيّن» وهو الاسم اليوناني القديم لهذه المدينة. اعتلينا هضبة مرتفعة فتحت لنا آفاقًا لرؤية النيل على نحو مغاير تمامًا عن منظره المألوف والمعهود. انتهت

(٣٧) Elephantine.

مياه النهر إلى بحيرة هائلة زاخرة بالجزر الصغيرة التي احتضنت أشجار النخيل الخفاقة. اكتنف هذه الجزر جلاميد من الصخور وقد تواطأت فيما بينها لتعيق تقدم شريان المياه التي أخذت تزبد وتهدر وهي تتدفق دون هوادة في تيارات سريعة عبر مئات القنوات الآزورية الأمر الذي صم آذننا. أحاطت المنحدرات والروابي هذا الحوض الكبير من المياه وقد داعبتها أشعة الشمس المشرقة وسط سماء لازوردية باهرة.

في طريق العودة أفلح تورابي بيك الذي لم يتناول فطوره - شأنه في ذلك شأني- في الحصول على كسرة خبز من أحد الأهالي. عرض الرجل عليّ اقتسامها، لكني رفضت بالطبع. وصلنا إلى البواخر مع انتصاف النهار فأحسست بالنصب الشديد وأوشكت على الإغماء، لكن الحمد لله لم أُصب بضربة شمس.

لم ينته يومنا عند هذا الحد فلم يزل أمامنا زيارة جزيرة فيلة الواقعة في مواجهة الشلال.(٣٨) ولأنه يوجد خط سكك حديدية قصير أُقيم لنقل البضائع في هذه المنطقة فقد وضع في الحسبان الانتقال بالقطار. انطلقنا في مركبات صوب المحطة وسط مشاهد ساحرة الألوان من نخيل وزهور دوار الشمس ورمال مترامية ووصلنا هناك فلم نجد بها سوى قطار بضائع يتكون من أربع عربات زُينت بسعف النخيل وجُهزت بالمقاعد من أجل البلاط. كانت تجربة مميزة. ركب الخديوي وخاصته وأنا منهم آخر عربة التي غطتها الأعلام والورود من الخارج والمرايا والستائر الحريرية من الداخل. بعد نصف ساعة من الرجرجة عبر الصحراء صرنا قبالة جزيرة فيلة. كانت هناك باخرة في انتظارنا لتحملنا إليها، وكان المشهد بديعًا ورائعًا وبكرًا حتى أن حطام الآثار قد أمسى بجدارة جزءًا من نسيج الطبيعة في وقوفه هناك وسط سكون مهيب. لقد كان المشهد برمته

(٣٨) الشلال الأول. (المترجمان)

آية جمعت بين جمال الرومانسية وعبق التاريخ ويندُر أن تجد له مثيلاً في العالم بأسره. لا يمكن أن أنسى آخر ما التقطت عيوننا من مشاهد الجزيرة ونحن نودع النهر والصخور وما بقى فيها أثرًا بعد عين وقد أظلتهم مسحة من فرشاة ألوان الغروب الرائعة في بر مصر.

أمضى الخديوي المساء في الباخرة. شرعت فرقته الموسيقية في عزف طائفة منوعة من الألحان على ضوء المصابيح الفضية؛ وكانت بعضها إنجليزية بناءً على طلبي. جاءتنا القهوة في إبريق ذهبي وقُدمت لنا في أقداح من الذهب المرصع بالماس. على الشاطئ أخذت مجموعة من الفوانيس لا يحصيها العد تمايل وتتأرجح بين أشجار النخيل. مما أثار دهشتي الشديدة أنه بينما كانت الفرقة تعزف السلام الوطني الإنجليزي تصادف أن ترافق ذلك مع تحية من قذائف المدفعية وكأنه إرهاصًا بما حدث بعد ذلك بوقت ليس بعيد حين اجتاز آلاف من الجنود الإنجليز هذه البقعة إلى السودان ليحققوا نصرًا عظيمًا لولا كلفة الأرواح وعدا أنه لم يؤت ثمره.[٣٩] قوطعت المعزوفة الموسيقية من جديد، لكن هذه المرة على يد فرقة من أولاد البلد وقفوا على مقربة ذراع من الباخرة. كان عزفهم نشازًا وكفيل بأن يحطم الأعصاب حتى لو كانت من حديد، لكن نيتهم كانت طيبة الأمر الذي حدا بالخديوي ليتحملهم بروح من الدعابة والفكاهة؛ وحتى حين نزل أحدهم إلى حافة المياه قارعًا بحماسٍ وعنف طبلته أو علبته الصفيح أو أي من الآلات الأخرى المروعة فقد سُمح له بإصدار هذا الضجيج دون أن يمسسه أحد بسوء.

في الخامس من شهر فبراير تحولت دفة السفينة نحو الشمال في رحلة الإياب وسرعان ما اختفت أسوان خلفنا وقد اعترانا أسى عميق لفراقها. لا بد وأن

(٣٩) المقصود الثورة المهدية ١٨٨١-١٨٨٢. (المترجمان)

جوفينال[٤٠] قد استمتع بالإقامة في هذه البلدة حين نُفي إليها. زرنا المعبد الشهير في إدفو ثم عدنا أدراجنا في رفقة مجموعة من البدو الذين امتطوا الجمال. في الطريق قام البدو بتمثيل جو المعركة فانعطفت الجمال وانقضت بسرعة وخفة على نحو مغاير للفكرة المأخوذة عنها وهي تمشى الهوينى في رزانة وعلى ظهورها الأحمال. لا أرى داعيًا هنا لأسجل زيارتنا إلى الكرنك بمدينة وادي الملوك والمئة باب المعروفة بطيبة أو الأقصر. لا يجهل هذه الأماكن رحال أو سائح ولا يعطيها حقها صاحب قلم.

أقمنا خلال الثلاثة أيام التي قضيناها بالأقصر في فندق، ولم نشعر بالأسف نتيجة لتغيير نظامنا الغذائي. أكرم القنصل الإنجليزي هنا - ويدعى مصطفى أغا- وفادتنا. كان للقنصل ابن يتحدث اللغة الإنجليزية ولديه معرفة جيدة بالتاريخ المصري القديم. لن أنسى مطلقًا ما أسداه لي هذا الابن من خدمات جليلة! الحكاية ببساطة أنه بسبب حداثة عهدي في البلاد فقد كنت جاهلاً بالتحف الأثرية، ومن ثم تطوع الشاب ليساعدني في ابتياع بعض منها. اصطحبني إلى تاجر وهناك أعجبت بقطعتين فاستفسرت عن ثمنهما. «ثمانون فرانك»،[٤١] أجاب التاجر. بعد نصف ساعة من الفصال استطاع مرافقي أن يخفض السعر إلى خمسين؛ وكان كلما هبط بالسعر رمقني بنظرة المنتصر ولسان حاله يقول «لا تستسلم». أقسم مصطفى الابن على التاجر أن يقلل السعر، لكن الأخير رفض المساومة على فرانك آخر، ومن ثم تحول الأمر إلى مشادة ومماحكة غاضبة. ارتفع الصراخ وأبرقت العيون وتطاير رزاز اللعاب في الوجوه وامتدت الأيادي لتقبض على الملابس وتمزقها. حين أنهك العراك

(٤٠) Juvenalشاعر روماني عاش في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي وعُرف بقصائده اللاذعة. (المترجمان)

(٤١)عملة فرنسية. (المترجمان)

كليهما انطلق مصطفى نحو القطع وأحكم قبضته عليها وهبط بها الدرج طائرًا وهو يصيح «أعطه أربعين فرانكًا.» دفعت النقود للتاجر الذي تقبلها بوجه عابس وجبين مقطب ثم لحقت بمصطفى الحاذق الذي سلمني القطع بدوره. وبالرغم من أن إحداها قد وقعت منه وتحولت إلى ثلاثة أجزاء إلا أنه أخذ يؤكد أن الصفقة كانت مربحة وأن الكسر يزيد من قيمة «الأنتيكات». هنا أخذت الشكوك التي ساورتني في الازدياد، لكن بعد فوات الأوان. لقد وقعت في شرك النصب والاحتيال؛ والقطع لا تساوي أكثر من عشرة فرنكات؛ ولا شك أن مصطفى حصل على «نابليون»[٤٢] نظير اشتراكه في هذه الصفقة. لقد كانت هذه أولى تجاربي مع البقشيش في التجارة على النظام المصري.

قبل مغادرة الأقصر عرجت على التاجر بمفردي وبدون حماية قنصل جلالة ملكة بريطانيا.[٤٣] هذه المرة وبمبلغ ضئيل ابتعت «أنتيكات» نادرة حقًا مازلت أحتفظ بها. عندما رأى مصطفى هذه القطع المثيرة للفضول لم يستطع أن يُخفي تكدر وجهه، لكنه علق قائلا: «آه... لقد أخبرتك أنه سيقبل في النهاية بأي شي تعرضه عليه.»

لا بد وأن أعترف أنني لم أشعر بكثير من الأسى حين علمت بعد بضع أسابيع أن مصطفى أغا ذاق من نفس الكأس. كان أحد عائلة «روثتشايلدس»[٤٤] يقوم بزيارة شتوية لمصر وأُذيع أنه سيحضر إلى الأقصر، وعليه قام مصطفى بترتيبات هائلة من أجل هذا الحدث فأعد الجياد والحمير والحراس والبدو وجهز الإضاءة والألعاب النارية. وصل الرجل بالفعل فأقيمت الاحتفالات

(٤٢) اللفظ الدارج للخمسة فرانكات. (المترجمان)

(٤٣) المقصود الملكة فيكتوريا ١٨٣٧-١٩٠١. (المترجمان)

(٤٤) Rothschildsعائلة ألمانية من أصل يهودي كانت رائدة في إنشاء البنوك الأوروبية. (المترجمان)

لثلاثة أيام على شرفه تمامًا كما لو كان الخديوي. أدرك الجميع أن الزائر سيترك بقشيشًا محترما في نهاية الزيارة. أسر فلاح لآخر «هذا يا أخي ناظر المالية عند الإنجليز وفي يده مناجم الهند كلها. يا إلهي... لماذا لم تخلقني مصطفى أغا؟»في وقت واف وصل صندوق مغلق من القاهرة. كان ثقيلاً جدًا فخشي مصطفى أن يكون محملا بأطباق فضية وحسب؛ لقد كان يطمح في المجوهرات الثمينة. تبين أن الصندوق يحتوي على دستتين من الشمبانيا. يعتبر هذا أمرًا سيئًا حقًا لرجل مسلم لا يشرب الخمر، لكن مصطفى تغلب على صدمته مع مرور الوقت وتحدث عن إرسال لحم الخنزير ردًا للهدية.

مرت الأيام القليلة المتبقية على سفح النيل بشكل طيب وتخللها لعب الشطرنج مع أحد البَاشَوات أو التدخين على سطح السفينة والاستمتاع بدفء الشمس واحتساء القهوة أو قراءة نسخة عزيزة من هوميروس(٤٥) أو متابعة الحوارات باللغة العربية أو التركية عوضًا عن سماعها واليأس من إمكانية فهمها. في المساء كان هناك الموسيقى والألعاب النارية وأحيانًا جلسة للعب الورق مع الخديوي من أجل التسلية، لا النقود. في أسيوط تسلم الخديوي برقية من القاهرة يرجوه فيها دوق «صازرلاند»(٤٦) السماح بمقابلته على وجه السرعة. لقد أراد هذا الدوق المعروف بجرأته في خوض المشروعات مناقشة شراء أو تأجير السكك الحديدية المصرية. ولأن الدوق كان على وشك الرحيل إلى إنجلترا فقد اجتهد في الحصول على إجابة قاطعة بخصوص هذا الموضوع. عندما وصل الخديوي إلى القاهرة كان الدوق قد رحل بالفعل. استفسر السيد إيستون(٤٧) وهو أحد موظفي الدوق لاحقًا عن سبب تباطؤنا في القدوم من

(٤٥) Homer شاعر يوناني صاحب «الإلياذة». (المترجمان)

(٤٦) Sutherland.

(٤٧) Easton.

أسيوط وهل كان التأخير متعمدًا فأجبته أن معدل السرعة كان متفاوتًا طوال الرحلة برمتها؛ ومن ثم لم ألحظ هذا الأمر. أغلقت إجابتي باب الحديث وهكذا خاب سعي الدوق.

الفصل الثاني

تناول وجبة عشاء مع الخديوى ـ فظائع الدوسة[٤٨]ـ زيارة إلى ميدوم[٤٩]ـ مغامرة مع البدو ـ السراب ـ حفل رقص بقصر عابدين ـ قصة مقتل المفتش ـ تبذير الخديوى إسماعيل ـ أمكان الإيواء بالقصر

عدنا إلى القاهرة لأجد نفسي مرة أخرى في الفندق دون عمل أضطلع به. كنت كلما استفسرت عن بدء التدريس أسمع إجابة واحدة لا تتغير «لم يتم الانتهاء بعد من تجهيز القاعات المخصصة لهذا الغرض في القصر.» لذا قررت أن لا أشغل رأسي بهذا الأمر وأن أستمتع بالتجول بين المساجد والبازارات وركوب الخيل في الصحراء وزيارة المقابر القديمة والأهرامات وتمضية ساعات النهار الهانئة في الصيد على ضفاف النيل وسط حقول وافرة بالبرسيم والذرة. ولإحساسي بالمسئولية اعتدت أحيانًا تمضية بضع ساعات في صالات الانتظار بالقصر وفيها التقطت بعض العبارات باللغة العربية وتعرفت على شق من عادات أهل البلد وأنماط تفكيرهم.

(٤٨) موكب الدراويش في مولد النبي والأعمال التي يأتون بها. والاسم «دوسة» مشتق من «دوس : دَاسَ الشيء برجله من باب قال» لأن جزء من مراسم الاحتفال عبارة عن انبطاح الدراويش ملتصقين على بطونهم ثم يطأ الفرس الذي يعتليه شيخ الطريقة ظهورهم؛ وفي هذا تدليل عن قوة الإيمان من وجهة نظرهم. (المترجمان)

(٤٩)تقع هذه المنطقة على بعد حوالي ١٠٠ كم جنوب القاهرة في محافظة بني سويف وبها هرم ميدوم الشهير أو الهرم المائل الذي يُنسب للملك سنفرو والد الفرعون خوفو. (المترجمان)

يعيش حاكم البلاد مع زوجته وأسرته في قصر الإسماعيلية[٥٠] بالقرب من جسر قصر النيل. يبغض الرجل العبودية وكل من يقومون على خدمته يتقاضون أجرًا نظير الأعمال التي يضطلعون بها.[٥١] وجنابه مناوئًا لتعدد الزوجات بشدة فهو - مثل الأوروبيين- يجل الحياة الزوجية.[٥٢] يستيقظ الخديوي في الساعة الرابعة صباحًا، ولا يتناول أي فطور بل يتريض مترجلاً أو مستقلاً الكارة لمدة ساعتين. بين الساعة السابعة والثامنة ينطلق في الركاب الرسمي نحو قصر عابدين والذي يبعد عن قصر الإسماعيلية حوالي نصف ميل تقريبًا. وقصر عابدين هو القصر المخصص عادة للاستقبالات والمراسم، وفيه يُمضي الخديوي ساعات النهار يدير خلالها العديد من الأعمال ويلتقي بالوزراء ويطلع على الخطابات والبرقيات ويتحدث مع حاشية البلاط. في الخامسة مساءً يعود الخديوي أدراجه في صحبة حراسه إلى قصر الإسماعيلية فيتناول عشاءه مع مغيب الشمس.

لن أنسى مطلقًا المرة الأولى التي تناولت فيها وجبة العشاء بصحبة الخديوي. دخلت القصر عبر بوابة مقوسة عالية تتوسط أسوارًا مرتفعة تحيط بحديقة غناء. على كلا جانبي البوابة يوجد صف من الأعمدة وشرفة تفتح عليها بعض

(٥٠) قصر الإسماعيلية الصغرى الذي بناه الخديوي إسماعيل بميدان الإسماعيلية، التحرير حاليًا وقد هُدم هذا القصر الجميل سنة ١٩٥٤م وأُقيم مكانه مبني مجمع التحرير. (المترجمان)

(٥١) بعد جلوسه على عرش مصر وقع الخديوي عباس الثاني مرسوما بإلغاء السخرة والكرباج. علق الخديوي على قراره في مذكراته قائلا: «ولم أقم بهذا العمل الرسمي إلا إتباعًا لرغبة والدي.»، عهدي: مذكرات عباس حلمي الثاني- خديوي مصر الأخير ١٨٩٢-١٩١٤، ترجمة الدكتور جلال يحيي، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٢٠٧. (المترجمان)

(٥٢) كتب حنفي المحلاوي في «حريم ملوك مصر، من محمد علي إلى فاروق» على لسان أحمد شفيق باشا: «بعد أن استقرت له الأمور بدأ يفكر في حل مشكلة جواري أبيه حيث ترك إسماعيل من بعد رحيله عددًا كبيرًا من هؤلاء الجواري والحريم خاصة الشركسيات، وقد أوكل توفيق أمر هؤلاء إلى طه باشا ناظر الخاصة الملكية الذي أمر بتزويج كل الجواري والحريم مع صرف النفقات اللازمة لهن.» القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٣، ص ٩٧. (المترجمان)

الغرف المخصصة لإقامة مسئولي البلاط حين يقضي الخديوي يومه في محل إقامته، وهو أمر نادر الحدوث. تزخر حديقة القصر بالنخيل وأشجار الموز وشجيرات «الجهنمية»[٥٣] و«بنت القنصل»[٥٤] والكركديه ونباتات وزهور في غاية الجمال والتأنق. تنقلك درجتان مكسوتان بالرخام الأبيض من الحديقة إلى البهو الرئيسي للقصر والذي يحوي أكثر من ردهة فُرشت كلها على النظام الأوروبي. جلسنا حول منضدة بيضاوية الشكل. يتصدر الخديوي دومًا المائدة وأمامه مساحة خالية على كلا الجانبين، ثم يأتي اثنان من البَاشَوات ذوي الحيثية الكبيرة كحامل الأختام ورئيس المراسم الخديوية ويليهما بقية المدعوين حسب ترتيب أهميتهم. في تلك المناسبة كان هناك سبعة بَاشَوات ناهيك عن تورابي بيك وتورينو بيك. تحدث الخديوي غالبية الوقت بالفرنسية التي لا يفهمها عداي أنا وتورينو. وصف الخديوي وصفًا حيًا المحمل المبارك الذي عاد بالحجيج من مكة صباح ذاك اليوم. عقب جلالته قائلا: «أدعم هذا الاحتفال الهام في ديننا طالما لا ضير فيه ولا أذى. العبرة عندي ألا يحتوي الاحتفال على ممارسات بربرية متوحشة تثير الامتعاض كما يحدث في ظرف أيام قليلة حين تشهدون معي دوسة الدراويش الذي أتحفظ عليها ولي فيها رأي مختلف، ورغم ذلك فلا يبدو إبطالها أمرا ممكنًا.»

عندما انتهى العشاء تقدم الخديوي الحاضرين عبر البهو إلى رواق آخر. «نشوفكم»، هي الكلمة المستخدمة عادة لدعوة الحاضرين للحاق بسموه. جلس الضيوف وسط الردهة على صف من المقاعد العادية وفي مواجهتهم الخديوي

(٥٣) Bourgainvillia نبات متسلق من مرتبة القرنفليات له عدة ألوان مختلفة منها الأبيض والوردي والبرتقالي. (المترجمان)

(٥٤) Poinsettia شجيرة زينة مستديمة الخضرة يتراوح ارتفاعها بين ١-٣ متر وأوراقها حمراء اللون. (المترجمان)

متكأ على أريكة مبطنة وممسكا بتلابيب الحوار. في وجودي يجري الحديث بالإنجليزية أو الفرنسية طيلة الأمسية فيتسرب الملل إلى نفوس البَاشَوات. دائمًا ما يقوم الخدم من ذوي البشرة السمراء بتقديم القهوة والسجائر ومع تلقي أيهما يتم تحية المضيف بشكل بسيط يخلو من المبالغة. عندما انتهينا من التدخين استأذنا قاصدين غرف الانتظار عبر الحديقة. إذا كان هناك أمر ملح يستدعي الخديوي من يشاء ليتحدث معه على انفراد. لقد كان لي مع جنابه بعض المقابلات الخاصة التي سأسردها لاحقًا.

و«الدوسة» التي تطرق الحديث إليها آنفًا هي جزء من الاحتفال بمولد النبي الذي يجري لعدة أيام في العراء بجوار الكنيسة الإنجليزية. تُنصب الخيام في هذه الساحة الخالية على شكل دوار كبير؛ وتمثل كل منها أحد الشيوخ الكبار وأتباعه من الدراويش. تُنصب خيمة فاخرة للخديوي وتُجنب أخرى للحاشية.

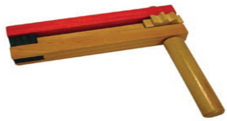
أُقيمت الأفراح والليالي الملاح لمدة أسبوع متواصل. جاء المسلمون من كل صوب وحدب لرؤية أصدقائهم والصلاة والمشاركة في حلقات الذكر المهيبة وما يرتبط بها من إثارة دينية محمومة؛ وخلا ذلك يوجد أيضًا الألعاب النارية ومتع أخرى. في تلك السنة خُصص اليوم الأخير، الأحد، للدوسة. ورغم أن الدوسة أميز وأغرب جزء في أهم احتفال ديني في مصر إلا أن وجودها لا يتجاوز القرنين من الزمان. تقوم الدوسة على نظرية مفادها أن الدرويش الصالح عن حق لا يصيبه أذى أو ألم حين يتعرض جسده للعذاب لأنه في كنف الدين.

توجهت تقريبًا في الحادية عشر صباحًا إلى ساحة الاحتفال. جلست في الخيمة المخصصة للبلاط وشرعت في التحدث مع رفاقي. كنا في الجانب الغربي من الميدان وكان من المخطط أن يمر الموكب الكبير من هذه النقطة. على الجانب

المقابل لخط خيامنا أشرف الجنود على صف عربات الركوب وتنظيم الحشود الكثيفة من البشر في عدة مضامير عرض كل منها أربعين قدمًا وعمقها من المدخل إلى خيمة كبير الدراويش حوالي ثلاثمائة ياردة؛. على امتداد الطريق مُد بساط بعرض عشرة أقدام. على هذا البساط من المفترض أن ينبطح الموالين على بطونهم بينما يسير الشيخ ممتطيًا جواده على أجسامهم.

وصل الخديوي بحلول منتصف الظهيرة ونزل أمام خيمته. بعدها بقليل انطلقت همهمة وغمغمة تشير إلى اقتراب موكب الدراويش، وما هي إلا بضع لحظات حتى شاهدنا صف من الرايات الخضراء والحمراء مزخرفة بآيات من القرآن تنطلق إلى الأمام. كان معظم الدراويش معممين في زيهم العربي بينما ارتدى آخرون ثيابًا غريبة تخص قبائل بعينها. حلق البعض رؤوسهم تاركين خصلة طويلة أعلى جباههم في حين أرخت فئة أخرى شعورهم الطويلة فأخذت تتطاوح على أكتافهم. لبس البعض دروعًا وظهرت طائفة أخرى عراة الصدور حتى خصورهم. عند دخول المضمار لم يستطع بعض الدراويش الوقوف على أقدامهم دون مساعدة، لكن معظمهم أخذ في الاندفاع بسرعة مع الميل بأجسامهم. زاغت عيونهم وأرغت أفواههم كالمخبولين. شرعت مجموعة من الدراويش في شق الثعابين بأيديهم وتقطيعها بأسنانهم بشكل عنيف جدًا ثم تناول أجزاءً منها بنهم مفرط، ناهيك عن أكل الزجاج والنار. دفعت مجموعة أخرى المسامير الصلبة في خدودهم وأذرعهم وانشغل قسم ثالث في قرع الطبول ولف الرتالات.(٥٥)

(٥٥) جمع «رتالة» وتشبه الخشخيشة (الشخشيخة)، لكن طريقة عملها مختلفة.



انبرى البعض في إدماء وجوههم وصدورهم بالمُدْياتُ والخناجر بينما أخذ آخرون منحى أكثر هدوءًا فرفعوا سيوفًا في الهواء نصالها مسلطة على حناجرهم في رمزية للتضحية بالنفس. تحت تأثير مخدر قوي يُعرف بالحشيش دخل الجميع في نوبة مسعورة من الحماس الديني حملتهم فعليًا على الاهتياج والجموح والعربدة وهم يصيحون ويصرون أسنانهم. لقد كان مشهدًا مروعًا ومقززًا، بيد أنه يهون مقارنة بما حدث بعد ذلك.

عند اكتمال وصول المجموعات ووقوفهم على الأَبْسِطَة والحُصر كل في مكانه صدرت إشارة لهم فانبطحوا جميعًا على بطونهم بشكل عنيف. أخذ كبرائهم في رصهم والتأكد من أن أجسامهم ملتحمة ولا يوجد بينها ثغرات. كان البائسون يرتعشون ويزبدون ويتمتمون بأفواه مطبقة «يا اللهٰ! يا اللهٰ!». خلع المرافقون نعال الراقدين ووضعوها تحت وجوههم كما قاموا بالإمساك بكعوبهم وجذبهم شيء بسيط حتى يساووا بين أجسادهم في خط واحد بغية خلق مسطح عريض وممهد للحصان بعيدًا عن الرقاب والأرجل. حال الانتهاء من هذه الإجراءات استعاد الدراويش بعضًا من رباطة جأشهم وقلت حركة رؤوسهم المسندة على أذرعهم المُشبكة، لكن هذا لم يمنع من استمرار دمدمتهم. عندما تم الانتهاء من تنظيم الصف بدأ تحرك الفرس الذي يحمل كبير الدراويش. كان الشيخ مرتديًا عمامة خضراء كبيرة وقفطان جملي اللون وزنار مرقش. على كلا الجانبين قبض

سائسان على لجام الفرس، كما سار رجلان آخران بجانب الشيخ ليحولا دون سقوطه لأن عينيه كانتا مغمضتين ولأنه كان يترنح على سرج الحصان من شدة التأثر. طفق شخص في العدو أمام الجواد على أجساد الراقدين وسبقه اثنان آخران راحا يطلقان صيحات تنبيه للأشكال المنبطحة بمقدم الشيخ ليأخذوا أهبتهم. كان الشيخ ضخم الجثة وجواده قصير القوائم ومدملج وكلاهما معا يمثلان وزنًا رهيبًا في دعسهما لهذا الطريق من اللحوم الآدمية.

أمام خيمة الخديوي ومن موضع وقوفي على البساط وقدماي على الحد الذي شكلته رؤوس المنبطحين تمكنت من مشاهدات الفظاعات التي حدثت بشكل جلي. في صمت مطبق جلس العديد من أصدقاء الراقدين القرفصاء في مواجهتهم وهم يهوون على وجوههم الملامسة لأديم الأرض. رأيت الجواد المرعب يدنو مصحوبًا على أحد الجانبين بجمهرة صاخبة ومتلهفة على نحو عجيب. عندما أصبح الحصان على مقربة مني انتفض درويش خائف ولاذ بالفرار وتبعه آخر تمكن العامة من القبض عليه على الفور وإعادته دفعا إلى مكانه. تابعت كل خطوة من خطوات الحصان لحرصي على سبر حقيقة هذا الأمر ونقلها كما هي. لقد أخبرني عدد ليس بقليل من أهل البلد آنفًا أن الحصان لا يطأ الأجساد بل يتحسس موضع أقدامه بينها. تبين لي زيف هذا الكلام لأن الأجسام كانت محشورة ولصيقة بحيث لا يجد الفرس بدًا من دهسها.

استمر الحصان في التقدم. شاهدت تلوي هؤلاء المعذبين وسحقهم الرهيب تحت وطأة وزن الجواد وحوافره التي راحت تعفص الأفخاذ والأكتاف والضلوع وفقرات الظهر. في مواجهتي تمامًا هبطت إحدى أقدام الفرس على جنب أحد التعساء ثم غاصت بينه وبين بائس آخر. تعثر الجواد؛ ومن ثم حاول استعادة

عافيته مندفعًا للأمام بصعوبة فما كان منه أن دعس اثنين من المساكين بقوة رهيبة. رأيت هذا كله بأم عيني فرحت أجز على أسناني من شدة السخط والغضب وعاهدت نفسي أن أحول دون وقوع هذا الأمر مرةً أخرى. حدث كل هذا بينما انفجرت مجموعة من الأوروبيين في الضحك وهم في مركبتهم المقابلة لنا كما لو كان الخطب مجرد مزحة؛ وإني لأشعر بالراحة لأنهم ليسوا من الإنجليز.

وهكذا استمر الحصان في عصر الأجسام تحت أقدامه. لم يحرك الدراويش ساكنًا حتى بعد مرور الجواد وتحملوا جميعًا وقع الصدمة الأولى في صمت للتدليل على قوة إيمانهم. بعد جمود دام للحظات نهض الدراويش أو حاولوا النهوض. لم يُصب بعضهم بأذى فهبوا على أقدامهم بشكل مضطرب. راح آخرون يئنون عند محاولة تحريك أعضائهم ثم ما لبثوا أن خروا مغشيًا عليهم. كان المشهد مروعًا أن ترى أمامك أشباحا جامدة الأعين تتدلى ألسنتها من ثغورها المنفرجة وآخرين يتلوون ويتساقطون من هول الألم. لقد شعرت بالهلع والشفقة نتيجة لمشاهدتي هذا التعذيب البدني وتلك الوجوه التي تحول سمارها إلى بياض من شدة الكرب. بادر أصدقاء المكلومين ورفقائهم باقتياد الضحايا بعيدًا عن المشهد. عادةً ما يُرسل الجرحى خارج القاهرة بينما يُدفن الموتى في سرية؛ ولا يتسنى لأحد معرفة أعداد أيهما حتى لا يُقال أن معجزة الرسول لم تتحقق. وبسبب هذا التعتيم يعتقد أهل البلد بأنه لا يُصاب أحد بسوء.(٥٦)

(٥٦) ربما يحضرني في هذا الموضع حادثة مشابهة أوردها هيرودوت Herodotus في كتابه الثاني، الفصل ٦٣ وهو يتحدث عن المسيرة الدينية والقتال في «بامبريمس» Pampremisيقول καὶ ὡς ἐγὼ δοκέω πολλοὶ καὶ ἀποθνήσκουσι ἐκ τῶν τρωμάτων· οὐ μέντοι οἵ γε Αἰγύπτιοι ἔφασαν ἀποθνήσκειν οὐδένα. «كان هناك قتالا عنيفًا بالهراوات وانبروا في تهشيم رؤوس بعضهم البعض. في ظني لقى الكثيرون حتفهم بسبب هذه الجروح، وبالرغم من ذلك أخبرني المصريون أنه لم يُصاب أحد بسوء.» (المؤلف).

بعد أن انتهى الشيخ من «الدوسة» سلك طريقًا آخر في إيابه. توقف الحصان أمام خيمة الخديوي حيث أُنزل الشيخ من فوق صهوة جواده وهو يتمتم ببعض الأدعية، لكنه قوبل بفتور واضح. ما إن عاد الشيخ أدراجه حتى تجمع حوله حشد غفير من الناس وكلهم أمل أن يلمسوا الرجل المبارك أو أن يقبلوا يد أي شخص حظي بمسه. لا أجد اسمًا آخر لما حدث سوى اللامبالاة وعدم الاكتراث بالأعمال الهمجية التي يتسبب فيها التعصب الديني.

مما ينبغي ذكره هنا أنه بينما كان الشيخ في خيمة الخديوي توجهت صوب الجواد لأعاينه عن كثب. لم يكن كبير الحجم قياسًا على المعايير الإنجليزية، بل حجمه مناسب لفرس عربي. وكعادة أهل البلد كان الحصان منتعلاً بمعنى أن حوافره مغطاة بأقراص حديدية. لقد أكد لي بعضهم آنفًا عدم وجود حدوات[٥٧] بتاتًا أسفل حوافر الفرس، لكن مرة أخرى يثبت عدم صحة معلوماتهم. مكث الخديوي داخل خيمته خلال الاحتفال مؤثرًا عدم مشاهدة الأعمال البربرية التي ارتُكبت أو أقل القليل منها. لقد غادرت هذا المشهد وكلي عزم وتصميم على إخبار الخديوي بحقيقة الدوسة كاملة وألا يهدأ لي بال حتى يتم إلغاؤها.

شعرت بالسعادة لتمضية يوم خارج القاهرة بعيدًا عن هذا المشهد المأسوي مباشرة. قررت الذهاب مع «أ» وهو زميل دراسة قديم في جامعة أكسفورد إلى الريف لزيارة هرم «ميدوم» العجيب. أزمعنا الانطلاق من الفندق مع أول ضوء وطلبنا مؤن تكفينا يومين، لكن حين حلت ساعة الرحيل اكتشفنا أن الخادم نسى الطلبات، وبالتالي لم يكن هناك شيئا جاهزًا. تمكنا بعد جهد

"بامبريمس" Pampremis أو Papremis يُعتقد أنها كانت مدينة كبيرة على النيل وفيها حارب اليونانيون والمصريون الفارسيين. (المترجمان)

(٥٧) جمع «حدوة». (المترجمان)

كبير من الحصول على بعض اللحم البارد والخبز والخمور والقهوة والبرتقال ثم ألقينا بهم في سلة وركبنا على عجل نشق شبورة الصباح البيضاء في اتجاه بولاق الدكرور[٥٨] حيث لحقنا بالقطار في اللحظات الأخيرة. عند بلوغنا «الواسطة» لم نستطع تدبير ركوبة لكلينا ولخادمنا سوى ثلاثة حمير بائسة بدون حبل كلجام أو حتى حصيرة كبردعة؛ وبالرغم من ذلك دفعنا فيها نقودًا كثيرة كما لو كانت من حمير البَاشَوات الرائعة، المزينة والمدللة والتي يصل ثمن الواحد منها إلى مئة وعشرين ليرة ذلك لأن الباشا البدين رائق المزاج غالبًا ما يفضل مشية الحمار الهادئة على الإيقاع النشط للجياد.[٥٩]

بالإضافة إلى الحمير اضُطررنا أيضًا إلى استئجار أربعة رجال كحراس. حمل أحدهم بندقية عتيقة والآخرون هراوات؛ والخطر الوحيد الذي أمكنهم إنقاذنا منه هو فيض المؤن.[٦٠] وضعنا معاطفنا على الحمير بديلًا عن البرادع، وأسندت بندقيتي أمامي على ظهر الحمار حين كنت لا أستخدمها في توجيهه. شققنا طريقنا وسط أراض فسيحة، منبسطة ومفعمة بالخضرة الناضرة. تناولنا غداءنا في حقل ذرة ودفعنا لمالكه فرنكًا تعويضًا عن التلفيات. واصلنا الرحلة مرة أخرى متخطين قرية ميدوم النابضة بالحياة إلى حافة الصحراء والهرم الذي يقع بعدها بمسافة.

(٥٨) أصلها العبارة الفرنسية Beau lac de Caire أي بحيرة القاهرة الجميلة. (المترجمان)

(٥٩) كتبت صوفيا لين في مذكراتها التي ترجمتها الدكتورة عزة كرارة تحت عنوان «حريم محمد علي» ونشرته دار سطور بالقاهرة أن الحمير تتمتع بحظوة وشهرة في اجتياز عقبات الطريق والسير بخطى أسرع وأسلس من الخيل.» سهير حلمي، «أسرة محمد علي»، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ص ١٢٣. (المترجمان)

(٦٠) يقصد الكاتب أنهم أسرفوا في استهلاك مؤن الرحلة. (المترجمان)

يتحدث كتاب الدليل عن «طريق من المقابر الخالية» انتوينا تمضية الليل في إحداها ذلك لأننا لم نجلب معنا خيام، لكن يبدو أن الوصف كان مستقى من الخيال فلم نجد مأوى سوى رواق مفتوح من الأعمدة التي يصل ارتفاعها إلى ثمانية أقدام ومحيطها خمسة أقدام تبين أنه مدخل مقبرة «نيفرمات»[٦١] المغلقة التي تفوق أهرامات الجيزة في القدم، بل ربما كانت أول أثر في مصر حُدد فيه تاريخ واسم بانيه.من مقبرة قريبة لها تم استخراج تمثالي «رع حتب وزوجته»[٦٢] وهما أقدم التماثيل الصخرية في العالم وأروع عجائب متحف بولاق.[٦٣]



فرشنا حصيرة في الرواق وتمددنا عليها بينما شرع «علي» في صنع القهوة. ترجلنا نحو الهرم الذي يختلف عن الأهرامات الأخرى كونه مكون من مصاطب،[٦٤] كما أنه غير مكتمل البناء؛ زد على ذلك أنه لم يُفتح من قبل ومن ثم فإن أسرار

(٦١) Nefermat ابن الملك سنفرو. (المترجمان)

(٦٢) Nefret تم اكتشاف التمثالين في ١٨٧١. (المترجمان)

(٦٣) أقيم تحت إشراف «مارييت» Mariette وافتتح في أكتوبر ١٨٦٣. فاض النيل عام ١٨٧٨ فغرق المتحف، لكن «ماسبيرو» Maspero الذي خلف «مارييت» أعاد افتتاحه عام ١٨٨١. (المترجمان)

(٦٤) أو مدرجات وهو غير هرم زوسر بدهشور، ويلاحظ أن عوامل التعرية قد أخفت معالم المصاطب بهرم ميدوم فغدا يأخذ شكل المكعب. (المترجمان)

خمسة آلاف عام لم يُماط اللثام عنها.[٦٥] لقد صنع النحل خلاياه الصغيرة على سطح البناء الضخم وراحت الحرابي[٦٦] تثب بين شقوق صخوره.

كما ذكرت آنفًا شُيد الهرم أو المقبرة على مرتفع عند حافة الصحراءالكبرى،[٦٧] ويُشرف غربًا على رمالها التي لم يطأها بشر،[٦٨] بينما يطل من الشرق على السهول الخضراء التي يسقيها النيل. عند سفح هذه المرتفع توجد ترعة لم تُستخدم لدهور بالرغم من أنها ممتلئة لنصفها بالمياه مما جعلها مقصدًا لأسراب من الطيور البرية. تسللت قبيل الغروب عندما كانت هذه الطيور تحوم وتحلق حولها يحدوني الأمل في نصب كمين فأصيب بطة لعشائنا، لكن تبددت فرص التواري والمباغتة؛ كما كان البط حذرًا للغاية وبقى خارج المدى المؤثر للبندقية. على أي حال تناولنا طعامًا طيبًا هذه الليلة وجلسنا ندخن ونتحدث عن عظات التاريخ من داخل المقبرة التي انتهكنا حرمتها، وعرجنا بذكرياتنا المتأججة على قدامى الفلاسفة والشعراء الغابرين.

ظل صيد البط يؤرقني فتسحبت ومعي بندقيتي في العاشرة مساءً إلى هناك. لم يفوتني أن آخذ أيضًا مسدسي[٦٩] لأن الخادم علي كان واجمًا بشكل غريب وتلح عليه فكرة أننا سنتعرض للهجوم. تجولت لساعتين كاملتين حول الترعة وكلما سمعت رفرفة أجنحة جثوت وربضت على الأرض. فجأة رأيت في الأفق سرب من الإوز البري بريشه الأبيض يلمع في ضوء البدر. خفق قلبي وأنا أحبو

(٦٥) تمكن «ماسبيرو» من فتحه بعد ذلك، لكن «بيتري» Petrieمؤسس علم المصريات هو من استكمل الحفريات فيه. (المترجمان)

(٦٦) جمع «حرباء». (المترجمان)

(٦٧) Sahara. وتُسمى أيضا بالصحراء الغربية أو الصحراء الليبية. (المترجمان)

(٦٨)عدا التجار المسلمين يُعتبر الألماني فريدريش جيرهارد رولفس Friedrich Gerhard Rohlfsأول من ارتاد الصحراء الكبرى بغرض الاكتشاف عام ١٨٦٥ ثم أحمد حسنين عام ١٩٢٤. (المترجمان)

(٦٩) Revolver مسدس ساقية. (المترجمان)

وأزحف خلسة على أربع ثم أنبطح بلا حراك حين تنتبه الطيور. تعاظمت آمالي حتى أني ضحيت بصيد سهل عبارة عن بطة شاردة. أمسيت الآن على بعد مئة وخمسين ياردة من الإوز حين خفقت أجنحته بقوة وارتفع صوت زبيطه[٧٠] وهو يطير بعيدًا عن الأنظار.

قبل أن أتغلب على حالة الغم والكدر التي سببتها لي الصدمة انشقت الأرض بالقرب مني عن بدوي فارع يرتدي ثوب أبيض راح يشير ويصيح في الظلام بفظاظة ووحشية وهو يصوب بندقيته تجاهي مباشرة. لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب استشاط الرجل غضبًا فانتظرت واقفًا واكتفيت بإلقاء نظرات خاطفة إلى طارق بندقيتي. زاد عدد البدو إلى ثلاثة أو أربعة وكلهم حنق وغلظة بسبب شيء ما. حملت ومرافقي مسدسين، لكننا لم نشعر بالارتياح. من حسن الطالع أن أحد الحراس تتبعنا خلسة فهرول نحونا وظهر في اللحظة الحرجة. بعد تبادل بعض الألفاظ العنيفة أفلح الحارس في تهدئة البدو. اتضح أن لهم «تحجيزة» خراف بالقرب من الماء، لكن الحاجز الرملي حال دون رؤيتنا لها. عندما شاهدني البدو أتسلل ببندقيتي نحوهم بمحاذاة الترعة في حذر دخل في روعهم أننا ننتوي مباغتتهم وسرقة قطيعهم. هب البدو يعلنون عن وجودهم فطار الإوز واضطرت أنا للتوقف عن الإخفاء والتمويه؛ ولو أنني تماديت في هذا السلوك لأطلقوا حتمًا ودون سابق إنذار طلقة تهويش أو اثنتين تصم أذني وتصيبني لوهلة بذهول مفجع.

تقدمت الساعة وحان وقت الرجوع. في طريق عودتنا أخرجت طلقة واحدة صوبتها نحو بطة، لكنها سقطت في الماء. من منظور الرياضة تُعتبر

---

(٧٠)صوت الإوز. (المترجمان)

الحملة التي قمنا بها منتصف الليل عملاً فاشلاً. عندما عدنا إلى قواعدنا بالمقبرة تمددنا ملتحفين الدُثُر[٧١] والمعاطف بينما ربض حراسنا في المدخل يتجاذبون أطراف الحديث دون انقطاع. كان النوم ضربًا من المستحيل وسط هذا الصقيع وتلك الجلبة التي لم تتوقف فلم ننعم سوى ببعض الإغفاءات. وسط هذه الحالة من شبه الوعي حدثت ظاهرة غريبة. أتذكر جيدًا أني سمعت الحراس العرب يتكلمون في حديثهم المتصل والمطول بإنجليزية واضحة رغم أنهم لا يعرفون كلمة واحدة من هذه اللغة! كنت مستغرقًا في حالة حالمة فلم أشعر بالغرابة لذلك، لكن في الصباح وحين ذكرت هذا الأمر لرفيقي اكتشفت أنه مر بنفس التجربة العجيبة. بسبب محدودية عدد الحركات الصوتية في أي لغة فإن مخ الشخص الذي يكون بين اليقظة والمنام يعمد إلى انتقاء أصوات مألوفة له، ويطلق العنان للخيال فينسجها معًا. أكاد أجزم أن الأمر لم يكن مجرد حلم أو توهم يعزو إلى سنة من الكرى.

قبيل الشروق عاودت الكرة محاولاً صيد البط، لكن دون جدوى. ترجلنا نحو الهرم ونحن نسمع طنين آلاف من النحل الذي شرع في الخروج من سداسياته التي يعج بها سطح الهرم. كان الأمر أشبه بترانيم البكور مهداة إلى الشمس التي اعتلت لتوها الروابي الشرقية. حين اكتمل سطوع الشمس توقفت الموسيقى واختفى النحل في حقول البرسيم. سألت نفسي متعجبًا عن إمكانية تفسير موسيقى ممنون الخرافية على غرار ما يفعله النحل؟[٧٢]

(٧١) جمع «دثار». (المترجمان)

(٧٢) الإشارة هنا إلى تمثالي الفرعون أمنحتب الثالث في البر الغربي من الأقصر. يُطلق على التمثالين أيضًا «العملاقين» حيث يبلغ ارتفاعهما ما يقرب من عشرين مترًا. لُقب التمثال الشمالي بـ «ممنون» Memnon عندما تصدع نتيجة لهزة أرضية عام ٢٧ قبل الميلاد فراح يخرج صوتا مع بزوغ الشمس يشبه الهارب. كان الإغريق هم من أطلق عليه هذه التسمية مستحضرين البطل الأسطوري من أصل أثيوبي، ممنون والذي قُتل في حرب طروادة. كان ممنون الإغريقي يرسل تحية صوتية لأمه "إيروس" Eros،

عدنا أدراجنا لتناول وجبة الفطور وقد أخذ المشهد والصوت بألبابنا لنجد علي في حالته المعنوية المرتفعة منذ مرت ليلة البارحة بسلام. ولينا شطرنا نحو الغرب من جديد وانطلقنا في جولة ممتدة في قلب الصحراء. يعج الأديم في هذه المنطقة بالحصى الصغير متباين الألوان. اجتزنا هذه البقعة قاطعين مسافة أعمق حين لمع أمامنا وعلى بعد أقل من نصف ميل سراب ساحر. رأينا برك وبحيرات وخلجان متفاوتة من المياه الزرقاء الصافية تُشكل جزرًا رائعة. كانت الشمس متقدة وأشعرتنا رؤية السراب بالرغبة في شرب الماء. تبدل المنظر كلما اقتربنا منه فعمدت إلى تثبيت ناظري على نقطة بعينها والتوجه نحوها. انحسر المشهد العام رويدًا مع تقدمي وبدأت البحيرات والجزر والنخيل والخلجان في التآكل تدريجيًا فلم يبق غير صفحة من الماء ظلت حواشيها تضيق حتى تحولت على بعد خطوات إلى بركة صغيرة؛ وحتى هذه لم تدم طويلاً واختفت مع مسيري فلم أعاين محلها سوى الرمال وحسب. حين رفعت عيني في الأفق شاهدت الخداع البصري الخلاب يتجدد مرة أخرى. في ظني أن المشهد الذي عكسته هذه الظاهرة - بغض النظر عن التفسير الصحيح لها- غير موجود في أي جزء من أرض مصر.

في طريق عودتنا من الفلاة وجدنا بعض الفلاحين ينقلون الأحجار المخلخلة عند قاعدة الهرم في عربة «كارو»؛ يبدو أن هذه العملية مستمرة منذ فترة. امتطينا حميرنا قبيل منصف النهار قاصدين النيل حيث استمتعنا بالاستحمام فيه بالرغم من أن التيار كان سريعًا ولا يشجع على البقاء في مياهه لفترة طويلة. لم يحدث شيء ذا بال حتى وصولنا القاهرة، وبعدها بيومين أبلغت الخديوي

إلهة الفجر مع مطلع كل يوم جديد وينادي عليها. عندما تم ترميم تمثالي أمنحتب في عهد الرومان عام ١٧٠ بعد الميلاد توقف الصوت. تبين أن سبب خروج الصوت مع مشرق الشمس هو تغير درجة حرارة الجو داخل ممر هوائي يخترق تجاويف صخور التمثال. (المترجمان)

بالتخريب الذي يجري في هرم ميدوم فامتن لمعرفة ما يجري ووعد بإرسال أوامر صارمة للمدير(٧٣) بوقف هذه الأعمال.

في أوائل شهر مارس أقام الخديوي حفلة رسمية بقصر عابدين حضرها بنفسه ومعه بَاشَواته ووزرائه وضباطه وحاشيته. يُعد هذا النوع من الحفلات سفورًا وتكشفًا علنيًا بالنسبة للمصريات، لذا تم توجيه الدعوة لبعض الشخصيات المرموقة من الجاليات الأوربية المقيمة في مصر. أُعيد ترتيب صالونات القصر وأثاثاته الفرنسية التي يمكنك تكوين فكرة عن أبهتها وأنت ما زلت في غرف الانتظار حين تعلم أن ثمن الستارة الواحدة يصل إلى ستين ليرة. لا حاجة بنا إلى أن نشير هنا أن الخديوي إسماعيل هو من يقف وراء هذا البذخ والإسراف، أما الخديوي الحالي فلا ينفق المال ولا يمكنه ذلك على هذا النحو من الطيش والتهور.

لم يكن هناك ما يُباري فخامة القصر إلا فساتين النساء: أقمشة حريرية مُكلفة وباهظة الثمن وألوانها لطيفة وجميلة، أحزمة مزركشة لا تقدر بثمن ومجوهرات لا يُرى هذا البريق وهذه الأحجام منها إلا في الشرق. كان عدد كبير من المدعوات في ريعان الشباب وفي غاية الجمال خاصة الإيطاليات والسوريات منهن، لكن معظمهن كن متزوجات. أُفتتح الرقص في بهو واحد وقف على امتداد جدرانه البَاشَوات والبكوات بعمق ثلاثة صفوف. كان أغلبهم من الأتراك والعرب، ناهيك عن الضباط الشراكسة الذين تابعوا ما يجري كأنهم يشاهدون عرضًا للقرود وراحوا يتفوهون بتعليقات وقحة - رغم صحتها- عن قصر فساتين الحاضرات بشكل ملحوظ. أخذني أحد الأتراك المتزوجين من سيدة ممتلئة من ذراعي هامسًا: «سيد بتلر، أريدك أن تراقص زوجتي. إنها تحب الرقص، لكن

(٧٣) المحافظ حاليًا. (المترجمان)

لا يمكن أن أسمح لها بمراقصة هؤلاء الرفاق. أثق بك فلن ترقص مع أحد سواك. هلم لأقدمك لها.» أُسقط في يدي وأمسى الفكاك مستحيلاً. كانت طلعتها بهية كالكوكب الدري؛ رموشها كهلال رمضان؛ ثغرها خاتم سليمان؛ أسنانها تتحدى أوصاف الشعراء والكتاب، لكن قوامها لا يشبه حرف الألف ولا قدها أغصان الصفصاف.(٧٤) كان وزنها ثقيلًا فعلًا، ولم تستطع تطويع حركاتها. كان الأمر أشبه بالرقص مع عمود ضخم من الجرانيت، وكانت حرارة الردهة لا تُحتمل. استأذنت بعد الرقصة الثانية وقد تسربت الآلام لكل عظامي. توجهت نحو حجرة الطعام حيث كان الخديوي يبذل كرم الضيافة بنفسه. حرصت على أن أنأى عن صديقي التركي وعقيلته وأتواجد بغرفة مغايرة ما تبقى من الأمسية. تحدثت مع الخديوي لفترة طويلة كما قابلت أخيه محمود بيك لأول مرة.(٧٥) كان محمود يتحدث الإنجليزية بشكل مقبول. أشرف تورابي على تعليمه، لكن نبتته لم تُعط الكثير.

يفتقر محمود للكثير من سجايا الخديوي وشيمه الطيبة من عزم أكيد وغاية نبيلة ومهارة جيدة؛ ولم يوهب مثله العادات الحسنة والسلوك القويم. يمكنه أن يتحدث لساعات عن الهندسة العسكرية وما شابه ذلك، لكن حديثه غير مترابط ويكاد يخلو من ملامح الفطنة. انتهت قصة زواجه العجيبة والتي تشبه في تفردها ألف ليلة وليلة،(٧٦) وأكدتها جميع المصادر ذات المصداقية بالفشل الذريع. أزعم أني أعرف التفاصيل والأسباب لكنها أمور خاصة و«كلمات مقدسة»(٧٧) على حد قول هيرودوت، لذا تناسيتها عمدًا.

(٧٤) بعض التعبيرات الشائعة التي يستخدمها العرب لوصف الرشاقة والجمال. (المؤلف)

(٧٥) يقصد بتلر الأمير محمود حمدي (١٨٦٣-١٩٢١). والدته جهان شاه قادين (خاتون)، وكان في السابعة عشر أو الثامنة عشر وقتها. (المترجمان)

(٧٦) Arabian Nights.

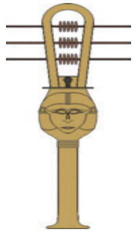
(٧٧) ἱερός λόγος.

أصبح الطقس باردًا وملبدًا بالغيوم على نحو مزعج. بلغ الأمر مداه في الخامس عشر من شهر مارس حين أمطرت السماء البَرَد[٧٨] الذي أربك سكان البلاد. سمعت حوارا دار بين بعضهم عن هذا ماهية هذا الشيء الغريب. قال أحدهم بأن ما نزل من المزن هو حصى. رد عليه آخر: «والله ما هو بحصى بل ملح.» تدخل ثالث قائلاً: «يا ابن الحمار... تذوقه تجده حلو المذاق، هذا أرز ورأس أبي.» أُنهي الأمر عند هذا الحد: «ما شاء الله! أرز، ما شاء الله! هذا الحدث لابد وأن يُسجل في الكتب!»

خرجت الشمس من مكمنها ودارت رحى الأيام. مر كل هذا الوقت فلا سمعت شيئًا عن قاعات الدراسة ولا عن تلاميذي، على أني وجدت كثيرًا من المتعة والتسلية في البلاط وفي البازارات. جلست ذات يوم أراقب صائغ فضة في عمله وعبرت له عن اهتمامي بصولجان عجيب كان يصنعه. توجد حمامتان متقابلتان في قمة الصولجان وقد علقتا بأجراس صغيرة. توقفت فتاة مصرية جميلة وراحت تساوم على ثمن الصولجان؛ وفي رد على أسئلتي أخبرتني أنها تبتاعه لكي يُبعد الشيطان. هل يمكن أن يكون هذا تقليد موروث من «السيستروم»؟[٧٩]

(٧٨) كرات ثلجية صغيرة. (المترجمان)

(٧٩) Sistrum يشبه «الخشخيشة». كان يُستخدم لإرضاء الإلهة «حتحور»، ربة الموسيقى والفرح. يتكون من ثلاثة أجزاء أساسية. في العلوي مستطيل رأسي به ثلاثة قضبان أفقية تُحدث الصوت عند هزها. يمثل الجزء الثاني رأس حتحور على هيئة سيدة يُغطى رأسها شعر مستعار كثيف، كما أن لها أذني بقرة. الجزء الثالث من الشخشيخة عبارة عن يد اسطوانية طويلة أو ماسك. هذا وللملكة نفرتاري زوجة الفرعون رمسيس الثاني تصوير وهي تمسك به. (المترجمان)



لا ريب أن الأقباط والعرب يحتفظون بكثير من تراث المصريين القدماء المثير للاهتمام. على سبيل المثال يوجد بينهم اعتقاد بأن قتل طائر «أبو منجل»[٨٠] أو مجرد إلحاق الأذى به يجلب النحس. لقد أوضح هيرودوت أن عقوبة قتل أبي منجل هو الموت عارضًا كان أو متعمدًا. ومن هذه العادات أيضًا ذبح ثور تحت عجلات مركبة الخديوي وتلطيخ النساء رؤوسهن وصدورهن بالطين أثناء الجنازات.[٨١]

بالإضافة إلى ما عاينته من أمور جديدة، سمعت أيضًا قصصًا غريبة وقابلت أشخاصًا متفاوتين في الشهرة. خذ مثلاً النقيب «بيرتون»[٨٢] الذي يمتلك معرفة مذهلة عن اللغات والحياة في الشرق مما جعله شخصية فريدة؛ ناهيك عن أنه متحدث بارع وبطل الرحلة الجريئة إلى مكة.[٨٣] التقيت به على العشاء في منزل تورابي. أخبرني الأخير لاحقًا عن الصدفة التي جمعته بصديقه بيرتون على

(٨٠) طائر ريشه أبيض اللون ومنقاره أسود. يوجد في الأقاليم الدفيئة في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي، لكنه اختفى من حوض النيل. (المترجمان)

(٨١) راجع تاريخ هيرودوت، الكتاب الثاني، الفصل ٨٥. (المؤلف)

(٨٢) Richard Francis Burton.

(٨٣) قام بها عام ١٨٥٣. (المترجمان)

متن السفينة القادمة إلى الإسكندرية في بداية رحلته المميزة.[٨٤] لفت نظر توراني وجود عربي في ثياب متواضعة[٨٥] يؤدي عباداته بدقة وجدية. بدأ توراني يراقبه عن كثب فتفاجأ بأنه النقيب بيرتون. انفجر توراني في الضحك، لكن بيرتون - بعد افتضاح أمره- بادر مُلمحًا إلى توراني بالتزام الصمت واستمر في شعائره. فهم توراني الرسالة؛ وتحدث مع بيرتون لاحقًا على انفراد. انتهى الأمر بأن أعان التركي ضئيل الحجم طيب القلب صديقه الإنجليزي في مستهل تنكره كمسلم.

من أكثر الحكايات تداولاً في البلاط قصة نائب السلطنة.[٨٦] تركت هذه القصة على وجه الخصوص لدي انطباعًا هائلاً. ورغم أني وجدت صعوبة في تصديقها حين رويت لي، إلا أنها تستحق السرد. كان إسماعيل باشا صديق المُلقب بإسماعيل «المفتش» نظرًا لتوليه ديوان المالية[٨٧] أقرب الأصدقاء إلى الخديوي إسماعيل وموضع ثقته.[٨٨]

---

(٨٤) سجلها في كتاب «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز» ترجمه الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ وأصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٤ ضمن مشروع ترجمة الألف كتاب الثاني. (المترجمان)

(٨٥) أوضح بيرتون نفسه أنها كانت ثياب شرقية وأنه تنكر كفارسي وليس عربي. المرجع السابق، ص. ١٩. (المترجمان)

(٨٦) Naib es Sultanah راجعنا هذا اللقب الذي نعت به بتلر والي مصر إسماعيل باشا، الخديوي إسماعيل لاحقًا فلم نجد له وجود. (المترجمان)

(٨٧) أساس اللقب هو عمله كمفتش لأقاليم وجه بحري قبل توليه المالية. (المترجمان)

(٨٨) وهو أيضًا شقيق الخديوي إسماعيل في الرضاعة. (المترجمان)



وضع إسماعيل صدقي يده على خزينة الدولة بأسرها، وكان دائمًا يعرف مكان الأموال وكيفية الحصول عليها. يُرسل الخديوي للمفتش: «أريد مبلغ كذا...» فيُصدر الأخير أوامره للمدراء بتدبير المبلغ. بالطبع لقد استفاد المدراء من هذه العملية فانتزعوا كل ما لدى الفلاحين حتى آخر مليم عن طريق الكرباج ولي الأذرع. إذا قدم فلاح مبلغًا صغيرًا من المال يجد الجابي فوق رأسه فيُتهم بإخفاء ثروته ويُضرب ويُسجن حتى يعترف ويُسلم ما في حوزته. لا شك أن عددًا كبيرًا من الجرار المُترعة بالذهب ترقد في باطن الأرض حيث خبأها أصحابها ثم ماتوا ومعهم سرهم دون أن يخبروا أحدًا به أو يُكشف النقاب عنه. حسن، بعد أن جاء إلى مصر المفوض الفرنسي ليراقب نظارة المالية أخذ الخديوي حذره لعلمه أن حساباته غير سليمة؛ وبادر فصفى الخزانة مخفيًا ما لا يقل عن مليون ليرة لدى حريمه ومؤمنًا بذلك حياته. في خطوته التالية أمر الخديوي بتدمير السجلات التي تثبت ابتزازه وبذخه. أدرك عقله الوثاب أن هذا يعني أيضًا التخلص من المفتش الذي لم يشك بدوره في أن دفاتره ستخضع للمراجعة ثم تنتهي إلى إدانته. تمتع المفتش بميزة اتخاذ القرار الحاسم السريع، لكن الحذر أيضًا

كان ضروريًا. عاش الرجل في بحبوحة من العيش لا تقل عن عاهل البلاد. لم يكن ذلك كافيًا لإيداعه السجن؛ لذا استقل الحاكم مركبته متوجهًا إلى ديوان المالية وأرسل إلى المفتش قائلاً: «صديقي العزيز أرغب في التحدث معك. الأمر خير. اركب معي لنزور أميرًا[٨٩] في الجزيرة.[٩٠]» أخبرني الراوي أنه شاهد الرجلين يتبادلان حديثًا وديًا حين مرت المركبة أمام نافذته، لكن لم يُعثر على أثر للمفتش بعد ذلك.

وفيما يلي ما حدث. حين وصل الرجلان إلى الجزيرة ترجلا معا نحو القصر وكان الخديوي يسبق صديقه ببضع خطوات وما إن اجتاز الردهة حتى وثب أحد الحراس ملقيًا القبض على الباشا الذي استفسر متعجبا: «ما هذا؟ ماذا تفعل؟» كانت الإجابة التي تلقاها عبارة عن لكمة في وجهه. أصدر الأمير المشارك في المؤامرة تعليماته بإلقاء المفتش في السجن؛ ومن هناك تم اقتياده ليلاً إلى باخرة وفيها خُنق ثم أُلقيت جثته في النيل.

وبالرغم من ذلك صدرت أوامر الخديوي بأن تتوجه الباخرة جنوبًا وعلى متنها بعض الحراس. في اليوم التالي عمد جنابه إلى نشر خبر نفي المفتش إلى إقليم النيل الأبيض. لقد كان الغرض من إرسال الباخرة هو تأكيد الإشاعة. لم يُسمح لأي قارب بالاقتراب من الباخرة؛ ولا حتى بغرض الإمدادات وإلا تعرض لإطلاق النار عليه. لم يكن المفتش على متن السفينة كما أسلفنا، بل كانت جثته ترقد هامدة في قاع النيل. عندما وصلت الباخرة إلى وادي حلفا لم ينزل منها المفتش بطبيعة الحال، ولم يكن في القافلة التي قطعت الصحراء من

---

(٨٩) هو الأمير حسن بن الخديوي إسماعيل نفسه كما أورد «فريزر» في كتابه W. Fraser Rae, Egypt Today, London, Richard Bentley, ١٨٩٢, P.١٢. (المترجمان)

(٩٠) جزيرة الروضة. (المترجمان)

«كروسكو»[٩١] إلى «أبو حامد».[٩٢] والأعجب من ذلك أن أنه لم يعُد جندي واحد من طاقم حراسة السفينة إلى القاهرة، وانقطعت أخبارهم تمامًا ومات سرهم معهم.

عملت يد خفية على نشر قصة النفي تلك؛ بل حتى تم دسها بشيء من المبالغة في الصحف التركية التي سرعان ما راحت تُخبر القراء أن المفتش الذي جنى على نفسه انكب على الشراب في منفاه؛ ثم عادت لتُعلن بعد انصرام عدة شهور خبر وفاته نتيجة الإدمان. لم تنطلي هذه الرواية المحبوكة على الناس في مصر. كانت الحقيقة معروفة والدليل الدامغ عليها هو يد إسحاق بيك المشوهة. كان هذا الرجل الأداة الرئيسية في جريمة القتل الفعلي. عندما أدرك المفتش المتقدم في السن أن ساعته قد دنت ناضل واستمات في التشبث بالحياة حتى آخر نفس. أثناء المغالبة عض المفتش أحد أصابع إسحاق بيك حتى فصله عن كف يده. عاش إسحاق بيك دون أن تعلق به وصمة عار؛ بل وتم إلحاقه بخدمة الأمير محمود قبيل قدومي إلى مصر. قيل أنه أطاع الأوامر مرغمًا وتحت ضغط. عندما جاء الخديوي الحالي إلى سدة الحكم رأى أن وجود رجل يده ملطخة بالدماء في شرف خدمة أخيه الأمير محمود أمر مخز. تم الاستغناء عن خدمات إسحاق، لكنه ظل يُرى بيده المشوهة في القاهرة حتى وقت تواجدي بها.

(٩١) قرية من قرى النوبة اشتهرت بأنها المكان الذي تجري فيه رواية الكاتب البريطاني مبدع شخصية «شارلوك هولمز» الخيالية، آرثر كونان دويل Arthur Conan Doyle «مأساة كروسكو» The Tragedy of Korosko، ١٨٩٨. تدور أحداث الرواية حول زيارة مجموعة من الأوروبيين والأمريكيين للنوبة عام ١٨٩٥ وهناك تم اختطافهم بواسطة مجموعة من الدراويش الذين حاولوا إجبارهم على اعتناق الإسلام. (المترجمان)

(٩٢) راجعنا قرى النوبة فلم نجد قرية تحمل هذا الاسم اللهم إلا قرية «حامد نارتي» وتقع في منطقة النوبة السودانية أو «دنقلة». (المترجمان)

تلك كانت قصة واحدة من أشنع وأقذر جرائم القتل التي سأشير إليها لاحقًا مرات أخرى. والآن دعوني أسرد لكم قصصًا أقل مأساوية عن حاكم البلاد. كشفت سجلات الخديوي التي انتهى بها المطاف لتقع في حوزة المراجعين أنه بدد في سنة واحدة ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ليرة، أي خزانة الدولة بالكامل. حملت أذون السحب التي حررها هذه الكلمات: «ادفعوا بالأمر لحامله مئة ألف ليرة.» يتم أخذ الإذن إلى الخزينة التي تُسلم المبلغ في التو والحال. وأما الرشاوى المختلفة فنذكر أنه بعثر لا يقل عن أربعين مليون ليرة، نال منها السلطان اثني عشر مليون وذهبت ستة ملايين لعدد كبير من الصحف الأوربية ومنها بعض الصحف الإنجليزية. زد على ذلك أنه بينما أظهر جنابه الإخلاص للسلطان كان يتآمر سرًا لخلعه، فآزر متمردي جزيرة «كريت» ومنحهم ثلاثة ملايين ليرة. قد يصعُب تصديق هذه الأرقام، لكن لدي قناعة أنها صحيحة. تكلف بناء دار الأوبرا بالقاهرة(٩٣) مبلغًا بسيطًا فقط ستين ألف ليرة، لكن في موسم واحد استمر لحوالي خمسة شهور أنفق الخديوي مئة وعشرين ألف ليرة على الفرقة. لقد تميزت الملابس وتصميمات المشاهد بفخامة وتألق لم يُسمع بهما من قبل. حصلت ممثلة واحدة على ألف ومائتين ليرة؛ وعند رحيل الفرقة أغدق جلالته على أعضائها جميعًا المال والمجوهرات.

حصل الخديوي إسماعيل على أرض دار الأوبرا وحدائق الأزبكية المتاخمة لها بطريقة مميزة جدًا. كانت هذه المنطقة عبارة عن حارات تحوي بيوتا قديمة ومتلاصقة يسكنها جماعة من أهل البلد. عُرضت التعويضات على الملاك والمستأجرين ليخلوا المكان، ومن ثم أزيلت البنايات. رفض العديد من القاطنين العرض المجزي، وعليه أصدر الخديوي أوامره بإضرام النار خلسة في

(٩٣) تُعرف الآن بدار الأوبرا الخديوية واحترقت في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧١. (المترجمان)

المنازل. حين سويت المباني بالأرض أناب الخديوي من يواسي النزلاء في محنتهم ويجدد عرض التعويض السخي فقبلوا به. هذه عينة من تعاملات الخديوي إسماعيل الذي تمتع بقدر كبير من الحصافة والبراعة، بيد أنه كان عديم الضمير ومتجرد من المبادئ.

تلقيت فجأة في مطلع شهر أبريل أمرًا بالانتقال إلى المكان المخصص لي بقصر عابدين. وجدت جناحًا رحيبًا من الغرف تحت تصرفي. كانت كلها مفروشة بشكل طيب مع وجود بعض الاستثناءات العجيبة. كانت الأرائك فاخرة وكذا السجاجيد والستائر والمرايا وهلم جره، لكن فيما يتعلق بنظافة المكان فحدث ولا حرج عن قذارته. من المفترض أن «تجهيز القاعات» استغرق تقريبا ثلاثة أشهر ظلت خلالها مفتوحة مما ساعد على تراكم الغبار. على السرير كانت هناك ملاءة وبطانية وناموسية قديمة. بحلول المساء جاءتني المناشف التي أرسلت في طلبها. إحداها كانت متسخة جدًا وبها قطع في المنتصف بطول قدمين. لقد أخبرني تورابي أن الخديوي شدد على ضرورة توفير كل سبل الراحة لي! كان من المُقدر أن تُقدم وجبة العشاء في السابعة. جلست أقرأ وأنتظر حتى ما بعد الثامنة؛ وأخيرًا أُخبرت أن عشائي سيكون جاهزًا اعتبارًا من الغد، ومن ثم ذهبت لتناول الطعام في الفندق.

استمرت إقامتي في الفندق بشكل كامل تقريبا خلال اليومين التاليين ريثما تكون حجرات القصر جاهزة فعلاً لاستقبالي. عندما علم الخديوي بالكيفية الذي نُفذت به تعليماته غضب بشدة، وأعطى أوامره بتوفير أشياء جديدة وتلبية كل ما أحرره من احتياجات في طلب مكتوب على الفور فكان لي ما أردت. حين قرأ يوسف باشا، مدير القصر، طلبي البسيط لدستة مناشف سمعته يعلق

قائلا: «اثنا عشر منشفة! الله أكبر وما يشاء سبحانه يكون، لكن بحق الله ماذا سيفعل بكل هذه المناشف؟» ينتمي يوسف لأصول متواضعة، لذا فمشاربه تقترب من مناهل العامة. على أي حال لقد صارت غرفتي في النهاية مريحة، رغم كونها غربية قبلية الأمر الذي جعل أصدقائي يعلقون مازحين: «سوف تُشوى في الصيف.» أما فيما يتعلق بالوجبات فكانت القهوة تُقدم لي في الصباح الباكر والغداء مع منتصف الظهيرة والعشاء مع مغيب الشمس. بعد مرور فترة من الوقت تزامنت الوجبة الأخيرة من دوي المدفع القابع في القلعة.(٩٤)

تحدثت منذ برهة عن الحياة المريحة، لكن هذا الأمر نسبي فمثلاً حتى آخر أيامي بمصر لم استسغ طعام أهلها. كانت وجبة الغداء أو العشاء توضع في صينية خشبية مستديرة تتوارى أطباقها الخمسة أو الستة الصغيرة خلف غطاء كبير من القش يأخذ شكل القبة فُرشت عليه قطعة من القماش المزين، ثم يحملها فوق رأسه عربي فارع الطول يرتدي ثوبًا أبيض اللون. قد يحدُث أحيانًا أن تجد الطعام مقبولاً كما هو الحال في المآدب اللذيذة التي تُقدم في المناسبات المميزة، لكن في الغالبية العُظمى عافت نفسي الطبق تلو الآخر. أشيح بيدي للخادم قائلا: «شيل»،(٩٥) ثم أتوجه بعد ذلك إلى الفندق إذا كان أمامي متسع من الوقت أو كان الطقس معتدلاً. في أمسيات كثيرة تحول عشائي إلى ستة من هذه الكلمة، وانتهى ببعض البسكويت وحسب، لكن يتعين عليّ أن أشيد بجودة الخمور. جرت العادة أن يتناول موظفو القصر الطعام معًا عدا الثلة التي كانت تجلس دائمًا على مائدة الخديوي. رفضت تناول الطعام مع أناس غير متجانسين أو أن أخالط أشخاصًا لا أعتبرهم ندا لي. وجه الخديوي بأن

(٩٤) المقصود هنا مدفع رمضان والذي وافق هلاله السابع من أغسطس ١٨٨٠، أي بعد حوالي أربعة شهور من انتقال بتلر للإقامة في قصر عابدين.

(٩٥) خذه بعيدًا. (المؤلف)

يكون طعامي مماثلاً لما يوضع أمام جنابه، لكن بالطبع لم يحدث شيء من هذا؛ ووجدت من الحكمة ألا أتبرم فيما يتعلق بهذا الأمر.

الفصل الثالث

رحلة إلى الدلتا- سليمان- تناول وجبة العشاء مع عبد العال - خرائب تل تيماي[٩٦] - دمياط- الزقازيق- مآسي طنطا- الخماسين- مقابلة رجل مجذوب- رشيد- شم النسيم

حققت جولة الخديوي في الصعيد نجاحًا ملحوظًا، الأمر الذي حدا بجلالته أن يُتبعها برحلة مشابهة إلى الدلتا. أثلج صدري هذا الخبر وأيقنت أني محظوظ حيث واتتني الفرصة لأجوب مصر كلها تقريبا خلال أربعة شهور فقط من نزولي بها. قُبيل ترحالنا أصيب البلاط بالدهشة نتيجة الاستغناء المفاجئ عن خدمات أحد معاوني الخديوي، رجل دمث الخلق يحمل الجنسية النمساوية. شعرت بالأسى الشديد لأني سأفقد صحبته اللطيفة في السفر، وعرجت على غرفته لأواسيه؛ وهناك قابلت مواطنه الكونت ------ .[٩٧] دفع السخط الأخير لأن يعلن محتدًا: «عندما يرتفع العلم الإنجليزي على أرض مصر فسوف أكون أول من يُقدم له التحية.» ويبقى التساؤل – من باب الفضول- هل تُرى هذا السيد النبيل فعل ذلك حقًا؟[٩٨]

(٩٦) Thmuis منطقة بالقرب من مدينة المنصورة عُثر بها على آثار يونانية ورومانية. (المترجمان)

(٩٧) لم يشأ بتلر ذكر اسم الكونت؛ ولقد فعل الشيء نفسه في عدة مواطن من الكتاب لتجنب زج نفسه أو آخرين في مشاكل أو لمواءمات سياسية أو ربما لأسباب أخرى. (المترجمان)

(٩٨) لاحظ أن بتلر أخرج هذا الكتاب عام ١٨٨٤، أي بعد مرور عامين على الاحتلال الإنجليزي لمصر. (المترجمان)

في العاشر من شهر إبريل غادرنا قصر النيل على متن الباخرة فوصلنا بنها في المساء. تجمع أعيان المنطقة فنصبوا خيامهم وأضاءوها بالفوانيس. تنقلنا تلك الليلة من خيمة إلى أخرى نحتسي قهوة الضيافة وندخن الغلايين[٩٩] في دعة. تفتقر بنها لمظاهر الجذب السياحي، لكنها تتميز بطيور الحمام. أقام سكانها قرى كاملة من أبراج الحمام. يأخذ البرج شكل مخروط قطر قاعدته عشرة أقدام ويرتفع في الهواء لخمسين قدمًا. تشاهد هناك العشرات من هذه التجمعات من الأبراج التي يعيش فيها الآلاف من طيور الحمام.

في اليوم التالي هبت ريح جنوبية حارة. مع حلول منتصف الظهيرة وبينما كنا نتناول الغداء بحضرة الخديوي أحاطت بنا أعداد مهولة من الدبابير التي تبث الرعب، لكنها لا تُلحق الأذى إلا إذا استثيرت. أشار مقياس الحرارة إلى مائة وخمسة[١٠٠] في الظل وهي درجة لا تُحتمل على متن السفينة وفي القمرة التي تواجه الشمس. حتى السباحة في النهر لم تُساعد كثيرا في خلق شعور بالراحة. بعد يومين من هذا الطقس وعقب وصولنا سمنود تراجعت هذه الريح وعادت نسمات الشمال المنعشة. الاسم القديم لسمنود هو «ثب نثر» وهي مسقط رأس «مانيتون».[١٠١] كانت سمنود قديما مدينة شهيرة ملأ ذكرها الآفاق، أما الآن فقد تحولت إلى مجموعة من الأكواخ والزرائب. ولأنه لا يوجد ثمة ما نفعله في هذه البلدة فقد ذهبت للصيد في جزيرة نيلية بصحبة جودار بيك. كان السمان والسمان الملون[١٠٢] الذي يدعوه الإيطاليون «ملك السمان»[١٠٣] والفرنسيون

(٩٩) جمع «غليون» وهو «البايب». (المترجمان)

(١٠٠) فهرنهايت، حوالي ٤٠ مئوية. (المترجمان)

(١٠١) مؤرخ مصري عاش في عهد البطالمة. يُطلق عليه «أبو التاريخ المصري»، وهو صاحب كتاب «تاريخ مصر». (المترجمان)

(١٠٢) يُسمى أيضا «السمان الصيني» Chinese Painted Quail. (المترجمان)

(١٠٣) King Quail.

«سيرين»[١٠٤] عائدًا إلى الشمال. كنت متلهفا للحصول على عينة منه؛ وفي أقل من ساعة أسقطت سبعة أفرخ رغم أن السمان طائر حذر جدا. حالفني الحظ يمنة ويسرة حتى أن الفرنسيين توقفوا عن الإطلاق وتبعوني وهم يصدرون صيحات العجب. باشر خادمي سليمان سلخ[١٠٥] السمان بمهارة بارعة كما عُهد عنه، لكن لسوء الحظ قبل أن نؤوب إلى القاهرة كانت الفئران قد التهمت الجلد المغطى بالريش.

عاش سليمان حياة محفوفة بالإثارة والمغامرة حتى تحول إلى شخصية تاريخية بالرغم من صغر سنه. تعود أصوله إلى السودان، لكنه هرب في مرحلة مبكرة من والده وانتهى به المطاف في الإسكندرية حيث تكسب عيشه معتمدا على ما لديه من فطنة ومهارة. بالإضافة إلى لغته الأم أفلح سليمان في تدبير الوسائل لتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة؛ وهو إنجاز لا يضطلع به سوى واحد من كل خمسمائة مثله. التحق سليمان بخدمة السيد صمويل بيكر[١٠٦] ورافقه خلال حملته الاستكشافية في أعالي النيل. ذكر بيكر اسم خادمه في كتابه «إسماعيلية»؛[١٠٧] كان سليمان يشعر بكثير من الفخر وهو يشير لتلك الفقرة إذ أنه يتحدث الإنجليزية ويقرأ القليل منها؛ وهذا ما يضاف إلى إنجازاته الأخرى. اضُطررت آسفا الاستغناء عن سليمان في مرحلة مبكرة من وجودي في البلاد. قبل مغادرتي

(١٠٤) Syrens.

(١٠٥) يُفضل بعض الناس سلخ السمان حيث أن نزع ريشه ليس أمرا يسيرا. (المترجمان)

(١٠٦) Sir Samuel Baker (١٨٢١-١٨٩٣) عالم بريطاني انطلق عام ١٨٦٤ على رأس حملة لاكتشاف منابع النيل. (المترجمان)

(١٠٧) عنوان الكتاب باللغة الإنجليزية هو Ismailia- A Narrative of the Expedition to Central Africa for the Suppression of Slave Trade, Organized by Ismail, Khedive of Egypt, ١٩٧٤, Vol. i, P.٢٠٩.

مصر أتيحت لي الفرصة لأزكيه في وظيفة كبير الخدم لدى السيد جيمس،[١٠٨] وفعلت ذلك عن طيب نفس. كان السيد جيمس على وشك القيام بحملته الاستكشافية في السودان. أثبت سليمان خلال هذه الأسفار أنه خادم أصيل حتى أن السيد جيمس أطرى عليه بأفضل الكلمات في كتاباته.[١٠٩] في مطلع عام ١٨٨٤ عندما عدت مرة أخرى للقاهرة فوجئت أثناء مروري ذات يوم إحدى البوابات بشخص في ملابس فخمة يسلم عليّ بحرارة وابتسامة مشرقة. لقد كان سليمان الذي عرفني من الوهلة الأولى. كان ردائه الفاخر الوثير ينبأ من دون شك عن تبوأه مكانة طيبة. أخبرني في سعادة غامرة أنه التحق بالخدمة المميزة للجنرال ستيفنسون،[١١٠] قائد جيش الاحتلال البريطاني. أخبرني أيضا أن استمتع كثيرا خلال رحلاته إلى السودان، وأن السيد جيمس اصطحبه فيما بعد إلى إنجلترا، لكنه لم يستطع التأقلم مع الطقس هناك وشعر بالسعادة حين عاد إلى القاهرة.

أعود من هذا الاستطراد لأسرد واقعة طريفة حدثت في سمنود. رافقنا على ظهر السفينة أحد البَاشَوات يُدعى مصطفى. كان مسلما ورعا تقيا لم يفرط مطلقا في صلاة واحدة على النقيض من بقية الرفقة. وصلنا سمنود مع مغيب الشمس ففرش خادمه السجادة له على سطح السفينة ليصلي المغرب. وقف الباشا ينوي الصلاة ثم خطر له أن الخادم لم يوجه السجادة الوجهة الصحيحة. كان النهر ينعطف بعض الشيء مما جعل الاهتداء إلى الشرق أمرًا صعبًا. ظل الرجل المسكين يلف حول نفسه في حيرة وقلة حيلة. ما إن يُولي شطره نحو

(١٠٨) Frank Linsly James. (١٨٥١- ١٨٩٠)، قتله فيل جريح في أفريقيا. (المترجمان)

(١٠٩) Wild Tribes of the Soudan, ١٨٨٣, PP. ٢٦٢-٣.

(١١٠) Fredrick Charles Arthur Stephenson (١٨٢١-١٩١١)، تولى قيادة القوات البريطانية في مصر عام ١٨٨٣. (المترجمان)

جهة حتى يعود في الدقيقة التالية فيغيره. لاحظت ارتباكه؛ وكان في حوزتي بوصلة صغيرة فهممت إليه لأحدد له الاتجاه الصحيح. أظهر الرجل امتنانه وتركته يؤدي ركعاته في سكينة.

كان العشاء هنا أول تجربة فعلية لي مع طعام أهل البلد. حللنا ضيوفا على شخص يُدعى عبد العال بيك،(١١١) أصبح فيما بعد واحدا من الزعماء الثلاثة للهوجة(١١٢) العرابية.(١١٣) جلسنا حول مائدة مستديرة خالية من الأطباق والسكاكين والشوك. توالت الصحون الواحد تلو الآخر على منتصف المائدة، وراح الجميع يغمسون أصابعهم فيها. لقد أصبح للبيت الذي يقول فيه هوميروس «وشرع العشاق المحرمون بدورهم يلتهمون ما لذ وطاب من أكل وشراب»(١١٤) من الآن فصاعدا معنى مفعم بالحياة يصعُب محوه.

كانت المنصورة محطتنا التالية. حق لهذه المدينة إدعاء الفخر ففيها مسجد(١١٥) مرتبط بأسر القديس لويس(١١٦) في عام ١٢٥٠ ميلادية. لا تتسم مدن الدلتا بوجه عام، ولا مبانيها بالجاذبية. على طول الضفة المقابلة لباخرتنا أقيمت المنصات

(١١١) الأميرلاي عبد العال حلمي. ولد في قرية «أبو مشهور» التي تتبع حاليا مركز بركة السبع، منوفية. نُفي مع عرابي إلى سيلان. توفى عام ١٨٩١ في «كولومبو» نتيجة مرض ألم به ودُفن بمقابر المسلمين في «كيوبويا واتا». (المترجمان)

(١١٢) يستخدم بتلر اللفظ الإنجليزي Rebellion والتي تعنى «تمرد». علينا أن نتذكر أن السلطان العثماني نفسه أصدر فرمانا بعصيان عرابي. (المترجمان)

(١١٣) أحمد عرابي، عبد العال حلمي وعلي فهمي. (المترجمان)

(١١٤) الأوديسا، الكتاب الأول οἱ δ' ἐπ' ὀνείαθ' ἑτοῖμα προκείμενα χεῖρας (ἴαλλον. (…and they laid their hands upon the good things that were before them والترجمة العربية لمحمد الدريني خشبة، القاهرة، مكتبة دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا، ١٩٤٥، ص ٨. (المترجمان)

(١١٥) يقصد بتلر دار «ابن لقمان»، لكن هناك مسجد لصيق بها هو مسجد «الشيخ موافي» بناه الملك الكامل. (المترجمان)

(١١٦) ملك فرنسا، لويس التاسع عشر، قائد الحملة الصليبية السابعة والتي استهدفت مصر. (المترجمان)

بدعاماتها الخشبية الملونة والتي تتدلى منها أعداد لا حصر لها من البيارق والفوانيس. عزفت الفرق الشعبية موسيقاها دون توقف خلال ساعات النهار، بينما انطلقت الألعاب النارية في الليل. كان الأمر برمته مُضجرا. ولأنه كان مقررا لنا البقاء في نفس المكان ليوم آخر فقد انطلقت مصطحبا سليمان في تباشير نهاره الصحو عاقدا النية على زيارة خرائب «ميندس».[١١٧]

راودتني منذ البداية الشكوك حول صحة وجهتنا. طرح سليمان كل الاستفسارات الممكنة على السكان الذين أكدوا لنا عدم معرفتهم بأي أطلال أخرى في المنطقة خلاف تلك التي انطلقنا صوبها. كانت الرحلة طويلة، لكنها ممتعة. تناولت غدائي حين انتصف النهار تحت المظلة التي أمسك بها سليمان. كانت تلك هي بقعة الظل الوحيدة المتوفرة وسط سهول منبسطة وخالية من الأشجار. في الثانية والنصف وجدنا تلالا من القمامة تبين أنها بقايا «ثيمويس»[١١٨] القديمة. كانت هناك قرية صغيرة بالقرب من تلك الخرائب[١١٩] وفي حوزة سكانها بعض المقتنيات الأثرية. شعر الأهالي بالخوف من زي حاشية الخديوي الذي أرتديه فاستماتوا - للأسف الشديد- في رفضهم إطلاعنا على كنوزهم. بعد التجول وسط أكوام القمامة والعثور على بعض حطام الأواني الزجاجية والفخارية الجميلة توجهت صوب أكمة أخرى تقع على بعد حوالي ميل وتُدعى «قصر الفرعون». كانت هذه الأطلال مثيرة للعجب، لكن لم يلتفت إليها أحد في كتب الأدلة. كل ما بقي منها اليوم هو ضريح ضخم من الحجر الأسواني يرتكز على قاعدة عريضة تتكون من ستة طبقات من الحجارة لا تقل سمك إحداها عن ثلاثة أقدام

(١١٧) حاليا «تل الربع» مركز «تمي الأمديد» وتقع على مسافة خمسة عشر كيلو متر جنوب غرب مدينة المنصورة. (المترجمان)

(١١٨) Thmuis.

(١١٩) «تل ابن سلام» على الأغلب. (المترجمان)

وترتفع في عظمة فريدة فوق السهول. لم يكن البناء في أحسن حالاته، كما كان أساسه متصدعًا. تكومت الرمال والأتربة حول القاعدة فأخفت الغرض من هذا الأثر الغريب الذي يقف مغايرًا للأشياء الأخرى التي عاينتها في مصر مما يجعله جديرًا بالفحص والتحري. لم تكن هناك بقايا أخرى ظاهرة للعيان سوى عدد من الأواني الغامضة تمامًا كالبناء نفسه. نُحتت هذه الأوعية كتجاويف على شكل أحواض داخل أحجار الجرانيت التي تنتشر بشكل عشوائي على الأرض.

لقد كان التجوال في الدلتا بعيدًا عن المدقات المطروقة أمرًا جديرًا بالعناء. هناك وبعيدًا عن البلاد المشرفة على ضفاف النيل تستطيع أن ترى الفلاح المصري الأصيل كما كان في العصور الغابرة. لم تتغير العادات والتقاليد كثيرًا عن ما كانت عليه منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة. في طريق الإياب شاهدت النساء يعملن في الحقول بينما يقوم الرجال بالغزل تمامًا كما أشار هيرودوت.(١٢٠)

مما أثار إعجابي الشديد أيضًا سير الفلاحين على أقدامهم وحمولاتهم، وأخص بالذكر هنا النساء. يا له من شيء رائع! نادرًا ما تتأبط المرأة ذراع زوجها، بل تسند يدها على كتفه في مشهد أقل ما يُقال عنه أنه بديع. عندما عدت إلى الباخرة بعد غروب الشمس بفترة نلت نصيبًا من التأنيب بسبب قطعي هذه المسافة الكبيرة في الريف بدون مسدسي، لكن الترحال بمصر في تلك الأيام كان آمنًا تمامًا كإنجلترا. أما الآن وبفضل ثلاثة أعوام من الحكم البريطاني المرتكز على مبدأ «الامتناع عن القيام بالأعمال الطيبة والسماح بكل الشرور» غدت هذه البلاد المسالمة مكانًا خطرًا مثلها في ذلك مثل براري تركستان.(١٢١)

(١٢٠) Herodotus, Book ii, Chapter ٣٥.

(١٢١) من الإنصاف أن أذكر أنه منذ كتابة هذه الكلمات تمت السيطرة على قطاع الطرق وأصبح السفر أكثر أمانًا نسبيًا. (المؤلف)

واصلنا رحلتنا من المنصورة نحو المصب وسط مشاهد تزداد حسنًا. أرض الدلتا مستوية تمامًا مثل «بورت ميدو»[١٢٢] وقراها جميله ثردان معظمها بالمساجد والمآذن. وصلنا دمياط قبل الظهر. أقيمت هذه المدينة بطريقة خلابة عند التواء النهر الذي يتسع عرضه في هذه المنطقة بشكلٍ كبيرٍ. تقع غالبية المنازل في الضفة الشرقية وتمتد مع الانعطاف الكبير للنيل. شُيد عدد قليل من هذه البيوت بأسلوب عصري على النظام الأوروبي، لكن جلتها يتبع في بنائه النماذج العربية والعمارة القبطية الرائعة. يكتنف المآذن والأبواب الضخمة جمال خاص وتتميز نقوشها الحجرية بالدقة والروعة. يلف النخيل المدينة القديمة في حلله المتجددة مشكلاً تباينًا مع سلسلة المباني التي أكل عليها الدهر وشرب.

توجهت سيرًا في فترة الظهيرة نحو بحيرة المنزلة ومعي بندقيتي لعلني أظفر بأحد الطيور البرية التي تعج بها، بيد أني لم أر طائرًا واحدًا بامتداد ساحلها. كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لدخولها هي القوارب الشراعية الضخمة، لكن معظم هذه المراكب كانت شاحطة في الطين كالسفن العملاقة المتفسخة في بعض الموانى المهجورة. داعب العيون لمعان سطح الماء الفضي الذي عجزت هبات الهواء ونبضات الحياة عن تحريكه أو قلب صفحته؛ وحتى البوص كان ناعسًا ما جعل المكان يبدو كبحيرة مسحورة في أرض الجان لولا هذه الرائحة الكريهة المنبعثة من الشاطئ التي جعلتني أنفر منها وأفر بعيدًا عنها. مع اقتراب المساء زار الخديوي وحاشيته تاجر موسر يُدعى الحاج سيد اللوزي[١٢٣] في منزله الكبير

(١٢٢) Port Meadow، منطقة في إنجلترا تقع شمال غرب أكسفورد وتطل على نهر التيمس. (المترجمان)

(١٢٣)«اللوزي» لقب عائلة مشهورة في دمياط، كما توجد بالمحافظة أيضًا قرية تُسمى «اللوزي»، مركز «كفر سعد». في الغالب أن الحاج «سيد» أو «السيد اللوزي» هو من أنشأ مدرسة اللوزي الشهيرة بدمياط عام ١٩٠٠. (المترجمان)

بالمدينة. كان حوش البيت مزينًا بألف وخمسمائة مصباح؛ كما بُسطت السجاجيد ليسير عليها الخديوي وألقيت الزهور عند موطئ قدميه بينما انطلقت الموسيقى الشعبية لتطرب الآذان الشرقية.

كانت دمياط يومًا ما ميناءً منتعشًا بالتجارة الضخمة، أما الآن فإنها تبعد عن البحر بمقدار بضع فراسخ[١٢٤] فتعذر على سفن النقل الكبيرة الوصول إليها. يعزو سبب هذا التغير بالطبع إلى النيل الذي ما فتئ يُلقي بالرواسب عند المصب.[١٢٥]

في اليوم التالي لوصولنا انطلقنا بالبواخر نحو البحر، ثم وضعنا أقدامنا على اليابسة عند اللسان الغربي.[١٢٦] كان من الطريف رؤية كبار الباشوات يهرولون بأغماد سيوفهم كالأطفال ثم يحفرون في الرمل لالتقاط الزلط والمحار. بعد ساعة من الاستمتاع على هذا النحو صعدنا على متن الباخرة مرة أخرى ودلفنا في البحر وسط هدير الحواجز التي تُحصّن المصب. لم يكن هناك الكثير لنطالعه في هذه الرحلة. في المساء أدرنا الدفة نحو النهر لنشاهد الأنوار التي تترك في النفوس أثرًا عظيمًا. كانت المشاعل ترسم خطًا فاصلاً بين المدينة وحدود النهر وصواري السفن الرابطة فيه. زرنا أيضًا منزل أحد الأعيان الذي يُشرف على المياه. استقبلنا الرجل بالحفاوة والسلام وراح يبسط كفيه نحو الأرض بطريقة غريبة. لقد أشار هيرودوت أن المصريين لا يتحدثون حين يلتقون في الطرقات،

(١٢٤) الفرسخ League مقياس للطول قديم يساوي في بريطانيا حوالي ثلاثة أميال. (المترجمان)

(١٢٥) معلوم تاريخيا أيضا أنه عقب حملة لويس التاسع على دمياط قام المماليك بتخريبها عام ٦٤٨ ميلادية لأنها كانت مطمع للفرنجة. بُنيت دمياط الجديدة إلى الداخل حتى يَصعُب على السفن الوصول إليها. (المترجمان)

(١٢٦)رأس البر الآن واللسان الشرقي يُسمى بالجربي. (المترجمان)

بل يتبادلون التحية «بخفض اليد حتى الركبة.»(١٢٧) لا يعتريني شك في أن هذا الوصف ما زال يشكل جزءًا من العرف فالمصريون يؤدون التحية في حركتين: أولاً تمرير كف اليد اليمنى حتى الركبة ثم لمس خاطف للصدر والشفاه والجبهة. إن المعنى المبطن هو «أكنس التراب من أمامك، وقلبي وشفتاي وعقلي في خدمتك»،(١٢٨) بيد أن هذا الشكل من السلام لا يجري بين الأتراب في الأحوال العادية؛ ويقتصر على المناسبات الرسمية، ويتفاوت طبقًا لمنزلة الشخص الماثل للعيان. تختفي جزئية حف التراب تلك بين الأنداد، لكن الأيادي تتحرك للخلف والأمام من الشفاه للصدور.(١٢٩) يعرف المصريون أيضًا السلام باليد والقبض على الإبهام كبديل عجيب له. بالنسبة للعابرين من النظراء فإنهم يشيرون بأيديهم على نحو قريب الشبه من تحيتنا العسكرية.

عدنا من دمياط إلى المنصورة عن طريق النهر، ومن هناك انطلق بنا قطار الخديوي بعرباته الفخمة إلى الزقازيق. توقف القطار في جميع المحطات حتى يتلقى الخديوي الالتماسات والخطابات. كانت الموسيقى مستعدة دائمًا، وفي إحدى الأماكن أنشد إمام أبياتًا منظومة تدعو بالصحة للخديوي وصاحبته جوقة راحت تردد «آمين» في نهاية كل سطر.

كانت الزقازيق بداية المشاكل. خُصصت لنا غُرفًا في مقر المديرية أو مسكن المدير. كانت أرضية حجرتي الأولى من الطين وعليها إياس بالي. فُتحت نافذتان في الجدار على شكل مستطيلين. كان لإحداهما مصراع، لكن كلاهما ليس به زجاج. لم يكن باب الحجرة مثبتًا، ولم يكن بها مقعد أو منضدة أو أي شيء

(١٢٧) Herodotus, Book ii, Chapter ٨٠. في الوقت الراهن هناك بعض المصريين الذين يضعون كف اليد اليمنى على الصدر مرة أو أكثر عقب التحية أو الإشارة بها تعبيرًا عن الامتنان والمودة. (المترجمان)

(١٢٨) أو كما نقول في العامية «انا خدام التراب اللي بتمشي عليه». (المترجمان)

(١٢٩) بعض من هذه الحركات ما زالت موجودة في الجزيرة العربية وشمال السودان. (المترجمان)

للاغتسال. لقد كانت هذه الحجرة لا تُطاق. جربت حجرة ثانية ثم تركتها لثالثة تبين أنها فوق «عشة» للطيور فعدت يائسًا للثانية. كانت هذه الحجرة مسقفة بعوارض خشبية مكشوفة، وجدرانها مطلية بفرشة جير وبابها مُلخلخًا. على الأرضية الطينية بُسطت حصيرة مصنوعة من الخوص وكذا بساطين تركيين. ضمت الحجرة مقعدة بُنيت من الحجارة وعليها الوسائد ومائدة صغيرة تتوسطها قلة وضعت في صحن. من حسن الحظ أني أحضرت إبريقًا وطستًا شعبيين، ودونهما لبقيت بلا اغتسال. تناولنا العشاء في منزل أمين بيك وهو من كبار أصحاب الأطيان. كان الطعام من المطبخ التركي - ولولا أنه قُدم في الهواء الطلق تحت تكعيبة عنب محاطة بالزهور- ما تحملت الكثير منه. وقف المضيف على خدمتنا ولاحظ الارتباك الذي شعر به الأوروبيون.

في صباح اليوم التالي أيقظتني مبكرًا عصافير تطير في حجرتي. أحضر سليمان طعام الإفطار: رغيف وبعض البيض وبكرج[١٣٠] قهوة محلية[١٣١] ولبّانة وملعقة، ومن ثم فقد أفلحت في إعداد كوب قهوة باللبن وتناول البيضة الوحيدة التي لم تكن فاسدة بالملعقة. بعد الإفطار ركبت متوجهًا لخرائب «بوباستيس».[١٣٢] لم أجد شيئًا سوى أكوام من القمامة وبين ثناياها هنا أو هناك بقايا أعمدة، لكن من وقت لآخر يتم الكشف عن قطع أثرية جميلة سآتي على ذكر أمثلة لها لاحقًا. من الطريف أن عامل التلغراف الإنجليزي هنا هو أول من سمع من الشيوخ

(١٣٠)إناء لصنع القهوة يُشبه الإبريق الصغير. ما زال مستخدما في جزيرة العرب لصنع القهوة العربية، وهو غير الكنكة. (المترجمان)

(١٣١)قهوة تركية في الغالب. (المترجمان)

(١٣٢)راجع الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت، الفصل ٦٠. «بوباستس» هو الاسم اليوناني لتل باسطة حاليًا، مرت بها مريم العذراء والسيد المسيح عليهما السلام. (المترجمان)

والحجاج القادمين من مكة عن ذهب «مدين»[١٣٣] فحث النقيب بيرتون على القيام ببعثته الكشفية هناك.

تصادف مرور موكب بربري وغريب للدراويش فكسر الملل الناتج عن تمضية يوم آخر في الزقازيق: عدد من الرجال يأكلون الثعابين والزجاج، مبارزون نصف عرايا وآخرون ارتدوا الدروع والخوذ كالمماليك القدامى، لكن «الدبوس» كان أكثر الأسلحة لفتًا للأنظار. هذه الدبابيس عبارة عن مسامير طويلة بقاعدة خشبية مستديرة مزينة بسلاسل دقيقة؛ ويقوم الدراويش الأتقياء بدفعها داخل الأذرع والخدود.

فاجئنا أمين بيك على الغداء ذاك اليوم، فبدلاً من الوجبة التركية المتوقعة وجدنا تحت تكعيبة العنب مائدة ممتدة مغطاة بملاءة بيضاء. على المأدبة أطباق عليها أكوام من الفاكهة اللذيذة وسط أصيص من الورود الرائعة وشمبانيا مثلجة وخمور فرنسية حمراء، وفوق هذا كله أطباق وسكاكين وشوك مما أدخل البهجة على قلوبنا. لقد فهم الرجل اللبيب الإشارة ليلة أمس فقام بهذا التحول المدهش. أراد هذا الرجل العظيم إكرام وفادتنا، لكنه أساء فهم أذواقنا؛ وأحسب أن تشبثه بكل ما هو شرقي قد تراجع منذ ذلك الوقت.

في المساء استقل الخديوي قطارًا خاصًا لزيارة رجل من الأعيان يُدعى الشيخ سليمان عجيزه في بيته الريفي.[١٣٤] تم تعبيد طريق يبدأ من الموضع الذي توقف فيه القطار، كما تم تحديده بأنوار الفوانيس. ينتهي الطريق عند ميدان كبير تشكله أروقة من الخشب المدهون وتتخللها أقواس مضاءة بشكل بديع.

---

(١٣٣) شمال غرب المملكة العربية السعودية. (المترجمان)

(١٣٤) أغلب الظن أن الخديوي ذهب إلى «عزبة العجيزي»، مركز منيا القمح. (المترجمان)

تركنا الميدان مرورًا بحدائق جميلة مفعمة برائحة ورود فواحة خفتت لمعان أوراقها الملونة في الظلام. في منزله قدم لنا الشيخ القهوة والعصير في أقداح مطلية بالفضة. لقد كانت زيارة احتفاء وجيزة، وسرعان ما ركبنا جيادنا مرة أخرى وانطلقنا تظلنا السماء. كم هي بديعة تلك الليالي المصرية التي ستظل ذكراها غالية دومًا.

استيقظنا في الخامسة في اليوم المقرر لمغادرة الزقازيق، ووصلنا محطة السكك الحديدية بعد ساعة. لم يُقدم لنا فطور في تلك الأيام، واضطررنا عادة للانتظار لمدة ساعتين قبل السفر. انتهى مكوثنا المرهق وانطلقنا نحو طنطا حيث مكثنا مرة أخرى في أماكن غير صحية باستراحة المدير. ضمت الغرفة الصغيرة فراشين، وتكدس التراب على أرضيتها بارتفاع بوصة بالمعنى الحرفي للكلمة، وراحت الحشرات ترتع فيها. استقبل الخديوي في طنطا السيد ريفرز ويلسون(١٣٥) وأعضاء لجنة سداد الديون ولحقوا بموكبه لرؤية أنوار الزينة. إن صورة طنطا ممسوحة من ذاكرتي للأسف بسبب مرض ألم بي نتيجة للطعام السيئ والروائح الكريهة والحشرات المتوحشة والريح الحارقة.

كنا في الأسبوع الأخير من شهر إبريل؛ وعلى الرغم من أن الخماسين أو ريح الخمسين يوم لم تبدأ في هبوبها المنتظم إلا أننا كنا نعاين مقدماتها. تهب هذه الريح من الجنوب هادرة مثل الأتون فتجعل النخل ينكفئ إلى حد الانكسار والأجواء ملبدة بذرات رملية دقيقة وغير محسوسة. احتجبت الشمس فصار لونها باهتًا وتوارت الطبيعة المشرقة الغضة وابتلعت مظاهر الحياة نيران من اللهيب المستعر. يتحتم عليك إحكام إغلاق كل النوافذ، لكن دون جدوى

(١٣٥) Sir Rivers Wilson، ١٨٣١ -١٩١٦، عُين أيضًا مديرًا لقناة السويس. (المترجمان)

لأن الهواء المحمل بالرمال والسموم المتقد ينفذ منها فيأتي على المقاعد والموائد والمرايا ويجعلها تطقطق بصوت عال ويبخر المياه من أوانيها كفعل السحر. يضج الناس في مضاجعهم ويتقلبون عليها يحدوهم الأمل في نيل قسطٍ من النوم. تُصبح الحركة عبئًا والقراءة والكتابة وحتى التفكير مأساة. يستمر هذا الحال ليلاً ونهارًا لمدة أربعة أو خمسة وأحيانًا حتى عشرة أيام قبل أن يتغير. تهل نسائم الشمال القادمة من البحر من جديد فيتنفس الناس الصعداء، لكن ريح الجنوب لا تمهلهم كثيرًا ليستمتعوا بالطقس المعتدل فتعصف من جديد وتشَيَّطَ الأرض بسخونة هوائها.

كانت إقامتنا في شبين الكوم أفضل نسبيًا، فعلى الأقل استمتعت بالتنزه في ظلال بساتين الريف المنعشة التي تضم الخوخ والتين والبرتقال. يبدو أن فكرة التمشية غريبة على المصري الأصيل اللهم إذا خرج عن وعيه، لذا لم يُقدم عليها شخص غيري من بطانة الخديوي. يُحكى أن امرأة طاعنة انتقلت من «وينديرمير»[١٣٦] إلى حي فقير في «مانشستر». عندما حاول القسيس مواساتها بسبب هذه النقلة علقت قائلة: «أتظن أني آسفة لترك تلك التلال؟ لا بالطبع. أحب الأماكن التي يمكن أن أرى فيها شيئًا جديدًا.» إن تلك الفكرة مغايرة لما استقر في أذهان الباشوات. لسان حالهم يقول: «كل الأماكن متشابهة في نظر المؤمن الحق. نحن عبيد لله وليس لنا من الأمر شيء. لا ريب أن إبليس اللعين يزين للكفار حب اللف والدوران، لكن ورد في الأثر أن البعد عنهما أفضل.» هؤلاء المصريون مختلفون كل الاختلاف عن أجدادهم من سراسنة[١٣٧] القرون الوسطى، سادة الحروب وهواة لعب الكرة والصولجان.

(١٣٦) Windermere منطقة ريفية تضم أكبر بحيرة طبيعية في إنجلترا. (المترجمان)

(١٣٧) Saracens اسم مشتق من اليونانية القديمة أطلق على عرب الجاهلية شمال غرب الجزيرة (منطقة البتراء النبطية). هناك من يرى أن الكلمة تعود للسيدة سارة زوجة نبي الله إبراهيم عليه الصلاة

إن وسائل الشرب في هذه المنطقة عجيبة وجديرة بالوصف. يشاهد المرء على جانب الطرق هنا وهناك بنايات صغيرة يصل حجمها إلى ستة أقدام مربعة. تحتوي كل منها على زلعة خزفية[١٣٨] ترتفع بمقدار ياردة[١٣٩] وبجانبها قلّه.[١٤٠] تعلو الجرة قبة مدعمة بأربعة أقواس مفرغة من جميع الجوانب. تتولى المساجد الإشراف على هذه الأسبلة وصيانتها.

من الأشياء الأخرى الجديدة التي استمتعنا بها دعوة تاجر «جريكي» لنستقل «دهبيته»[١٤١] الجميلة في القنال.[١٤٢] أضاءت المصابيح والألعاب النارية ضفتي الترعة. تحركت الدهبية ببطء في المياه المظلمة، لكن الفوانيس حددت ظهر المركب وقمرة القيادة والأشرعة والصاري. صحيح أن نورها كان واهنًا ومملاً نظرًا لتماثلها، لكن تأثيرها كان رائعًا واستثنائيًا.

كانت خيام الشيوخ الذين تجمعوا في شبين قمة في الروعة حيث زُينت أضلاعها بنماذج من المشغولات الشائعة في الريف كالورود والفواكه والحيوانات، ناهيك عن آيات من القرآن صُممت بذوق عال وتناسق بديع. أشيع أن خيمة واحدة تكلفت ألفين ليرة. لا جدال أن كُلفة خيمة الخديوي بحريرها الفرنسي وأعمدتها المطلية بالفضة أيضًا مرتفعة، لكنها لا تضارع تلك الخيام في جمالها.

والسلام، لكن بما أن العرب ينتمون إلى السيدة هاجر فالرأي الغالب أنها تحريف لكلمة «شرقيين». بعد انتشار الإسلام حمل الاسم في طياته مشاعر الكره خاصة خلال الحملات الصليبية، ثم بدأ في الأفول في أواخر العصور الوسطى؛ ومع ذلك ظل هناك من يستخدمه حتى القرن العشرين. (المترجمان)

(١٣٨) ربما كان المؤلف يقصد «الزير». (المترجمان)

(١٣٩) الياردة حوالي تسعين سنتيمتر. (المترجمان)

(١٤٠) ربما كان المؤلف يقصد «الكوز». (المترجمان)

(١٤١) مركب نيلي. (المترجمان)

(١٤٢) ترعة بحر شبين. (المترجمان)

تشتهر شبين بوجود ضريح لرجل صالح[١٤٣] بمنطقة «سرسنا الشهداء».[١٤٤] زار الخديوي المقامة يتقدمه ويحيط به حشد كبير من البدو. بالإضافة إلى التاجر الجريكي، احتفى بنا على العشاء رجل من الأعيان يُدعى «علي شعير». اصطحب الخديوي كبار رجال الحاشية: طلعت باشا، خيري باشا، زكي باشا، راشد باشا، مصطفى باشا وجودار بيك. كنت أنا الشخص الوحيد بين تلك الصفوة المذكورة الذي لا يحمل ألقابًا غير «السيد». كان مضيفنا يقيم في منزل كبير وجميل ومؤثث على الطراز الأوروبي، لكن الطعام كان برمته محليًا. وقف خادم في مدخل حجرة الطعام يحمل إبريقًا فضيًا يصب على أيدي الضيوف الماء الذي استقر في إناء من الفضة أيضًا. تناول كل ضيف على حده منشفة مطرزة بخيوط ذهبية على نحو مبهر. اختص خادم آخر بمياه الشرب ووقف بيده قدح واحد بعينه يصب ماء المنطقة العكر ويناوله لمن يطلبه. لم يكن هناك أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب، بل ملعقة واحدة لكل فرد. وضع الطعام- كما هي العادة- على صينية كبيرة ومستديرة ترتكز على قاعدة. توالت الأصناف على وسط المائدة وانبرى الضيوف في الاعتناء بأنفسهم. بدأنا بالحساء فغمر الجميع ملاعقهم في السلطانية واستمروا في ذلك حتى جيء بخروف مشوي كامل الهيئة شرع الجالسون حول المائدة في تمزيقه بأصابعهم وتجريد عظامه مما عليها والغوص بحثًا عن قطع اللحم. تعددت بعد ذلك الأطباق حتى وصلت عشرين وترتيبها: خرشوف في الزيت، فطائر ملفوفة، طيور مسلوقة، بامية، حلوى شعبية يصعُب وصفها (قطع منها راشد باشا جزءًا ووضعه أمامي -- وهذا شرف

(١٤٣) لم يكن بتلر موفقًا في استخدام لفظة Saint بمعنى قديس للإشارة إلى ضريح سيدي محمد شبل بن الفضل بن العباس بن عبد المطلب، قُتل مع جماعة من المسلمين أثناء فتح مصر ودُفن في هذه المنطقة. معروف أن كلمة Saint تعني «قديس»، ولا تناظر «ولي» في المفهوم الإسلامي. (المترجمان)

(١٤٤)من العجيب أن مركز الشهداء كان على موعد بعد قرابة ربع قرن من زيارة بتلر مع واقعة أخرى سقط فيه شهداء مصريون، ونعني به حادثة دنشواي ١٩٠٦. (المترجمان)

عظيم)، أرز معمر، كعكة مزينة بحلوى فضية، «محشي» طيب الطعم، حمام مع بسلة خضراء عائمة في السمن (تناول زكي باشا حمامة من ساقها ووضعها باسمًا على خبزي -- وهذا شرف عظيم)، دجاج، كوارع، نوع آخر من الملفوف، قطع متبلة من الطيور في المرقة والإدام، نوع آخر من الكعك، لحوم إضافية، بسكويت اللوز، شربات الورد وأخيرًا الشمام والفراولة. يا لها من وجبة مذهلة! عندما فرغنا من تناول الطعام غسلنا أيدينا مرة أخرى فقد كان هناك من يحتاج ذلك فعلاً، ثم توجهنا إلى غرفة أخرى بغية التدخين واحتساء القهوة.

دخل علينا المضيف الذي كان يتناول العشاء مع الخديوي منحنيًا بشدة ومرحبًا ومكثرًا من الاعتذارات للمجموعة بالكامل. دعاه الباشوات بتبسط كبير للجلوس؛ وكانت تلك الإشارة المعهودة لباقي الحاضرين لتبادل التحية مع القادم الجديد. بعد السلامات والتحيات جلس مضيفنا على حافة المقعد وقد اعتراه القلق والتوتر فسحب ذيل معطفه نحو ركبتيه وطوى يديه في تواضع جم؛ أما عيناه فلم يرفعهما عن الأرض دلالة على الاحترام. مضت عشر دقائق والرجل على هذا الحال لم ينطق ببنت شفة ولم يُلتفت إليه حتى تلطف معه أحد البَاشَوات وألح عليه أن يأخذ سيجارة من تلك التي تخص المضيف نفسه. تجرأ شعير وأذعن متهيبًا، ثم حل الصمت من جديد قطعه الحاضرون بالثناء على الغرف وعوارض السقف الخشبية والرجل على حاله من الاضطراب والارتباك. لم يكن على راحته بالمرة حتى هممنا بالمغادرة بعد ساعة من تناول الطعام. كانت الجياد في انتظارنا لتعيدنا إلى أماكن إقامتنا وتقدمها حاملو المشاعل كحراس شرف.

توجهنا في الصباح إلى دمنهور دون إفطار بالطبع كما هو الحال في أيام الرحيل، لكني تمكنت من الحصول على قرص من الخبز البائت وبعض المياه العكرة. قبل بلوغ غايتنا ببضع أميال دخل عدد من البدو في سباق مع القطار. حدث غير مرة خلال انطلاقهم الجنوني أن تعثرت الجياد بمن عليها ليطأها القادمون من الخلف تحت ضغط السرعة وعدم القدرة على التوقف بصورة تجعل الجلود تقشعر. لقد كانوا في منتهى التهور والطيش؛ وكان من المستحيل معرفة هل قُتلوا من عدمه، ومدى خطورة إصاباتهم لأن القطار تجاوزهم؟

أثناء تجولي بين البازارات هنا سمعت رجل آت من الخلف يصيح بعبارة عن النبي. طوحني جانبًا بمرفقه وهو يشق طريقه بشكل وقح ومستهتر ومستفز. تملكني غضب عارم فطرحته وأنا أصرخ في وجهه. حين استعاد الرجل توازنه توقف لبرهة رمقني خلالها بغيظ ثم استأنف سعيه وصياحه. تبين لي بعد ذلك أنه مجذوب وأن صياحه يعني «اللي يحب النبي يصلي عليه». ندمت على شعوري بالاستياء والامتعاض من سلوكه وشعرت بالراحة لأن الأمر لم يستفحل سوءًا أكثر من ذلك.

أمضى الخديوي معظم اليوم في خيمته. توالت الالتماسات على اختلاف مضامينها. بدا واضحًا أن الفقراء لا يطمئنون إلى تلبية مطالبهم ما لم يقدموها شخصيًا إلى الخديوي. وقف حشد من أصحاب العرائض على مسافة من الخيمة طيلة ساعات النهار. غالبًا ما اندفع رجل أو امرأة على حين غرة من وسط المحتشدين إلى الفضاء المواجه للخيمة ثم يواصل إلى حضرة الخديوي، لكن الحراس كانوا دائمًا يتدخلون ويستلمون الطلب ليقدموه بشكل رسمي. أثار أحد الفقراء المشاكل. حين فهم أخيرًا أن ورقته سوف تُقدم في دورها

ووقتها جلس بالساعات وعيناه مثبتتان على خيمة الخديوي وعلى وجهه نظرة ترقب مثيرة للشفقة. في حقيقة الأمر تم الاستجابة لجميع المطالب فجلتها تحوي مشاكل ليست كبيرة أو معقدة: رجل رهن بيته ولم يستطع استرداده فأعطاه الخديوي المال، رجل ادعى أن حماره سُرق، امرأة فقيرة توسلت للإفراج عن أخيها المحبوس في سجن الفيوم... ناهيك عن المتسولين والمقعدين الذين طلبوا الصدقة والإحسان، ولم يرجع أحدهم خاليالوفاض.

على المقهى في نفس اليوم رأيت صبيًا يعرض خسًا كبير الحجم. ابتاع المترددون على «القهوة» بعضًا منه ثم ألقوا الأوراق جانبًا والتهموا العيدان على عكس ما يفعله الأوروبيون، وتلك ملاحظة سقطت من هيرودوت. شاهدت أيضًا امرأة تخوض في الترعة(١٤٥) وعلى رأسها سلّه سوق. بالرغم من أن المياه غمرت ما بعد خصرها تابعت المرأة المشي دون اكتراث وحتى لم تتوقف لتعصر ملابسها. من المشاهد الأخرى التي أدهشتني قدوم أحد رجال الحاشية وهو في شدة الغم والكرب. لم يفقد عزيزًا عليه ولكن كل ما في الأمر أن الخديوي وجه له التوبيخ والتأنيب.

من دمنهور توجهنا صوب دسوق(١٤٦) حيث ذُبح ثور كما هي العادة. المشهد الوحيد المثير الذي عاينته كان العراك المستعر على سقط البهيمة وبقاياها. وضعت جماعة مؤلفة من عشرة رجال يدها على الجلد؛ وبينما أخذوا في العدو نحو النهر تشاجر نصفهم مع الخمسة الآخرين حول ملكيته؛ ثم ولجوا عبر باب

(١٤٥)يقصد في الغالب ترعة «المحمودية»، نسبة إلى السلطان العثماني «محمود» والتي تحمل المياه العذبة إلى الإسكندرية. انتهى العمل فيها في عهد محمد علي عام ١٨٤٠. (المترجمان)

(١٤٦) من الجدير بالذكر في هذا المقام أن الخديوي توفيق أثناء هذه الزيارة لمدينة دسوق أمر بإعادة بناء وتوسعة مسجد وضريح سيدي إبراهيم الدسوقي على مساحة ثلاثة ألف متر مربع. (المترجمان)

أحد المنازل واختفوا جميعًا. تألفت المجموعة التالية من أربعة رجال أمنوا لأنفسهم قطعة جيدة من «الريَش»،(١٤٧) ثم حملوها جريًا نحو الشاطئ. ولما كان آخرون يطاردوهم في حمية وحماس فقد دحرجوا الغنيمة بسرعة على المنحنى المغبر لضفة المياه لتستقر عند حافتها؛ ثم عادوا فأمسكوا بها قافزين في أحد القوارب وهم يذبون المتعقبين بالمجاديف حتى اندفعوا إلى عرض النهر وقلوبهم ترقص من الفرحة.

كان للمدير(١٤٨) بيت جميل في دسوق تناولت في ردهته الطعام التركي القح بصحبة الباشوات. أتى الخديوي فيما بعد لحضور التشريفات؛ وبينما كان يصعد السلالم الرخامية ظهر جعران كبير على السجادة التي بُسطت ليترجل عليها، لكن شعار مصر القديمة أزيح على عجل من أمام سيد البلاد، الفرعون الحالي؛ فلم ينل من التبجيل ما يستحقه.

وصلنا مدينة رشيد الجميلة في غرة شهر مايو.(١٤٩) لا يوجد ما يضاهي سحر القصور العتيقة بهذه المدينة ولا شوارعها المحددة بصفوف من الأعمدة؛ كما أن أطلالها لا تقل إثارة عن حدائقها المعمرة، دائمة الخضرة. تتكون المنازل هنا من ثلاثة أو أربعة طوابق؛ ومعظمها مبني من الطوب؛ وجدرانها الخارجية مغطاة بنوع من الفسيفساء تكون أشكالاً متنوعة ذات ألوان متجانسة. ترتكز الطوابق العليا والطنوف(١٥٠) التي تحملها غالبًا على أعمدة رخامية ذات تصميمات يونانية أو رومانية.

(١٤٧)الضلوع. (المترجمان)

(١٤٨) نعتقد أن بتلر يقصد هنا مدير (محافظ) كفر الشيخ. (المترجمان)

(١٤٩) استخدم بتلر عبارة May Day أي «أول مايو» وقصد به بداية الربيع في إنجلترا، وليس «عيد العمال» كما قد يظن البعض ذلك لأن هذا العيد لم يبدأ الاحتفال به إلا عام ١٨٨٦. (المترجمان)

(١٥٠) جمع طنف. (المترجمان)



شرفات البيوت الفخمة مستورة بمشربيات رائعة عبارة عن تشبيكات خشبية ناتئة عن النوافذ؛ والسقوف الداخلية لهذه المنازل مُعلقة ومصنوعة من الخشب المنمق بنظام عاشق ومعشوق، وهي بديعة الألوان والنقوش؛ وأما الأرضيات فمن قطع الرخام الصغيرة. إن أشد ما يُدهش المرء هنا في رشيد هو الصبغة القديمة لهذه المدينة التي لم تتغير منذ القرون الوسطى؛ ويبدو أن اضمحلالها هو ما حافظ عليها لأنه لم يكن هناك دعوة لترميمها أو تحسينها. وبعبارة أخرى فإن رشيد الآن هي رشيد في القرن السادس عشر، لا في القرن التاسع عشر؛ وآثار الفن العربي أو بالأحرى القبطي هنا ليس لها نظير.

يتيح لك السير باتجاه الحصن الجنوبي رؤية مشهد رائع للنيل وهو ينحرف، وكذا الصحراء وما بها من نخيل والحدائق المفعمة بالخضرة والمدينة القديمة. وعلى النقيض من هذه الصورة يمر المرء بالقرب من الحصن بمنطقة رملية غريبة المنظر تحوي آثار حوافر من المحتمل أنها للحرابي وكذا آثار الثعابين التي تنتشر شقوقها في المكان. تدفن حيات «أم جنيب» المرعبة نفسها في هذه الرمال ثم تباغت المارين بالهجوم.[١٥١]

(١٥١) يُطلق عليها أيضا «أم قرين» والاسم الشائع لها في مصر هو «الطريشة». (المترجمان)

كما حدث في دمياط قررنا الولوج ببواخرنا في البحر المتوسط. مررنا في الطريق على قلعة «القديس جوليان»(١٥٢) حيث عُثر على حجر رشيد الشهير.(١٥٣) القلعة عبارة عن بناية صغيرة وعتيقة حوائطها من الأحجار ونصفها أطلال. إن ضفاف النيل في هذه المنطقة منخفضة وزاخرة بالنخيل والأشجار التي يدفع أصحابها عن كل واحدة منها خمسة عشر شلنًا سنويًا للحكومة كضريبة. رست البواخر على الرأس الغربي فنزلنا عليه بصحبة الخديوي. ضحكنا كثيرًا عندما شاهدنا أحد البَاشَوات يرمي بنفسه دفعة واحدة على الكثبان الرملية بالرغم من عظم حجمه. واصلنا الإبحار نحو المصب فنعم البعض وأنا منهم بهواء البحر العليل، بينما لم يستسغه آخرون.

على متن السفينة كنت أساير عربيًا دمث الخلق وأتابع الأمواج، ثم أبديت ملاحظة قائلاً: «كم أنا مغتبط لرؤية الأرض الإنجليزية ثانية.» ما عنيته هو البحر بالطبع، لكن الرجل ضحك مستفسرًا في دهشة: «أظنك تقصد الأرض المصرية؟» فأجبته: «كلا... لقد صار لي هنا ثلاثة أشهر أرى فيها مصر كل يوم؛ إنما عنيت البحر.» إن الطريقة التي استقبل بها هذا الرجل ملاحظتي تفضح على الأقل الفكرة المهيمنة على عقله. لقد عاد فأوعز إليّ قائلا: «إن مثل مصر كعظمة كبيرة وافرة يحرسها كلبان ضخمان: إنجلترا وفرنسا، لكن بينما كان الكلبان يدمدمان وينظران لبعضهما شزرًا، زحف النمل حتى احتوى العظمة ثم سلبها ليزداد حجمًا بعد ذلك. إن النمل هنا يمثل اليونانيين والإيطاليين والشوام.» لقد كان التشبيه بارعًا وصائبًا جدًا بمنظور ذاك الوقت الذي بدأ فيه ناقوس

(١٥٢) St. Julian، هو الاسم الذي أطلقه جنود الحملة الفرنسية على قلعة رشيد التي أنشأها السلطان قايتباى سنة ١٤٧٩. (المترجمان)

(١٥٣) Rosetta Stone، وجده «بوشار» Bouchard، أحد ضباط الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ وفك رموزه شامبليون Champollion.(المترجمان)

الخطر يدق بشدة، لكن أحد الكلبين الكبيرين عاد بخفي حنين[١٥٤] وظفر الآخر بالعظمة بعد قتالٍ حاد.

صحبنا مصور من أبناء البلد في رحلتنا تلك، لكنه لم يكن حذقًا بالقدر الكافي ولم يُحسن انتقاء اللقطات. أخذته من يده في رشيد وبعد عناء جم جعلته يأخذ لقطة أو اثنتين للمنازل القديمة. بعد انقضاء ثمانية أشهر كانت الصور جاهزة بالفعل بعد تحميض الفيلم وطباعته، وخرجت بشكل لا بأس به. من حسن حظ رشيد أنها تقع بمنأى عن خطوط المواصلات الرئيسية فلا يزورها الأوروبيون إلا ما ندر؛ ومن ثم فقد توافرت لها الفرصة لكي تحتفظ بآثارها التي تعود للقرون الوسطى؛ لكن الأوروبيون ليسوا الوحيدين الذين يحملون الدمار، فالعربي لا يقل سوءًا عن الفرنسي في هذا الشأن. لقد حدث آنفًا أن هُدمت بعض الدور المهجورة الرخيصة في رشيد ثم نُقلت أحجارها القيمة إلى الإسكندرية سعيًا وراء تحقيق بعض المكاسب حيث أعيد استخدامها البناء، بيد أنه تم تجريم هذا الأمر الآن.

غادرنا رشيد في الثالث من مايو. وافق هذا اليوم احتفالاً يُسمى «شم النسيم»، وهو يشبه مهرجان الربيع؛ كان في الأصل عيدًا قبطيًا والآن يحتفي به المسلمون أيضًا. رحلنا قبل الفجر وفي السابعة نزلنا بباحة قصر يقع على إحدى ضفتي النيل بغية التريض في حدائقه الجميلة حيث شممنا النسيم وقطفنا الورود في يوم عيدها. بعد مرور قسم من النهار جاوزنا في النهر مراكب عليها أناس يعزفون على الناي ويغنون ويرقصون ويصفقون بنفس الكيفية التي وصفها هيرودوت في الأيام الغابرة.[١٥٥] إن الطريقة التي يصفق بها هؤلاء

(١٥٤)يقصد الكاتب فرنسا. (المترجمان)

(١٥٥) Herodotus, Book ii, Chapter ٦٠.

الناس تختلف عن نهج الأوروبيين فاليدين في وضع رأسي أمام الصدر والكفين يضربان بعضهما بإيقاع بطيء ومحسوب ويؤديه الجميع في تناغم. مررنا أيضًا بجثة فلاح طافية مع التيار. كان على ضفة النهر القريبة من الجثة أشخاص كثيرون، لكن لم ير أي منهم الجثة. ربما انتحر الرجل أو لقى حتفه في حادث أو جريمة قتل، لكن من يهتم؟

بعد رحلة طويلة عدنا إلى القاهرة بعيد مغرب شمس اليوم التالي؛ ونزلنا برها مع هدير المدافع القابعة في القلعة.[١٥٦] لقد سافرت في دلتا النيل عبر فرعيه، ومن الشلال حتى البحر في مسار لا يعبأ بإنجازه الكثيرون من الرحالة.

(١٥٦) ترحيبًا بعودة الخديوي. (المترجمان)

الفصل الرابع

السيد جلادستون(١٥٧) وتركيا- خادم مفتري- العقيد جوردون(١٥٨) والخديوي- مؤذن الشيطان- بوادر التمرد- قصص الثروات- الأهرامات في الصيف- موكب كبير للدراويش

في اليوم التالي لوصولنا تناولت وجبة العشاء مع الخديوي بحضور الباشوات: طلعت وخيري ويوسف وزكي وسليم والبكوات شوقي وتونينو. تكلم الخديوي معي طيلة الأمسية بالإنجليزية. كان سليم هو الوحيد الذي استطاع فهم حديثنا. أقام الخديوي في بداية اليوم استقبالاً التقى فيه بثمانمائة فرد. لقد بدا جنابه متعبًا، لكنه لم يفقد حيويته المعهودة. بعد طرح بعض الأسئلة والملاحظات والتعليقات حول رحلتنا عبر الدلتا عرج الخديوي بالحديث على السياسة الإنجليزية. لقد أوصلت الانتخابات السيد جلادستون إلى سُدة الحكم بأغلبية كاسحة، لكن الملكة لا تميل إلي وجوده فيها كما تراءى للخديوي. أضاف جلالته أنه طبقًا لمعلومات عناصره في إسطنبول فإن الروس في الناحية المقابلة سعداء

(١٥٧) William Ewart Gladstone ١٨٠٩-١٨٩٨، تولى منصب رئيس وزراء بريطانيا لمدة أربع دورات أعوام ١٨٦٨ و١٨٧٤ و١٨٨٠ وهي المرة موضوع حديث الخديوي توفيق وأخيرًا عام ١٨٨٥. (المترجمان)

(١٥٨)تشارلز جورج جوردون (٢٨ يناير ١٨٣٣ - ٢٦ يناير ١٨٨٥) كان ضابطًا وإداريًا في الجيش البريطاني. يُعرف أيضًا بجوردون الصيني أو جوردون باشا أو جوردون الخرطوم. دخل في خدمة الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٣ وعينه الأخير حاكمًا على السودان. عاد إلى إنجلترا عام ١٨٨٠ ثم مرة أخرى إلى السودان عقب اندلاع الثورة المهدية فلقي حتفه هناك عام ١٨٨٥، أي بعد عام من صدور هذا الكتاب الذي بين أيدينا. (المترجمان)

بوصول السيد جلادستون إلى زمام الحكم لأنه عدو لتركيا وصديق لروسيا. وبالرغم من ذلك فقد أبدى الخديوي إعجابه بالوحدة الوطنية في إنجلترا التي تعلو فوق الاختلافات الحزبية. أثنى جلالته على هذا الشعب العظيم واجتماع عقوله على أمر واحد بأحر تعبيرات الإطراء والمديح. لاحظ جنابه أيضًا أن الإنجليز في الخارج على سجيتهم ولا يميلون للمواربة أمام العروش الأخرى؛ بينما يميل الأجانب من الجنسيات المغايرة إلى التحفظ أو كشف النقاب عن أقل القليل. أطرى جنابه على الحريات في إنجلترا بحماسٍ شديد مبديا اتفاقا مع ملاحظتي بأن الرعايا يتمتعون بالحرية الفردية في إنجلترا الملكية أكثر من أقرانهم في فرنسا الجمهورية. في غرفة المعيشة التي انتقلنا إليها بعد العشاء عاد حديثنا إلى دلتا مصر. أبدى جنابه إعجابًا بدمياط أكثر من كافة الأماكن الأخرى التي زرناها، لكني لم أتفق معه. صحيح أن دمياط منتعشة بالتجارة وموقعها يتفوق على ما عداه، لكن فيما يتعلق بالفن والعمارة فإن رشيد أزهى وأجمل. وهكذا استمر حديثنا حتى حان وقت الانصراف فتوجهت كالعادة بصحبة الخاصة للجلوس في حدائق القصر وهناك سمعت منهم أغرب الحكايات.

يوجد في خدمة الخديوي رجل سأدعوه فقط بالزنجي لأنه كذلك.[(١٥٩)] كان لهذا الرجل آنفًا بعض التأثير على الخديوي السابق إسماعيل، واستغل نفوذه لتحقيق مكاسب هائلة. في رحلتنا الأخيرة استمر هذا الإثيوبي الماكر في المتاجرة بموقعه متظاهرًا أنه ما زال شخص ذو حيثية. وفيما يلي الحوار الذي دار بينه وشيخ أحد البلاد؛ وسمعه من أنبأ به عن طريق الصدفة البحتة:

(١٥٩) كانت كلمة «زنجي» Negro مقبولة حتى أواخر الستينات من القرن العشرين، حتى أن مارتن لوثر كنج نفسه قد استخدمها في خطبة له عام ١٩٦٣؛ أما الآن فالكلمة تُعتبر ممقوتة ومهينة، لذا تم الاستعاضة عنها بكلمة «أسود» أو «افرو-أمريكي». وجدير بالذكر أن بتلر يبدو في مواضع أخرى من الكتاب عنصري إلى حد ما. (المترجمان)

«إن البقر الذي أرسلته المرة الفائتة لم يكن جيدًا كما تمنيت. ألا يوجد لديك أفضل من ذلك؟»

«بكل تأكيد يا صاحب السعادة. لقد كان موسم العام الماضي سيئًا، وهذه مشيئة الله، لكن الحيوانات الآن أكثر عافية ولله الحمد.»

«حسن... هل لديك دواجن؟»

«أجل يا صاحب السعادة.»

«حسن جدًا. أرسل لي بعض منها.»

«وهل لديك زبد يا صديقي العزيز؟»

«زبدي هو زبدك.»

«ولا تنسى التمر حين تقطع عذوقه»(١٦٠)

«على العين والرأس. هذا شرف كبير لعبدك.»

«إنك رجل أمين وسوف أذكرك بالخير أمام أفندينا. السلام عليكم.»

«وعليكم السلام... بيض الله وجهك.»

ذهب كل إلى حال سبيله؛ فأما الشيخ المسكين فقد ساورته بعض الشكوك، لكنه امتثل بعد أن زُينت له آمال عز أن تؤتي ثمارها؛ وأما الزنجي فقد انتشى بالصفقة التي ربحها والمكاسب التي غدت في جيبه. لا ريب أن مثله ومن على شاكلته يستحق أن تُضرب أعناقه بالنعال.

عشية يوم آخر بعد تناولنا الطعام مع الخديوي عرج حديثنا في نفس الحديقة على اللواء جوردون وكان برتبة العقيد وقتها. جاء إجماع الحاضرين على كونه جنديًا رائعًا وإداريًا فاشلاً مثيرًا للعجب بالفعل. قال سليم باشا أن

(١٦٠) يُسمى أيضا بالسوباطة. (المترجمان)

جوردون أودى بحياة العشرات من الأفراد بسبب غرابة أطواره وتقلب مزاجه بين الود والعداء. إن الأذى الذي ألحقه بالسودان سيستغرق أعوامًا لإصلاحه. استقبل بقية أفراد البطانة هذا الرأي المثير بترحاب أتذكره دون تعليق أو إيعاز بأن تقريعهم لجوردون إنما ينبع من الغيرة. في هذا التوقيت كان جوردون قد ترك حكم السودان، ولم يعد موجودًا في مصر.

في أحد الأيام أُصيبت القاهرة بالذهول جراء سريان إشاعة مفادها أن قافلة محملة بالعبيد حطت رحالها في أسيوط. أجمع معظم الناس على استحالة هذا الأمر، لكن تبين أنه صحيح. قطعت هذه القافلة الفيافي على مدار أربعين يومًا عانى خلالها العبيد البائسون الأمرين. يضمن هذا المسار الصحراوي الطويل للقافلة بلوغ مصر في خفية بعيدًا عن أعين السلطات. سمح القانون وقتها ببيع العبيد بشكل خاص من بيت لبيت وبرضاهم، أي شريطة أن لا يقوموا برفع شكوى إلى الحكومة. غالبًا ما كان هؤلاء العبيد يتقاضون أجرًا مما حدا بالكثير منهم تفضيل العبودية على الحرية. هذا وكان للإماء حق طلب العتق إذا رغبن في الزواج. في ١٨٨٥ تقرر إلغاء نظام شراء العبيد للاقتناء الخاص.

كان لإسماعيل نهج خاص في الزج بالعبيد وإقحامهم على رجال الحاشية بسيف الحياء. استدعى يومًا أحد ضباط المراسم الذي يبدأ اسمه بحرف "F" وصار صديقًا لي بعد ذلك. كان الرجل فارعًا ووسيمًا؛ وإجمالاً جدير بحيازة وصف أهل البلد: « قمر بهي الطلعة وأسد ساحر للنساء.» بادره إسماعيل: «لقد وجدت لك زوجة كحورية من الجنة؛ وسوف تدخل عليها بعد أسبوعين.» أجاب صديقي: «هذا شرف كبير يا مولاي. لقد غمرتني جلالتك بالسعادة.» تم الزواج بالطبع دون أن يري "F" العروس. أخيرًا وبعد انتهاء

المراسم ورفع الخمار اكتشف العريس أنه عقد قرانه على امرأة سوداء تعافها النفس. ليلة واحدة كانت كافية ليتجنبها صديقي ولا يقترب منها ثانية. بعد خلع إسماعيل ونفيه طلقها الرجل وتزوج امرأة على هواه.

بالفعل مازالت تجارة الرقيق سارية؛ بل وسوف تستمر طالما تدعو الحاجة لذلك. إذا أرادت المجتمعات المنادية بإلغاء تجارة العبيد توجيه ضربة قاصمة لها فيتعين عليها أولاً أن ترصد أموالا تُوجه للتعليم والإصلاح الاجتماعي في الشرق. إن الحلول المنشودة حاليًا لا تعدو أن تكون مسكنات حققت نجاحًا مؤقتًا ومتواضعًا؛ ونتج عنها في حالات أخرى تفاقم المعاناة والوحشية. إن الشرور تُجتث بإزالة أسبابها لا بقمع أعراضها. ورغم ذلك ففي القاهرة عبيد سعداء بحياتهم على نحو كبير. تناولت الطعام يومًا ما بصحبة رجل إنجليزي أشار إلى سوداني كان يقوم على خدمتنا قائلا:

«ها هو أحد ثمار إلغاء تجارة الرقيق في مصر.»

«هل حررته؟»

«كلا... لقد اشتريته، فالتجارة مستمرة بالطبع.»

«لكن يُهيأ لي أنك تعطيه أجرًا؟»

«لا...»، أجاب مضيفي مردفًا: «ما فائدة المال؟ في البداية اعتدت فعل ذلك، لكنه لا يعرف ماذا يفعل به.»

«لكن يمكنه طلب حريته إذا أراد، أليس كذلك؟»

«أجل... ثم ماذا بعد؟ سوف يتضور جوعًا. لا يجرؤ شخص على أخذ عبد هارب خوفا من استعداء سيده. لقد أخليت سبيله مرتين أو ثلاثة من قبل، بيد أنه كان يؤوب دائمًا ويجثو على ركبتيه متوسلاً لكي يعود للعبودية.»

صرنا الآن في خضم ريح الخماسين المقيتة. لجأت من وقت لآخر إلى «الدهبيات» الراسيات على صفحة النيل في محاولة للتغلب على الحرارة، لكن دون طائل فلا راحة في هذه الأجواء المصفرة التي لا تُطاق ولا تُحتمل. غادر معظم الزائرين بطبيعة الحال؛ وندر وجود الإنجليز في القاهرة. اعتاد الاثنان أو الثلاثة الباقون اللقاء من حين لآخر في القنصلية للعب التنس على الملاعب الخضراء أو تلك التي تُخلط تربتها بالرمال ثم تُمهد.(١٦١) اكتشفت أن لعب مباراة تنس حماسية في أجواء شديدة الحرارة أفضل من الوقوف دون حراك في الشمس الخطرة. يستطيع المرء اللعب في الشمس الضارية دون أن يُصاب بأذى. عادة ما كانت المباريات تنتهي مباشرة بلبس العمامة والركون إلى بقعة من الظل. في البداية سبب مضربي حيرة كبيرة للمصريين في القصر؛ وهداهم تفكيرهم ففسروه على أنه نوع شديد الغرابة حقًا من الآلات الموسيقية أو «مؤذن الشيطان «.(١٦٢)

(١٦١)الملاعب الحمراء. (المترجمان)

(١٦٢)الاسم الذي أعطاه النبي لأي آلة موسيقية حيث أنها من عمل الشيطان. (المؤلف) قال ابن أبي الدنيا في كتاب مصائد الشيطان وحيله: حدثنا أبو بكر التميمي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب حدثنا ابن زعر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيمًا فاجعل لي بيتا، قال الحمام، قال فاجعل لي مجلسًا، قال الأسواق ومجامع الطرق، قال فاجعل لي طعامًا، قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه، قال فاجعل لي شرابًا، قال كل مسكر، قال فاجعل لي مؤذنا، قال المزمار، قال اجعل لي قرآنًا، قال الشعر، قال اجعل لي كتابًا، قال الوشم، قال اجعل لي حديثًا، قال الكذب، قال اجعل لي رسلاً، قال الكهنة، قال اجعل لي مصائد، قال النساء.» (المترجمان)

أصبحت الآن ضيفًا معتادًا على مائدة الخديوي وبدأت أعرف أشياء عن أفكار الباشوات حول الموضوعات المتعلقة بالأخلاق والسياسة. تنبه الأتراك جيدًا إلى خطر صعود الليبراليين(١٦٣) لمقاليد الحكم لأن هذا يعني التنازل عن القسطنطينية لصالح روسيا. وعلى النقيض ففي مصر وجد القائمون على أمر البلاد السلوى والعزاء في الفكرة التي تقضي بأن الليبراليين ليسوا معنيين بإقحام أنفسهم في السياسة الخارجية؛ ومن ثم فقد كانوا متأكدين أن مصر ستبقى بمنأى عنهم. لكن «سرعان ما زالت الغشاوة من على أعينهم وتحرروا من أوهامهم.»(١٦٤)

في كل هذه الأمور بدا لي الخديوي فطنًا إلى أبعد الحدود وملمًا بما يجري ولا يُقارن بخاصته الذين كرهوا إنجلترا وأساءوا إليها لخيانتها تركيا في الحرب الأخيرة.(١٦٥) كانوا على قناعة لا تتزعزع أن تركيا دخلت هذه الحرب بناءً على نصيحة إنجلترا ووعدها بتقديم المساعدة، لكن الأخيرة نفضت يدها وخانت العهد. لم يشعر رجال الحاشية بالراحة تجاه التأثير الإنجليزي في مصر؛ ولم يستسيغوا إقدام الخديوي على تعلم اللغة الإنجليزية والتحدث بها؛ لقد شعروا بالغيرة أيضًا تجاهي. لقد كنت على يقين أن وراء كلماتهم الرقيقة والمعسولة أيادي مناوئة لي؛ وأن المؤامرات تُحاك في كل ثنية من ثنايا القصر لتُمسك بزلات اللسان وهفوات الأفعال؛ وكان هذا الإدراك من شأنه فقط زيادة دائرة الاهتمام بموقعي ومقامي.

(١٦٣) يقصد بتلر الليبراليين الإنجليز بزعامة جلادستون. (المترجمان)

(١٦٤) ترجمة للبيت nescia mens hominum fati sortisque future الذي يُنسب للشاعر الروماني «فيرجيل» Virgil ٧٠ ق.م – ١٩ ق.م (المترجمان)

(١٦٥) الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨ التي حسمتها روسيا لصالحها. (المترجمان)

انصرمت أربعة أشهر الآن على قدومي مصر وبدأت أتساءل عن ما ينبغي عليّ فعله مع تلاميذي عندما أرسل لي الخديوي يومًا قائلاً: «سوف يبدأ الأميران دروسهما باكرًا. إنهما بعد صغيران؛ ودرجة الحرارة مرتفعة؛ لذا يكفي خمسة عشر دقيقة في اليوم.» وعليه فقد قدمني في صباح اليوم التالي للأميرين الصغيرين مرافق شركسي ودود يُدعى «علي بيك». أدركت من النظرة الأولي استحالة أن تجد أطفالاً أكثر لطفًا وسحرًا وجاذبية. كان الكبير، عباس، في السادسة من عمره؛ والصغير، محمد علي، في الخامسة. كانت تقاطيعهم أوروبية بطبيعة الحال:(١٦٦) وجهان جميلان مشرقان وسلوك يأخذ بالألباب. كان عباس مميزًا في ولعه بالنظام والترتيب؛ أما محمد علي فكان مغرمًا بالمقالب حتى أني سرعان ما دعوته «بالعفريت الصغير». كان كلاهما يتمتع بقدرات طيبة؛ وكان التدريس لهما متعة حقيقية.

بالرغم مما سبق، وبالرغم من أن حضور الشركسي للدروس كان محببًا ولا يسبب إزعاجًا، إلا أن الشيء الذي أرقني ولم أستسغه هو وجود الخادمين الأسودين الذين وقفا يرصدان كل حركة ويفغران فاهما عند سماع الكلمات التي يجهلاها. في اليوم الأول لم أقل شيئًا، لكن في اليوم الثاني ومع هذه التحديق السخيف والأسلوب الساذج من جانب الحارسين لم أستطع تحمل أكثر من ذلك فقلت بعربية حازمة: «اعملا معروفًا وامكثا بالخارج.» نزلت كلماتي على الحارسين كالصاعقة، لكنهما استجابا دون تأخير. في المساء أخبرت الخديوي بما بدر مني فوافقني الرأي وأمر ألا يتواجد أي حراس في المستقبل.

ناهيك عن المتعة التي أضيفت إلى يومي بالتدريس لتلميذي الصغيرين المبهجين غدت حياتي الآن زاخرة بالأحداث والإثارة. أصبح لدي وسائل

(١٦٦) الإشارة هنا للأصول الأوربية للأسرة العلوية. (المترجمان)

تمكنني من معرفة ما يجري، وصار فهمي للمخاوف والطموحات الخفية التي تسود القصر أعمق مما يتخيله الباشوت. في يوم من الأيام دخلوا في مناقشة مطولة حول مستقبل مصر المحتمل عقب سقوط تركيا الذي توقعه الجميع. لم أكن حاضرًا، لكن يمكنني أن أحصُر أسماء من رأوا أن ضم إنجلترا لمصر أمر حتمي؛ ومن قالوا بأنه عقب انفصال مصر عن تركيا سوف تبقى على الحياد تحت الحماية الأوربية تمامًا مثل بلجيكا. كان البت بين كلا الخيارين هو قضية الساعة وشغلها الشاغل؛ كانت هذه القضية جلية ومُستوعبة عام ١٨٨٠بشكل يدعو إلى العجب.

أثار وصول قافلة العبيد إلى أسيوط انزعاجًا كبيرًا. صِدقا كان الخديوي أكثر الناس ضيقًا بهذا الأمر. كلما ازدادت معرفتي بجنابه كلما بهرني مقته الأكيد لتجارة الرقيق. عُين الكونت «صالا»[١٦٧] آنفًا على رأس مفوضية لمجابهة تجارة الرقيق في مصر. كان مقر المفوضية في أسيوط، لكنها تمارس عملها في شتى الأماكن نظرًا لوجود قوة عسكرية تتألف من خمسمائة خيال تحت إمرة الكونت. أراد أهل البلد أن يترأس المفوضية واحد منهم، لكن لو تم لهم ما أرادوا لحولها هذا الشخص إلى مكتب رشاوى وجنى أرباحًا عن طريق إجازة الممارسات التي يتقاضى أجرًا لمنعها. هذه إحدى أهم الوسائل المعروفة لتحقيق الثراء في مصر.

على أي حال انتهت فضيحة قافلة العبيد في أسيوط بشكل ودي بأن تم جلب تسعين من أصل مئة عبد إلى القاهرة وإطلاق سراحهم. أما تجار الرقيق فقد عمدوا إلى الوشاية بأترابهم بغية الحصول على مكافآت بعد أن ضاعت

(١٦٧) Count Edward Della Sala شخص إيطالي رفيع القدر والمستوى، خدم آنفا مع الجيش النمساوي. (المترجمان)

منهم المكاسب المُؤملة من جراء بيع العبيد. لدى المهربين على السواحل أسلوب مشابه نسبيًا. إذا وجدوا أنه من الصعوبة بمكان تمرير شحنة «توباكو» مثلاً فإنهم يعمدون إلى الاتفاق مع أشخاص منهم ليفشوا سر البضاعة لضباط الجمارك. يتم مصادرة التوباكو فورًا ويُجزل العطاء للمبلغين؛ بل ويمكنهم أيضًا- بوجه عام - شراء البضاعة المصادرة بسعر أقل من سعر السوق، ومن ثم يحصلون على الربح مضاعف.

في العشرين من شهر مايو نزل «اللورد ريبون»(١٦٨) الإسكندرية في طريقه إلى الهند مصطحبًا العقيد جوردون كسكرتيره الخاص. يبدو أن جوردون عرف عن طريق الصحف بأمر قافلة الرقيق بأسيوط؛ ومن ثم فقد حرر خطابًا من الإسكندرية إلى الخديوي جاء فيه: « لا أنا ولا الشعب الإنجليزي نحبك. إنهم يحبون سلطان زنجبار(١٦٩) وملك أثيوبيا أكثر منك لأنك تشجع تجارة الرقيق.»(١٧٠) كان الخطاب جائرًا بالطبع. في طريقه برًا إلى السويس عرف جوردون حقيقة القضية وأن الخديوي أقال مدير أسيوط ومنح صلاحيات كاملة إلى الكونت «صالا» ليجفف منابع النخاسة وأنه شخصيًا مناوئ لها بكل ما أُوتي من سبل؛ وعليه فقد كتب جوردون للخديوي من جديد، هذه المرة من السويس قائلاً: «كنت مخطئًا بالأمس فيما كتبته لك. عرفت الآن ما قمت به، وأحبك كثيرًا.» كان المسئولون في مصر يرون جوردون شخصية مثيرة للمتاعب؛ ولم يستطيعوا أبدًا فهمها.

(١٦٨) George Robinson (Lord Ripon) ١٨٢٧- ١٩٠٩، سياسي بريطاني ليبرالي عُين حاكما عاما على الهند من قبل رئيس الوزراء البريطاني "جلادستون" الفترة من ١٨٨٠- ١٨٨٤. (المترجمان)

(١٦٩) Zanzibar اسم يطلق على مجموعة جزر واقعة بالمحيط الهندي تابعة لتنزانيا في شرق أفريقيا. (المترجمان)

(١٧٠) كان جوردون قد حارب تجارة الرقيق في الفترة التي مكثها في أفريقيا في عهد الخديوي إسماعيل. (المترجمان)

بعد أربعة أيام من مغادرة جوردون انتشر على الألسنة غمز ولمز حول الزوبعة التي كان من شأنها أن تهز مصر لفترة مقبلة. سرت شائعة خارج البلاد عن مؤامرة لذبح كل المسيحيين في القاهرة. كان القنصل الإنجليزي السيد «ماليت» هو من وجه نظر الخديوي لهذه االشائعات. وفيما يلي حقيقة القصة. بعث بعض الرجال ممن يعملون لنصف الوقت في الجيش خطابًا تغلب عليه لهجة التهديد إلى ناظر الحربية(١٧١) أوضحوا فيه أنهم يعملون دوام كامل ويتقاضون راتب نصف دوام فقط؛ وأن المعاشات والمتأخرات لم تُصرف لهم؛ وأن هناك تفرقة بين الأوروبيين وأبناء البلد حيث يحظى الأوروبيون بمعاملة طيبة ويتسلمون رواتبهم بانتظام؛ وأنه لو تم تجاهل هذه المظالم فسوف يحتكمون إلى السيف. انقضت فترة ولم يؤت الخطاب أُكله، لكن عواقبه كانت قصف الإسكندرية واحتلال الإنجليز للقاهرة وخروج الخرطوم عن الطاعة ومقتل جوردون؛ ومازالت المآسي مستمرة.

لاحظت تلك الليلة -وأنا في طريقي من قصر الإسماعيلية إلى قصر عابدين حيث أقيم - وجود الدوريات والحراسات في الشوارع؛ واستمر هذا الوضع أيضًا حتى مساء اليوم التالي عندما كنت عائدًا من دعوة لتناول العشاء في بيت السيد "L----". أما السيد المذكور فهو رجل هندي متقدم في السن يتمتع بشخصية خلابة؛ ولديه الكثير ليسرده من قصص التمرد وحكايات النمور. قابلت طرف السيد «L» موظفًا حكوميًا تم تكليفه للتحقق من دفع ضريبة الأراضي. اكتشف الرجل- والعهدة عليه- أن العديد من أصحاب العزب والوسيات لم يدفعوا فلسًا لسنوات خلت. لم يستطع لا هو ولا التاج سوى

(١٧١) كانت تُسمى أيضًا «الجهادية»، والشخص المقصود هنا هو عثمان رفقي باشا وكان شركسيًا. (المترجمان)

تحصيل قيمة أربعة سنوات فقط وسقط الباقي بالتقادم طبقًا لتوصيف الحالة في القانون المصري؛ ومن ثم دفع مدير طنطا مثلا تسعمائة ليرة بحد أقصى. من الشائع أن يقوم الأثرياء الذين يطمعون في ضم أراضي الفقراء المتاخمة لحيازتهم بالضغط عليهم لتوقيع صك نقل ملكية أو أن يقوموا بوضع أيديهم عليها عنوة؛ لكن جورهم وتعسفهم لا يخلو من رقة فهم يتركون للفلاحين المسلوبة أراضيهم مهمة دفع الضرائب![١٧٢] يلجأ شق من هؤلاء المدراء إلى الكرابيج والعصى ضد الفلاحين بوحشية وهمجية تفوق الوصف والخيال. هذا الأمر مُحرم ومُجرم على المستوى الرسمي؛ على المستوى الشخصي قد يكون ضروريًا إلى حد ما؛ أما في الخفاء فيُساء استعماله بشكل مرعب!

أرسل الخديوي برقية تهنئة إلى ملكة إنجلترا في عيد ميلادها، وردت الملكية بخط يدها معربة عن شكرها. أحس الخديوي بالإطراء جراء هذه اللافتة الطيبة، كما شعر رجال الحاشية بعظيم الشرف لذلك.

يسمع المرء روايات كثيرة في بر مصر فيصبح حذرًا في تصديق أي منها. دعوني أسرد حكاية بنك ----- كما قُصت على مسامعي. كان هناك موظف صغير يعمل في أحد المصارف (سيحمل البنك الكبير موضع الحديث اسمه فيما بعد.)[١٧٣] جاءه عميل تبين أنه أحد الباشوات فاحشي الثراء؛ وكان على وشك القيام برحلة إلى اسطنبول ليقضي هناك ما تبقى من الصيف. ولأن الباشا سيكون بحاجة إلى المال من حين لآخر فقد سأل الموظف عن إمكانية إرسال المبالغ المطلوبة له. رد الأخير: «بكل تأكيد، لكن من الأفضل - تجنبًا للمتاعب- أن تترك لي بعض أذون السحب الموقعة على بياض. كلما احتجت للمال أرسل

(١٧٢)يستخدم بتلر أسلوب السخرية اللاذعة في هذا الموضع Ironical. (المترجمان)

(١٧٣) البنوك الوطنية المتواجدة في ذاك الوقت هي «قطاوي» و«سوارس». (المترجمان)

برقية؛ وسوف أقوم بملأ النموذج ومن ثم يمكنك الصرف من القسطنطينية.»[١٧٤] سارت الأمور على ما يرام لمدة بعض الأسابيع حُررت فيها النماذج وأرسل المال اللازم في حينه حتى وصلت برقية عاجلة لموظف البنك من فرع القسطنطينية تفيد بموت الباشا. وعليه فقد قام موظف البنك في التو والحال بملأ الأذون المتبقية في حوزته بمبالغ هائلة وحصل على صحة التوقيع وانتهى الأمر بسحب المبالغ من حسابات الباشا تاركًا الفتات لورثته.

أسوق الآن قصة جريمة سرقة أخرى مضت دون عقاب، بطلها هذه المرة موظف في الإسكندرية يتبع دولة أوروبية. في الحقيقة لم يبدأ الرجل حياته موظفًا؛ ولم يكن حتى أوروبيًا، بل مجرد مقرض صغير تعود أصوله إلى الشام. يملك هذا الشامي الآن ثروة طائلة أصابها كما يلي. كان تضخم الثروات في عهد الخديوي إسماعيل أمرًا يجر الويل والثبور على أصحابها. توجس أحد الباشوات خيفة وشعر بالقلق على ممتلكاته فهداه تفكيره إلى إبرام عقد - على الورق فقط- مع المقرض الشامي. بموجب الاتفاق يحرر الباشا صك هبة بأمواله للشامي؛ وفي المقابل يوقع الأخير على وثيقة مذيلة بتاريخ لاحق لصك الهبة تنص على إلغائه وعدميته. أراد الباشا بهذه الوثيقة تأمين نفسه حيال أي محاولة للخداع أو التدليس. تم الاتفاق أن يبقى الأمر برمته في طي الكتمان ووافق الباشا على دفع نسبة ثابتة من دخل ضياعه وعوائد ممتلكاته للشامي مقابل إدارته لها. لم ينقضي وقت طويل على إبرام الصفقة حتى أخذ الردى الباشا فجأة في إحدى الليالي تماما كما يموت الأثرياء في الشرق فمعدتهم رقيقة إلى حد أن قدح من القهوة

(١٧٤) أغلب الظن أن الموظف كان يعمل في البنك «الإمبراطوري العثماني» الذي أنشا في عهد الخديوي إسماعيل حوالي عام ١٨٦٣. (المترجمان)

قد يحمل معه الهلاك.[١٧٥] فور علمه بالخبر أسرع المرابي الخطى إلى قصر الباشا؛ ورسم خطة للحصول على وثيقة الإلغاء. لم يجد الرجل صعوبة في الاهتداء إليها لأنه كان على علم بمكانها؛ ثم قام بحرقها. بعد ذلك قام المرابي بإظهار صك الهبة في وجه أسرة الباشا وطالب «بحقوقه» أمام المحاكم. ونظرًا لثرائه ومهارته وفضيلته[١٧٦] فقد عُني في وظيفة مرموقة ومُنح لقب «نبيل» من قبل إحدى الممالك الأوروبية!

في يوم من الأيام تسبب مكتوب أرسله للخديوي شخص مخبول من إنجلترا في شيوع جو من التسلية والمتعة في أرجاء البلاط. أطلق الرجل الفقير على نفسه في إحدى فقرات الخطاب «الروح المقدسة» وفي فقرة أخرى «ملك إنجلترا». أخبر الرجل الخديوي أنه أتى ليعلن ملكوته على مصر وأفريقيا والهند وكل أقطار الشرق. في واقع الأمر أخذ بعض رجال الحاشية التحذير على محمل الجد، لكنهم أبدوا انزعاجهم الشديد من مسألة النزاعات الخارجية. سيطرت على عقولهم لفترة مخاوف من نشوب حرب مع الحبشة، لكن جلتها تبددت بعد أن بعثت ملكة إنجلترا خطابًا للملك «جون»[١٧٧] الذي أعلن بعد تلقيه الرسالة أنه لن يدخل مجددًا في صراع مع مصر.

تسببت مقالة متجنية نشرتها صحيفة «التايمز»[١٧٨] حول إحياء تجارة الرقيق في تكدير صفو الخديوي بشكل كبير. وإحقاقًا للحق أجد لزامًا عليّ القول أن المقالة لم تتحر الدقة تمامًا فيما أوردت من بيانات الأمر الذي أفضى

(١٧٥)نعتقد أن أسلوب بتلر في هذا الموضع يغلب عليه التهكم Sarcastic لأن الحقيقة مغايرة لذلك. (المترجمان)

(١٧٦)يلجأ المؤلف للأسلوب الساخر في هذا الموضع أيضًا. (المترجمان)

(١٧٧) King John, Yohannes IV، يوحنا الرابع، ملك أثيوبيا ١٨٣٧-١٨٨٩. (المترجمان)

(١٧٨) The Times.

بها إلى استنتاجات جانبها الصواب. لقد جاهد توفيق بإخلاص حقيقي لإبطال الرق بالرغم من صعوبة هذه المهمة. لم يرق الإصلاح لمعظم الناس في مصر وكذا الباشوات في البلاط. بدوري كنت الوحيد الذي استثمر أي فرصة لحث الخديوي على المضي قدمًا في هذا الدرب رغم قلة التقدير لجنابه في إنجلترا؛ وكان هذا الأمر كفيلاً بأن يثبط همة أكثر الناس عزمًا وحماسًا.

تطرق الحديث على موائد العشاء بصحبة الخديوي إلى موضوعات شيقة عن الجيش المصري والبحرية وعن الأخبار الواردة من القسطنطينية حيث تم إرسال السيد جوشن[١٧٩] في مهمة عمل. مؤخرًا تسلم الخديوي خطابًا يفيد بأن السلطان دأب على الدفع برئيس المراسم يوميًا إلى السيد جوشن ليطالبه بتلطيف التصريحات العامة التي تسيء بشدة إلى إسطنبول. تحدث جنابه أيضًا عن نفي شاهين باشا الذي أُجبر على مغادرة مصر بلا عودة. بدأ الرجل حياته بائعًا للكعك في الشوارع، لكنه – وعلى غرار ما يحدث في ألف ليلة وليلة- نال الحظوة في عين الخديوي إسماعيل الأمر الذي مكنه من جمع ثروة تُقدر بمائة ألف ليرة، عدا الضياع والأراضي الواسعة. يعيش هذا الرجل الآن في منفاه بعد تورطه في التآمر ضد عاهله. وبالحديث عن المنفى أخبرني الخديوي أن الوالي إسماعيل امتلك – من واقع السجلات التي خلفها - ما لا يقل عن سبعمائة من العبيد تركهم ومضى إلى حيث هو الآن. دأب والده كما يبدو على رشوة مسئولي السكك الحديدية ببولاق الدكرور بمبالغ تتراوح بين مائتين وأربعمائة ليرة نظير نقل الرقيق سرًا إلى القاهرة، ثم إلى قصوره. ضمت شحنة واحدة مئة من الفتيات تم إخفائهن لدى طائفة من العجائز قبل نقلهن خلسة إلى حيث يقيم الباشا الكبير. أما القصة التالية فقد سردها توفيق من معلوماته الشخصية،

(١٧٩) George Joachim Goschen، ١٨٣١-١٩٠٧، سياسي إنجليزي. (المترجمان)

ومفادها أن إسماعيل دفع خمسة وعشرين ألفا ليرة في جارية شركسية صارخة الجمال. هذا هو الرجل الذي أوهم إنجلترا وأوروبا بأنه ينشد إبطال الرق. في واقع الأمر لقد أراد أن يبدو كمصلح يدعو للتنوير وأجاد في أداء دوره على المسرح بشكل يدعو للإعجاب، لكنه كان طاغية وصائدًا للعبيد خلف الستار.

حين تحولت دفة الحديث بعد ذلك إلى الضرائب التي يدفعها الفلاحون، تجرأت على إخبار الخديوي أن بعض الشيوخ والمدراء اعتادوا الاستيلاء على الأرضي وإجبار الملاك على التنازل عنها. اعترف الخديوي بوقوع هذه الأشياء حتى وقت قريب، لكنه أضاف أن هذه التجاوزات توقفت الآن بفضل النظام الجديد الذي أعفى الفلاحين من ضرائب كثيرة أثقلت كاهلهم؛ زد على ذلك أنه حدد بوضوح شديد المقدار المطلوب من كل فرد؛ وبذلك أمن الفلاحون شر الكشاف وابتزاز الجباة. عرج الخديوي على قصة رجل إنجليزي شقي اعتنق الإسلام. أقام الرجل بالقرب من القاهرة في هناء وحبور بفضل ممتلكات معتبرة كان حريصًا على اقتنائها هو ونسائه الأربعة السذج. امتنع هذا الوقح عن دفع الضرائب حتى أتاه المحتسب وطالبه بألفي ليرة متأخرات وإلا تم الحجز على الأرض. امتثل الرجل بالطبع. أعرف اسم هذا المخلوق، لكني آثرت أن أحتفظ به لنفسي.

جرت كل هذه المحادثات باللغة الإنجليزية؛ ولم يفهمها عداي وتورابي. إذا حدث وتطرق الخديوي إلى أسماء قد تفضح منحى الكلام كان جنابه يلجأ إلى هجاء حروفها أو الحرفين الأولين منها للتمويه على الباشوات الذين جلسوا متجهمين في صمت مطبق وكأن على وجوههم الطير. أخشى أن ما اختلج في قلوبهم من مشاعر نحوي لم يكن شيئًا طيبًا. بعد مرور يوم أو اثنين نشبت مجادلة

أخرى في حدائق القصر حول مستقبل مصر. قال تورابي إنه يتوقع سقوط الإمبراطورية التركية «لا قدر الله»؛ وأن إنجلترا لن تجد بُدًا من الاستيلاء على مصر لأنها مفتاح الطريق إلى الهند. أشعلت هذه الخاطرة غضب سليم باشا. احتج تونينو بأسلوب معتدل، أما شماشيرجي(١٨٠) الخديوي وهو رجل كبير القدر فاحش الثراء فقد كال السباب لها. نُقلت أخبار هذه المناقشة المحتدمة إلى الخديوي شأنها في ذلك شأن المحادثات الأخرى، لكن مع بعض التعديلات؛ فمثلا صُور تورابي المسكين وهو يبتهل ويتضرع لله ليُسرع بإسقاط تركيا واحتلال البريطانيين للقاهرة. على العشاء لام الخديوي تورابي لإفصاحه عن هذه المشاعر. أنكر تورابي التهمة غاضبًا، ثم روى القصة كما وقعت مخاطبًا الخديوي على الملأ: «يمكن لجلالتك أن تتبين من هذه الضلالات المقيتة طبيعة الأشخاص الذين يحيطون بك. لقد ألحقت مكائدهم وكذبهم الأذى بوالدك؛ وما زلوا على ما هم عليه من دسائس وافتراءات.» حملق البَاشَوات في الأطباق وقد استولت عليهم الدهشة جراء قوة ألفاظ تورابي الذي استمر مردفًا: «أنا خادم جلالتك المخلص وعلى استعداد للتضحية بحياتي من أجلك، لكني لا أقبل أن تُشوه سمعتي. إذا كان جلالتك تُصدق هؤلاء الناس فأنا عديم الجدوى لعظمتك، وسوف أترك خدمتك وأرحل.» أجاب الخديوي ببساطة: «لا أصدقهم.»

علا الآن الطنين في خلية النحل الذي أحاط به البَاشَوات بعد أن اخترقه دبور في صورة مشروع رأوا أنه سيجردهم من العسل. أخذ السيد ----- يزن في أذن السلطات بشكل يومي ليبيعوه أراضي الدائرة السنية أو يؤجروها له لفترة طويلة الأمد.(١٨١) عرضت شركة إنجليزية أخذها وزراعتها مع دفع إيجار

---

(١٨٠) Valet de Chambre، اللبيس. (المترجمان)

(١٨١) الأراضي التي يملكها الخديوي. (المترجمان)

سنوي ثابت يفوق بمراحل ريعها تحت الإدارة الوطنية. هاج البَاشَوات وماجوا بسبب هذه العروض مرددين أن احتلال الهند إنما مهدت له شركة.(١٨٢) ظل الفرنسيون على أعصابهم وفي مقدمتهم القنصل العام؛ ودفعوا بقوة في اتجاه إعاقة هذا المشروع والتصدي له. على الجانب المقابل أخذ السيد ماليت(١٨٣) والرائد بارنج(١٨٤) يحثان الخديوي لإجازته. سرعان ما صرحت صحيفة لندنية يُشار لها بالبنان بأن «شخصية مرموقة مارست ضغوطًا دبلوماسية» على الخديوي لصالح الشركة، لكن جريدة رائدة أخرى كذبت هذه التصريح بشكل رسمي لا يخلو من السطحية. إن ما طرحته هنا هو الحقيقة؛ وقد باء المخطط بالفشل.

أقيم في الثامن عشر من يونيو استقبالاً في قصر عابدين احتفالا بعيد ميلاد الخديوي والذي وافق ذاك اليوم.(١٨٥) قضيت ساعتني في غرف الانتظار أشاهد وصول الناس: أهل البلد، أوروبيين، شاميين وآسيويين وقد تقاطروا بسرعة كبيرة! كان بعضهم غريب جدًا. عندما تم الانتهاء من تقديم كل الزائرين صعِدوا إلى القاعة الرسمية حيث مروا في صف طويل أمام الخديوي وهم ينحنون ويحيون.

ذهبت بعد مرور بضع أيام إلى أهرامات الجيزة وكلي شغف أن أشاهد الهيئة التي تبدو عليها في منتصف صيف مصر المتألق. لاحظت في طريقي أن السهول الفسيحة قد غدت جرداء وسوداء بعد أن كانت زاخرة بالبرسيم والذرة في الشتاء. يبست الأرض المتعطشة للمياه وجرت فيها فلوق وشروخ كبيرة

(١٨٢) شركة الهند الشرقية. (المترجمان)

(١٨٣) Sir Edward Baldwin Malet ، ١٨٣٧-١٩٠٨، القنصل العام البريطاني في مصر. (المترجمان)

(١٨٤) Major Evelyn Baring، لورد كرومر فيما بعد، ١٨٤١-١٩١٧. (المترجمان)

(١٨٥) اختلف المؤرخون في إثبات تاريخ ميلاد توفيق فمنهم من ذهب إلى أنه وافق الثلاثين من إبريل ومنهم من قال أنه كان منتصف شهر نوفمبر؛ وهنا يقدم لنا بتلر تاريخًا ثالثًا. (المترجمان)

ترنو للحظة الارتواء من مياه النيل التي بدأت في الزيادة.[١٨٦] كان القرويون منهمكين في درس الحنطة[١٨٧] وذر الحب بأسلوب بدائي. تتم عملية الحصاد باستخدام ثورين يجران نورجًا في حركة دائرية فوق الغلة المضمومة فتنفصل الحبوب عن سنابلها؛ ثم يُطوح بعيدان القش في الهواء عكس الريح فتسقط الحنطة أكواما في زمام المكان.

كان مرافقي رجلاً يونانيًا يتمتع بالمهارة ونبل الأخلاق. اقترحت أن نتسلق الهرم الأكبر ونرى الغروب من عليه، ثم نتناول عشاءنا. بدأنا بزيارة أبي الهول والممر المعبد الذي كانت تجري به حفريات، ثم تسلقنا الهرم فوصلنا قمته في السابعة. كانت الشمس تدنو من خط الأفق، لكن القمر كان خارج مكمنه جهة الشرق. غربت الشمس مخلفة مسوحًا من الألوان الزاهية. بدأ الظلام يتسلل فتشعر وكأنه امتزج بالسهول. اشرأب البدر فوق طوقين عريضين من اللونين الأرجواني الداكن والقرمزي الملطخ ببقع بنفسجية. بهتت زرقة السماء فوق رؤوسنا فصارت خافتة، بينما توردت الألوان الذهبية في الغرب حتى تلاشت تدريجيًا. لا أجد كلمات تصف طبيعة هذه الألوان؛ ولا يراها المرء إلا في صيف مصر الذي تمضي أيامه ولياليه بدون قطعة واحدة من السحب، أو شبورة أو ضباب بطبيعة الحال. مضت ست أسابيع - حسبما أتذكر - ولم ألمح سحبًا في الأفق أو أتملل من هذه السماوات الصافية.

بينما كنا في نشوة الغروب انشغل الأعراب بإعداد العشاء الذي تم صونه من التلف بفضل قطعة كبيرة من الثلج. اعترف العربان الخمسة أنهم لم يروا هذا الشيء من قبل. عندما أطاح الهواء بالملح الذي جلبناه عرض أحد البدو

(١٨٦) يبدأ النيل في الزيادة في الخامس من بؤنة، وهو شهر قبطي يوافق حزيران، يونيو. (المترجمان)
(١٨٧) دريس القمح، هذا ويبدأ ضم الغلة في أواخر شهر مايو في الوجه البحري. (المترجمان)

أن يُسرع الخطى أسفل الهضبة ليحضر المزيد منه. قالها ببساطة تعدل نزول خادم إنجليزي سلالم أحد المنازل. بعد تناول العشاء استلقينا على ظهورنا ونحن ندخن ونشخص إلى السماء ونتجاذب أطراف الحديث مع العرب. لقد كان كلامهم مزعجًا في بعض الأحايين. كنت أتأمل المشهد في صمت مهيب وأمسح بعيني السماوات والأفق الرحيب والصحراء المقمرة؛ وأتدبر في الهيئة التي بدا عليها هرم خوفو تلك الليلة وقد انزوى ضلع منه في ظلال شاحبة بينما لمع الضلعان الآخران كالفضة المتألقة؛ وأتذكر الحكايات الغريبة التي أوردها هيرودوت عن تشييده وعن بناته؛[١٨٨] لذا بدا حديث البدو مضجرًا وصخبًا من التنافر والتشويش.[١٨٩] سرعان ما أفلتت تخيلاتنا السامية بسبب هذا اللغو وتلك الثرثرة. على أي حال أجمعنا ونحن نشد الرحال أن أفضل الأوقات لمشاهدة الأهرامات هي ليالي الصيف التي يكتمل فيها القمر.

في طريق إيابنا حدثني مرافقي، الباحث اليوناني، عن أسطورة حشرة «الزيز»[١٩٠] الغريبة التي يتوارثها ويؤمن بها الأثينيون أمثاله على أقل تقدير. يتخذ ذكر الزيز لنفسه ست أو سبع زوجات. تقوم كل واحدة منهن بعمل حفرة صغيرة في الثرى، ثم تدلف فيها تاركة رأسها فقط ناتئا على وجه الأرض؛ وتبدأ في وضع البيض. عندما يتأكد سيدهن من وضعهن جميعًا للبيض بشكل

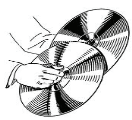
(١٨٨) منها أن الكهنة كانوا يرفعون المعادن عن الأرض بمجرد الإشارة إليها؛ ومنها أن الأهرامات بنيت بالسخرة ومن أموال الدعارة التي كانت تُدفع لبنت الملك خوفو. (المترجمان)

(١٨٩) يورد بتلر في هذا الموضع بعض الكلمات الإنجليزية التي يصدح بها المجاذيب الهائمون على وجوههم؛ وهي - وإن صُفت في قافية- لكنها ليس لها معنى؛ وتشبه بالعربية «حادي بادي كرنب زبادي»؛ وفيما يلي نص الكلمات: Higgery diggery dugk,/ De mousenup de clugk,/ De clugk street one,/ And den come down run up!

(١٩٠) Cicala or Cicada (Tettix) in Greek، وتُسمى أيضا «زيز الحصاد». (المترجمان)

سليم يتنقل بينهن ويقوم بفصل رؤوسهن عن أجسادهن عن طريق العض بينما يبقى الجسم في الحفرة لتتغذى عليه الذرية بعد فقس البيض.

في السادس والعشرين من شهر يونيو أُقيمت مأدبة عظيمة بمناسبة الذكرى السنوية لجلوس الخديوي على العرش. بدأ الاحتفال في السابعة صباحًا باستقبال في قصر عابدين، وتلاه مرور موكب ضخم للدراويش استمر لأكثر من ساعتين. تشكل الموكب من ما يناهز العشرة آلاف رجل أخذوا في المرور تحت نوافذ القصر بينما كان الخديوي يشاهدهم من أعلى. كان لكل جماعة رايتها وموسيقاها وشيخها؛ وكانت الرايات كبيرة الحجم ومتعددة الألوان وتتصدرها آيات من القرآن. يعتبر الدف والطبلة الآلتين الموسيقيتين الأساسيتين، لكن هناك أيضًا الآلات النحاسية والمزمار والصنج.



امتطى الشيوخ جميعهم أحصنة أو حمير عليها أغطية مزركشة على نحو جميل. أحاط بكل شيخ ستة من مريديه، وتقدمه اثنان آخران يمسكان بسلاسل فضية تتدلى منها مبخرتان راحا يطوحان بهما في الهواء. حمل رجل مجمرة فضية تتصاعد منها أدخنة البخور؛ ومشى بجانبه آخر يحمل طبقًا فضيا عليه بخور خام. أخذ رجلان آخران في رش العطور هنا وهناك من قماقم بحوزتهما؛ ومشى خلفهما رجل آخر يحمل صندوقًا من الفضة يحوي أعشابًا جافة فواحة. في حالات عديدة أيضًا تقدم الركب أحد المريدين وهو يحمل سجادة صلاة الشيخ، أو طابور كامل من المنشدين وهم يرتلون جملاً شعائرية من كتب

بأيديهم. كان صدى الإنشاد الموسيقى رصينًا، لكنه يلزم وتيرة واحدة الأمر الذي قد يبدو معه رتيبًا.

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل سار مع كل جماعة عدد من الرجال يحملون هراوات برؤوس فضية أو صولجانات، ويرتدون أزياءً متفاوتة؛ فمثلا لبس البعض جلابيب ناصعة البياض وأحزمة وعِمَّات خضراء؛ بينما ظهرت عشيرة كاملة في أوشحة وعمم صفراء. لقد كانت كل ألوان الطيف حاضرة، بل وفاقتها فتجد أحد الشيوخ على جواده في جبة برتقالية اللون وقفطان حريري سماوي ووشاح قرمزي حول كتفيه وعمامة بيضاء على رأسه. على حمار خلفه ببردعة حمراء جلس ابنه في جلباب أبيض ووشاح وردي على كتفيه. كان لدى عدد قليل من الشيوخ مظلات، ولم أشاهد أحدًا يدخن. ضم الموكب شخصيات غريبة. رأيت مهرجًا أشعثًا في لباس قرمزي وعباءة كبيرة تجمع بين اللونين الأسود والأخضر، ويتدلى منها أشرطة عُقدت بملابسه. كان يرتدي جنبية،(١٩١) ويحمل بيرقًا بيمناه ومنديلا في يسراه؛ ويمشي بخطوات متدللة ويقوم بحركات مضحكة. لبس آخر طربوشًا مع عباءة من الصوف وكوفية الرهبان؛ وأخذ يمشي بخطوات راقصة. ظهرت بعض العشائر حاسرة الرؤوس؛ وارتدى البعض الآخر قبعات مخروطية الشكل تدلت منها شعورهم حتى وصلت إلى نحورهم. كان البعض حافيًا؛ وحمل آخرون نعالهم الحمراء أو الصفراء في أيديهم. لمعت هنا وهناك الحراب العتيقة وبلط القتال، وأخذ السقاة ينتقلون بين ربوع المكان ومعهم قربهم الجلدية أو جرارهم الموضوعة في شباك قارعين أقداحهم النحاسية بعضها ببعض. كان المشهد عجيبًا، وضم مختلف أعمار المصريين من سبعة أعوام إلى سبعين سنة.

(١٩١) خنجر بغمد وحزام يُلَفُّ حول الخصر. (المترجمان)

بعد أن سلمت على الخديوي ترجلت بين الصفوف محييًا الحرس المصطف حتى قصر الإسماعيلية حيث دونت اسمي في سجل الزيارات طبقًا للأسلوب المتبع في إظهار الاحترام لزوجة الخديوي.

الفصل الخامس

الإسكندرية- قصر يُشرف على البحر- الترف الشرقي- الشماشيرجي- رحلة بحرية- الخديوي ينجو من موت محقق بمعجزة- حفلة في حدائق القصر- موريس بيك- ساحل البحر- نزهة خلوية في الصحراء

كان من عادة الخديوي وحاشيته قضاء جزء من شهور الصيف في الإسكندرية. غالبا ما تاقت نفسي إلى نسمات البحر العليلة حيث أن جناحي في قصر عابدين كان مشمسًا جدًا خلال النهار وخانقًا أثناء الليل.

سُمي المقر الصيفي بالإسكندرية بقصر «رأس التين»[١٩٢] لأنه أُقيم على صخرة شاطئية ناتئة شكلت جزءًا من جزيرة «فاروس»[١٩٣] التي التحمت باليابسة منذ أمد بعيد. القصر عبارة عن بناء محدود العمق، لكن عرضه مُمتد شرقًا وغربًا وتتوسطه أروقة البهو الكبير.[١٩٤] تطل النوافذ البحرية[١٩٥]على حدائق غناء وارفة الظلال بسبب وجود أشجار النخيل والسنط.[١٩٦] أينعت هذه الحدائق بالورود البهية ذات الروائح المميزة التي تتجدد بفعل الجداول والنوافير المنعشة.

(١٩٢) أما سبب تسميته بـ «التين» هو أن القصر أقيم على منطقة كانت مزروعة بالتين. (المترجمان)

(١٩٣)Pharos.

(١٩٤) هذا الوصف ينطبق على القصر الذي بناه محمد علي الكبير عام ١٨٤٥، لكن القصر الحالي أعاد بناءه الملك فؤاد. (المترجمان)

(١٩٥) المقصود «شمالية». (المترجمان)

(١٩٦) الأكاسيا Acacia. (المترجمان)

يُمكن للمرء أن يسمع صوت انكسار الأمواج الرقيقة خلف هذه الحدائق؛ كما يمكنه أن يرى مياه البحر المتوسط بزرقتها البنفسجية. ترقرقت الجدران الجنوبية للقصر واغتسلت بالتيارات المائية الوادعة في الميناء الكبير ذلك الذي تتغير صورته دومًا حيث تصله وتغادره السفن العملاقة، ناهيك عن قوارب أهل البلد الصغيرة التي تنتقل ذهابًا وجيئةً على سطحه اللامع. يخلق كل هذا مُجتمعًا حالة من الشاعرية لا يمكن تخيلها؛ وحين تستشعرها في أعماق وجدانك يُصبح من المستحيل نسيانها.

تبددت هذه الحالة من الرومانسية حين رأيت مسكني. سكنت أنا وتورابي غرفتين صغيرتين منزويتين عن الممر بينهما دهليز. كانت مساحة حجرتي حوالي عشرة أقدام مربعة ولم يكن بها شيء سوى سرير بناموسية وأريكة وحوض اغتسال ومقعد؛ ولا أثر لمنضدة أو خزانة ملابس أو حتى دولاب؛ وخلت كذلك من زمزميه مياه أو قدح للشرب. كانت أرضية الغرفة غير مستوية وفُرشت عليها سجادة بالية. اصفرت الجدران المطلية بالجير وكشف خط التماس بين عوارض السقف الخشبية عن ملمح هين لزرقة السماء. ربما درأت هذه التهوية الطبيعية عني بالرغم من ذلك أذى المرض فالترتيبات الخاصة بدورات المياه كانت لا تُحكى ولا تُوصف. أدركت سبب امتناع خادمي الطيب سليمان عن القدوم معي إلى الإسكندرية؛ وكنت قد وجدت صعوبة في فهم فحوى تبرمه من الأماكن المخصصة للإقامة بقصر رأس التين، تلك التي وجدها عبد أسود سيئة فأنى لي أنا بتحملها؟! كدت أنفجر غضبًا فطلبت مقابلة الخديوي، لكني تلقيت ردًا يفيد بأن جنابه مشغول مع الوزراء. منحني ذلك الوقت فرصة لأُهَدِأ من ثائرة نفسي وأفكر مليًا في الأمر. وجدت أن مارتينو وتونينو وأوربيين آخرين ليسوا أفضل حالاً مني؛ وأن غرف القصر تكاد تكون متشابهة، عدا

الأجنحة الملكية التي كانت جد رائعة. إذا أصررت على التذمر فإن الخديوي سيدعني حتمًا أقصد فندقًا في الحي الأوروبي الحار والمضجر. سرعان ما طردت هذه الفكرة من رأسي حين أدركت أن استبدال المناظر الرائعة ونسمات البحر العليلة في رأس التين بجو المدينة الخانق ومنازلها المتراصة البيضاء ليس مطمحًا ولا يُضيف الكثير. لذا قررت أن أخشوشن في القصر معتبرًا روعة البحر وبهاء السماء تعويضًا عن بؤس المأوى وقذارته.

لكن الأمر لم يقتصر على المسكن المُمرض وحسب، فقد كان عليّ أن أتحمل الحياة في البداية دون زاد أقتاد عليه لمدة يومين أو ثلاثة؛ ومن ثم فقد تناولت أنا وتورابي طعامنا في مقهى بالميناء القديم[197] أقيم -على الأرجح- في المكان الذي كان فيه قصر أنطونيو،[198] ويُتيح منظرًا رائعًا لقلعة فاروس[199] التي ترتفع بإباء وشمم فوق مستوى البحر. كانت أسعار الوجبات ممتازة واستمتعنا بالنسائم المنعشة. كان من المقدر لي بعد ذلك أن أتناول طعامي مع شاغري البلاط من ضباط مراسم وتشريفات إلى شماشيرجية وموظفين. رفضت هذا الأمر، وأبلغت الخديوي أنني لست معتادًا على الأكل مع هؤلاء القوم؛ وأني أفضل تناول الوجبات بمفردي في الحجرة كما هو الحال في القاهرة؛ ولو تعذر هذا الأمر فلن أجد غضاضة في تناول الطعام في المدينة مع ما فيه من مشقة؛ وكدأب الخديوي في عطفه وكرمه أعطى سموه التعليمات اللازمة.

لدي من الدلائل ما يرفع اللوم عن الخديوي في كل المعاناة التي مررت بها. إن أي متاعب تعرضت لها لم تكن لتقلل من قدره في عيني. لقد كان الناس حوله

(١٩٧)الميناء الشرقي. (المترجمان)

(١٩٨) يُسمى بقصر تأملات مارك أنطونيو. (المترجمان)

(١٩٩) قلعة قايتباي. (المترجمان)

متعنتين ولا سبيل إلى تقويمهم. كان عليّ أن أكتب دائمًا قائمة باحتياجاتي: مفارش وشاي وخمور وهلم جره... ثم أبعث بها في مظروف إلى باشكاتب السراي. غالبًا كانت تأتيني بعض الأصناف فقط بينما يُوزع الباقي كمجاملات مع الاحتفاظ بالورقة المرسلة كإيصال استلام. عندما تأكدت من هذه الخديعة كتبت ذات مرة بالفرنسية: «يحتاج معلم أبناء الخديوي كذا وكذا؛ وسوف يقوم حال الاستلام الطلب من عظمة جناب الخديوي التكرم بالتوقيع.» جاءني الرد محتويًا على ترجمة قائمة الأصناف بالعربية مشفوعة بطلب التوقيع من قِبلي عليها، أي بمعنى آخر التوقيع على إيصال استلام مُقدمًا؛ فما كان مني إلا أن أرسلت خادمي برسالة شفوية قاطعة مفادها أني لن أوقع قبل أن أتسلم الطلبات؛ وأنها لو لم تصلني فسوف أتوجه مباشرة لجناب الخديوي. نجح هذا الأسلوب وحصلت على الإمدادات دون مزيد من الصخب حتى أصبحت حجرتي في نهاية الأمر أكثر تقبلاً واحتمالا.

دعوني أعطي صورة أخرى لشخصية سكان البلد. ذكرت آنفًا أن الشماشيرجي رجل كبير القدر ويتمتع بقوة الشخصية. لدي قناعة راسخة بأن هذا الشخص - من دون كل رجالات القصر- يأتي بعد الخديوي مباشرة في الأهمية. أغلب الظن أن فريدريك،[٢٠٠] وهو اسمه، سويسري المولد. يُفضل الكثيرون عدم الكلام عنه كثيرًا درءًا للمشاكل. كان الرجل يتحدث الإنجليزية بطلاقة ملحوظة، لكن أسلوبه فظ ومبتذل تمامًا كالطبقات الدنيا في لندن؛ كما كان يتكلم الفرنسية والعربية بنفس الهيئة والكيفية. يخرج فريدريك هذا في زينته مرتديًا كميات من الذهب والمجوهرات البراقة التي لا تقدر بثمن. كانت ملابسه دائمًا جديدة وجلود أحذيته لامعة. عُرف عنه الثراء الفاحش؛ وبسبب هذه الثروة وبسبب

(٢٠٠) Frederic.

وجوده «على مقربة من الخديوي» فقد كان عظيم التأثير. وقف الخاصة من رجال الحاشية على قدم المساواة معه، بل كانوا يداهنونه ويتملقونه. يأتي متبخترًا مختالاً إلى غرف الانتظار فيدور مصافحًا الموجودين، ثم يجلس ليدخن بكبرياء ويشرب قهوته بتعال وغرور. لقد كان تعجرفه مقيتًا بوجه عام. عند رؤيته في بادئ الأمر ظننته مغامرا سيء الطباع وتعجبت من سعيه للتعرف عليّ. بمجرد أن عرفت موقعه وضعته فعليًا في حجمه الطبيعي؛ وبالرغم من ذلك فقد احتاج الأمر بعض الإجراءات الماضية من الصد والازدراء. أخيرًا سقط الرجل صاحب النفوذ والتأثير من برج خيلائه حين تقاعد وتفرغ لحياته الخاصة. حمل الرجل من مصر ثروة تقدر بمئة وعشرين ألف فرنك، دعك من الكسور التافهة وناهيك عن المنزل الذي ابتاعه. في السفينة التي رجع فيها إلى أوروبا اعتاد الرجل تمشيط شعره في الردهة ليُظهر على الملأ الفُرَش العاجية المرصعة بالحروف الأولى من اسمه بالماس.

هناك نوع غريب من روح الديمقراطية في البلاط الشرقي. كنت في طريقي إلى الخارج ذات مرة مستقلاً القطار الخديوي كما هي العادة.[٢٠١] لمحت أحد البكوات فناديته سائلاً إذا أراد مرافقتي. تنبهت إلى أنه كان بصحبة أحد أبناء البلد ممن يقدمون القهوة للخديوي. حين لاحظ البيك أني أجلس في ديوان يتسع لأربعة أفراد هم بالسؤال: «هل لديك مكان لفرد آخر؟» فأجبته بالنفي. انضم إليّ بمفرده وانطلقنا معًا وأنا أقول له: «لماذا؟ هذا الرجل لا يعدو أن يكون خادمًا، أليس كذلك؟» فأجاب: «آه... لم أكن أعلم... إنه في خدمة مولانا.» في ظهيرة يوم آخر قابلت خياط القصر في الميدان الكبير[٢٠٢] بينما كنت

(٢٠١) كان هناك محطة للسكك الحديد داخل باحة القصر مخصصة لانتقالات الخديوي. (المترجمان)
(٢٠٢) ميدان المنشية حاليًا. (المترجمان)

سائرًا مع شخص آخر أدخن السيجار وأستظل بالشمسية التي لا غنى عنها. قام الرجل – وبحسب عادات أهل البلد- بمصافحة مرافقي، لكني وقفت متحفظًا وبيدي السيجار وبالأخرى المظلة رافضًا يده الممدودة. في مساء نفس اليوم لاح الخياط في غرفة الانتظار بالقصر، وتقدم دون تكلف ليصافح صف من البكوات والبَاشَوات الذين كانوا جالسين على أرائك بامتداد الجدران. حين اقترب مني أملت ظهري إلى آخر الأريكة ووضعت ساق على الأخرى دافعًا بكلتا يدي في جيبي السروال. هذه المرة كانت الرسالة واضحة بالقدر الكاف، فمر الخياط وأصابع يمناه تمس جبهته مكتفيا بعبارة: «صباح الخير يا سيدي».[٢٠٣] منذ تلك اللحظة لم يسع الرجل إلى المصافحة باليد مطلقًا. هناك بعض الأشياء في روما أبيت بشدة أن أكون مثل الرومان فيها.[٢٠٤] ليس أمرًا سيئًا وأنت تخالط الشرقيين أن تحافظ على منزلتك.[٢٠٥]

كان شاطئ البحر برأس التين رائعًا، لكنه خال الوفاض عدا حارسين أو ثلاثة يغضون في النوم عادة. لم يقصده الباشوات بالطبع فهم لا يهتمون بالسباحة في المياه الهادئة أو تسلق الصخور أو التدبر والتأمل في البحر الحزين. دائمًا ما تجد هناك أشياء جديدة وعجيبة من قواقع وشقائق النعمان وأسماك ملونة زاهية. من أكثر ما يلفت النظر هو احتواء الصخور على بقايا أواني فخارية عتيقة غدت جزءًا من بنيتها. لم أكن لأخطئ حقيقة هذه القطع الفخارية؛ لقد فحصت بعضًا منها عن كثب فوجدتها مزينة بخطوط صنعها بشر من دون ريب.

(٢٠٣)قالها بالفرنسية. لو أن الخياط يعلم حقيقة جنسية بتلر كونه إنجليزيًا فربما أراد أن يرد له الصفعة فمعروف أن الإنجليز والفرنسيين لم يكونوا على وفاق في ذاك العهد. (المترجمان)

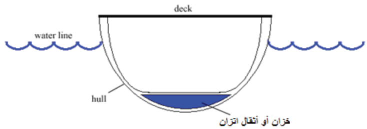
(٢٠٤)يقول المثل الإنجليزي When in Rome, do as the Romans do، أي «عندما تكون في روما فافعل كما يفعل الرومان». (المترجمان)

(٢٠٥)راجع حواشي مقدمة الكتاب للتعرف على جزئية التبسط والمخالطة تلك. (المترجمان)

كان الأمر مذهلا بالنسبة لي، لكن ربما لا يثير نفس الدهشة والفضول لدى علماء الجيولوجيا.

اعتدت المرور كل يوم في طريقي إلى السباحة على مدفع ضخم من طراز «أرمسترونج»(٢٠٦) مُركب على حاملة من نوع «مونكريف»(٢٠٧) كنت دائمًا أتساءل عن التداعيات السياسية التي تجعل مدفعًا كهذا يهدر غاضبًا. تبين لاحقًا أنه المدفع عينه الذي جر المتاعب على هذا الحي خلال ضرب الإسكندرية؛ وأنه بقي سليمًا حتى النهاية.(٢٠٨) أما فيما يتعلق بالسباحة يكتنف المرء شعورًا بوجود القروش. أُشيع أن قروش البحر الأحمر قد شقت طريقها من خلال القناة إلى البحر المتوسط وكأن الأنواع التي تعيش في الأخير ليست فتاكة بالقدر الكاف!

تمثل الشق الآخر من وقت فراغي الذي استمتعت به في ركوب القوارب المصنعة محليًا. كان القارب الأول صغيرًا ولا يحتوي على خزان أو أثقال اتزان؛ ومن ثم فقد أخذ المركب في الاهتزاز والتطوح فطالتني المياه.



لن أنسى مطلقًا الذهول الذي ارتسم على وجه اثنين من البَاشَوات حين شاهداني أدخل القصر مبلولاً. «يا الله، يا الله. هذا أمر فظيع، لكن حمدًا لله

(٢٠٦) Armstrong.

(٢٠٧) Moncrieff.

(٢٠٨) بواسطة الأسطول الإنجليزي خلال الثورة العرابية، ١١ يوليو ١٨٨٢. (المترجمان)

أنك بخير. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. أنتم الإنجليز تحبون البحر، لكن - ورأس أبي- هذا أمر مريع.» ومن ثم كنت دائمًا بمفردي في هذه القوارب لأن البَاشَوات لا يحتملون خفتها حين تفرد أشرعتها العادية في الهواء؛ حتى لو أُستبدل الوضع بأعتي السفن وأودع البحار فإنهم يفضلون عليها ركوب الحمير وإن جلسوا بالمقلوب على ظهورها. يتذرعون بكلمات تقول: «ليس للبحر كبير، فالزم البر أفضل لك.» عندما يمضي الخديوي لبعض شأنه إلى الخارج يُصبح هؤلاء الباشوات على راحتهم فمنهم، بل قل أغلبهم، يقصدون مقاهي المدينة لتدخين النرجيلة عوضًا عن السجائر التي يشعلونها في القصر. هذا هو مفهومهم عن التريض!

كان الخديوي مغرمًا بالبحر والمزاح. في يوم من الأيام أمر معاليه الحاشية بمرافقته في رحلة بحرية على متن يخته الخاص. انتشر الخبر بحلول الظهيرة فسبب صدمة للبعض وأثار في نفوسهم القلق. تمتمت الحناجر بكلمات عن القسمة والنصيب واُستخدمت عبارات قوية في حق القضاء والقدر. أقسم أحد البَاشَوات أو اثنين ممن تجري في عروقهم دماء المقاومة أنه لا يوجد شيء يجبرهم على الذهاب؛ ثم توجها إلى غرفتهما للنوم. استبق زكي بيك فحرر رسميًا من مكتب السكرتارية والمتابعة «سري وشخصي» لكل فرد على حده جاء فيه: «بأمر جناب الخديوي المعظم يتم المثول في تمام الساعة الخامسة.» طاف ساع ومعه «سركي» على الغرف ليُسلم الخطابات ويأخذ التوقيع بالعلم. قُضي الأمر فأتوا جميعًا في وجل وقد اسودت وجوههم وبدا عليها مظاهر الشحوب والعبوس.

استقل الخديوي لنشًا صغيرًا يعمل بالبخار مع أربعة من خاصته بينما ركبت وتسعة من أتباع جنابه يختًا خياليًا يستطيع الإبحار بقوة الرياح نتيجة لوجود صاريين وشراع ضخم به، كما يُمكن دفعه بعشرين مجدافًا موزعة على كلا الجانبين. كان معنا رجل طيب اسمه «وصفي» بدا مذعورًا واليخت ما زال راسيًا في مياه الميناء الهادئة بعد انكسارها على حواجز الأمواج. دس الرجل وجهه بين كفيه متأوهًا ومدمدمًا بين الفنية والأخرى بألفاظ قاسية ومتلاحقة على نحو يبعث على الضحك. أقلع اليخت في هوادة ولين فاتسعت حدقتاه وسقط على السطح متشنجًا ومتوجعًا. بعد انتهاء هذه النوبة من التلوي أخذ الرجل يلطم وجهه في نحيب مرددًا كلمة: «يا حزني!» ومعقبًا ببعض الآيات. حين غادر اليخت الميناء متطوحًا في عرض البحر تبدل رعب الرجل بحالة صامتة من الاستسلام اليائس والقنوط الشديد. لم تدم رحلتنا طويلا، لكن وصفي عانى خلالها كثيرًا من دوار البحر.

بعد يومين أو ثلاثة اصطحبت الأميرين الصغيرين لمشاهدة الفرقاطة المصرية الرابطة في الميناء. بعد تحية القبطان والاستقبال الرسمي على متن السفينة أمر القائد جنوده بإجراء تدريب عملي على المدافع، ثم توجهنا لغرفة القيادة حيث قُدم لنا العصير والحلوى. توجهنا بعد ذلك لزيارة اليختين الملكيين المذهلين: «المصري» و»المحروسة».[٢٠٩] إن الترف الذي تتمتع به التركيبات والأثاثات والتجهيزات يثير الدهشة. كانت درجات سلم البهو من البورسلين؛ أما الدرابزين فكان مرصعًا بشكل خلاب. اكتست عمدان الحجرات الملكية بالفضة وزُينت جدرانها بالخشب المطعم بالصدف والعاج على نحو بديع؛ ناهيك عن ألواح

(٢٠٩) بُني يخت «المحروسة» في عهد الخديوي إسماعيل بواسطة شركة إنجليزية وأبحر للإسكندرية عام ١٨٦٥. (المترجمان)

الزجاج المعشقة والمطليات الذهبية والستائر الحريرية المطرزة. قامت الفرق الموسيقية بالعزف بينما كنا نتجول في السفينتين. حين هممنا بالرحيل نُودي على الحرس «سلام سلاح». أخيرًا غادرنا في اليخت ذي العشرين مجدافًا. اتكأنا على وسائده المخملية الناعمة الزرقاء والمطرزة بالذهب. لا أتصور أن زورق كليوباترا كان على نفس القدر من الرفاهية والفخامة.

في يوم آخر نجونا بمعجزة من حادث كان من الممكن أن يغير مصائر ومقدرات هذا البلد. أبحرت بمفردي في باكورة ذاك اليوم متجاوزًا الخليج[٢١٠] نحو طابية العجمي[٢١١] حيث سطع نجم اللورد «تشارلز بيريسفورد»[٢١٢] أثناء قيادته لزورق المدفعية الصغير «كوندور».[٢١٣] هبت ريح خفيفة خارج الميناء بشكل مضطرد. أثناء قفولي علمت أن الخديوي ينوي الإبحار في الخامسة على متن الزورق الرسمي الذي يقطره لنش بخاري. ركبت مع مسئولي التشريفات يخت شراعي انطلق في المقدمة. أدركت على الفور أن بحارة اليخت ما هم إلا مجموعة خرقاء لا تعرف مقدمة السفينة من مؤخرتها. كانت مهمتنا هي الإبحار في خط مستقيم واجتياز ممر ضيق بين الصخور يفصل الرأس والفنار عن حاجز الأمواج. جاهدت لاجتياز هذا الممر بزورقي الصغير في الصباح لكن الريح المقابلة عاكستني وحالت دون ذلك.

في هذه الأثناء زاد هبوب الريح وارتفعت أمواج البحر. كانت محاولة الولوج في الممر بيخت في مثل هذا الحجم ضربًا من الجنون المطبق، لكننا مضينا في تنفيذ الأوامر. أدركت أننا بمجرد دخولنا في الممر بمياهه المضطربة

(٢١٠) خليج الأنفوشي. (المترجمان)

(٢١١) قلعة العجمي البحرية، أمر ببنائها نابليون أثناء الحملة الفرنسية. (المترجمان)

(٢١٢) Lord Charles Beresford، ١٨٤٦-١٩١٩، شارك في ضرب الإسكندرية عام ١٨٨٢. (المترجمان)

(٢١٣) Condor.

سيتحطم يختنا حتمًا على الصخور، لذا حللت معطفي وتأهبت للعوم، لكن من حسن الحظ أن الرياح دفعتنا بعيدًا. خفقت الأشرعة بقوة وبدأ الرجال في السب واللعن. استدرنا بطريقة أو بأخرى وانتظرنا برهة لتوجيه دفة السفينة وإعادة الكرة. فجأة لاح أمامنا قارب الخديوي على مسافة مئة ياردة قاطعًا مسارنا مباشرة. أخطأ طاقمنا في حساب المسافة أو سرعة الإبحار أو قل سيطر عليهم الارتباك. رأيت اصطدام القاربين أمرًا محتمًا؛ وأن قارب الخديوي سوف يُشَق قسمين من المنتصف، لكن في آخر لحظة تمكنا من تغيير مسارنا درجة أو درجتين بدلاً من ترك الدفة للريح والقفز باليخت على سطح المياه. وبعبارة أخرى بدلنا زاوية الإبحار من مستقيمة إلى حادة فقلت قوة الاندفاع مع حدوث تلفيات طفيفة. كانت الصدمة كافية لتجعلني أقلق على الخديوي. شطح بي الخيال فشاهدت نفسي أعاند قدري بالسباحة أو أختنق غرقًا بسبب باشا سمين راح يمسك بتلابيبي. بعد هذه المأساة صعد أحد المرشدين على سطح سفينتنا معلنًا أن الظروف غير مواتية لاجتياز الممر فانطلقنا عبر الميناء إلى عرض البحر.

انطلق اليخت بسلاسة وسط مياه البحر العميقة الهادرة. مر وصفي حتى تلك اللحظة بحالة من البؤس المستكين، لكنه قفز منتحبًا بشدة وصارخًا بجنون. في البداية كانت عيناه الزائغتان وملامحه الغريبة وصراخه الوحشي مثيرًا للضحك تمامًا كما كانت عباراته: «آه... كاد قلبي أن يتوقف... كاد كبدي أن ينفطر. سود الله وجوهكم يا حثالة البحارة. هذا يوم أسود مثل الطين!» حين استشعر أن أحدًا لا يعبأ به انخرط في موجة أخرى من الصياح: «عودوا... استحلفكم بالله ورسوله يا مسلمين أن تعودوا أدراجكم.» في غضون ذلك أوعز الرجل بإلقاء نفسه من السفينة وبذل مجهودًا حثيثًا في هذا الاتجاه، لكن ثلاثة

أو أربعة رجال أحكموا قبضتهم عليه. تم الاستجابة لمناشدات وصفي بعد نضال مستميت من جانبه واستغاثات على الملأ برجال على دينه وملته فعدنا إلى المياه الهادئة. فيما بعد وبينما كنا نصعد الطريق إلى القصر على أقدامنا أخذ وصفي يندب حظه بكلمات مريرة. كان من شأن هذه الرحلات البحرية أن تُفسد عليه حياته لمدة ستة أسابيع وتبدل إحساسه بمباهج الإسكندرية! هذا اليوم الذي شبهه بالطين عكر صفو أربعين يومًا من الغبطة والهناء. صحيح أن التجربة كانت مخيفة له ومثلت حدثًا غير عادي ترك أثرًا في وعيه، لكن عليه أيضًا أن يتعظ ويعتبر بالدرس المستفاد منها. «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ما من ريب في ذلك؛ «ولا فرار من قضائه وقدره.»

أحب أن أسجل هنا بشكل عرضي افتتان العرب بتزيين كلامهم بعبارات التبتل والقنوت كما سبق أن رأينا. صحيح أن هذه الجُمل تجعل حديثهم متباينًا عن منطق الملحدين والبوهيمين، لكن هذا التقليد كذلك لا يُعتبر دليلاً على الورع والتقوى.

أصبح الخديوي حكيمًا في إسداء النُصح بشكل ما أو بآخر. أخبره أحد القناصل في الإسكندرية أن إسماعيل دأب على تقديم الرشاوي للناس كي يهتفوا له أثناء مرور موكبه في الشوارع؛ وأنه أنفق مبلغًا طائلاً ذات مرة من أجل هذا الغرض. اقترح القنصل على توفيق أن يحذو حذو أبيه في هذا الشأن. أجاب الخديوي ببرود: «إنك ترتكب خطأً شنيعًا بتخيلك أن مثلي يعبأ بالحشود المستأجرة. إذا لم تخرج مشاعر الوفاء والإخلاص من القلب فلا حاجة لي بها ولا أهمية لها عندي.» انسحب القنصل - على ما أظن- ووجهه إلى الأرض خجلاً وخزيًا. بعدها قدِم على الخديوي رهط من الصيارفة

اليهود ليهنئوا جنابه بانتهاء لجنة سداد الديون من عملها. زادوا وعادوا في مزايا اتفاق التسوية بالنسبة لمصر منهين حديثهم بهذه الكلمات: «عمومًا عندما يبدأ سريان اتفاق التسوية فسوف يسعدنا توفير أي مبالغ لعظمتك بنسبة ٧٪.» رد الخديوي: «أنا ممتن لكم. إن عطفكم هذا هو ما قوض عرش أبي. لا أحتاج إلى أموالكم، ولا أنوي الاستفادة من خدماتكم.» فما كان منهم إلا أن انسحبوا أيضًا بدورهم وهم يدمدمون من دون شك تمامًا مثل اليهودي المرتبك في ألف ليلة وليلة: «آه أيها العذير! آه يا موسى ووصياك العشر! آه يا حمار العذير!» وهكذا أنقذ الله مصر من أبناء إسرائيل.

أُقيم حفل كبير على شرف السير ريفرز ويلسون ولجنة سداد الديون في حدائق قصر رأس التين التي أُضيئت. كان هناك اصطفاف واستعراض عسكري كبير على ضوء المشاعل، وكذا موكب لطوائف التجار من أهل البلد. كان الأخير مخيبًا للآمال، فعدا «الجنايانية» الذين حملوا باقات من الورود، لم يرفع مُمثلي الحرف الأخرى أي رمز أو شعار يدل عليهم واكتفوا بالآلات الموسيقية. عقب ذلك كان هناك عرض للضوء في الميناء الذي يعج بالسفن. كان المنظر رائعًا في ضوء القمر. انطلقت عشرات من المراكب الصغيرة هنا وهناك وعلى مقدمتها الفوانيس. كان أجمل ما رأيت على الإطلاق تلك الليلة سفينتين يونانيتين بمقدمتين ومؤخرتين مرتفعتين على غرار طراز السفن الكلاسيكية التي جلبها أجدادهم منذ ألفي سنة إلى نفس الميناء. ركبت لبعض الوقت في زورق فخم باثني عشر مجداف. مازالت ذكرى هذه الليلة المصرية على البحر تُعشش في عقلي لا يضاهيها في ذلك غير ذكرى الأيام المشمسة وأنا في مركب شراعي بالبوسفور[٢١٤] أو في جندول في الليالي المقمرة بالبندقية.

(٢١٤) مضيق في اسطنبول يفصل بين قارتي آسيا وأوروبا. (المترجمان)

دُعيت في مساء يوم آخر لمشاهدة عرض مصري على مسرح زيزينيا[٢١٥] وفقًا لتعليمات الخديوي الذي تواجد بشخصه. كان العرض تجربة سيئة. ائتلفت المسرحية من أربعة فصول استغرق كل منها ساعة بدون حركة أو تبديل للمَشاهد أو حبكة درامية.[٢١٦] بدأت المسرحية بدخول رجل خط الشيب لحيته جلس على مقعد بين أصيصين من الورود ثم أخذ يتأوه ويزبد ويرغي لمدة ساعة كاملة. تلا ذلك دخول شيخين موسرين في زيهما البلدي أخذا يدخنان الغليون الطويل برائحة الياسمين.[٢١٧]



جلس الرجلان على مقعدين يمين ويسار صاحب اللحية البيضاء، ثم شرعا في الحديث لمدة ساعة؛ غابا بعدها عن المشهد ليحل مكانيهما فلاحان يتعكزان بصورة متشابهة على منسأتين ظلا يتحدثان لساعة ثالثة؛ وأخيرًا حل محليهما رجلان من حزب «مصر الفتاة»[٢١٨] تحاورا في السياسة بشكل أساسي، لكن

(٢١٥) أنشأه الكونت دى زيزينيا الذي كان تاجرًا للقطن وقنصلًا لبلجيكا فى منتصف القرن التاسع عشر. يقع المسرح في شارع فؤاد الآن، وعلى خشبته مثلت سارة برنار عندما زارت مصر عام ١٩٠٧. عُرف فيما بعد بمسرح سيد درويش ثم أوبرا الإسكندرية. (المترجمان)

(٢١٦)لاحظ أن بتلر قادم من إنجلترا وهي بلد المسرح كما يُقال؛ ولذا فإن حُكمه على العرض صحيح إلى حد كبير. (المترجمان)

(٢١٧) يقصد بتلر «الشبوك»، وهو غليون تركي. (المترجمان)

(٢١٨)من المعروف أن حزب مصر الفتاة أسسه أحمد حسين عام ١٩٣٣، لكن بداياته كانت سرية في الإسكندرية عام ١٨٧٩ على يد المثقفين والمتنورين وبعضهم كان يهوديًا. راجع J. M. Landau (١٩٥٣). The Young Egypt Party Bulletin of the School of Oriental and African Studies, ١٥, pp. ١٦١-١٦٤ ,١٠١. doi:١٠١٧,١٠/S٠٠٤١٩٧٧X٠٠٠٨٧٣٤٦. (المترجمان)

الحديث برمته بدا مملاً بشكل فج، لذا أعترف أني لذت بالفرار بعد الفصل الأول من هذه الدراما السامية.(٢١٩)

أمضيت أوقاتًا عديدة في تلك الأيام متنقلاً بين بيوت أصدقائي الإنجليز في الرمل(٢٢٠) ومستمتعًا بحفاوتهم. حظيت بتناول طعام العشاء على النظام الإنجليزي الأمر الذي أحدث تفريجًا وراحة من وجبات القصر؛ وكان مما يميز هذا النظام الامتناع عن تدخين التبغ. اعتدنا لعب التنس على الملاعب الحمراء حتى في ظهيرة الأيام شديدة الحرارة مثلما كان الحال في القاهرة كما ذكرت آنفًا. على الرغم من أن الإسكندرية تُسجل درجات حرارة أقل من العاصمة، لكن الرطوبة مرتفعة بها الأمر الذي يُشعرك بالإرهاق. وبالرغم من استحالة النظر في عين الشمس، إلا أنني أفضل أجواءها عن حلول الظلام لاسيما وأن البعوض له رأي مختلف.

وعلى ذكر البعوض هناك أنواع عديدة منه لعل أسوأها هذا الصنف الذي يسميه المصريون «يلدغ في صمت».(٢٢١) تُعزى حقيقة التسمية إلى كونه يباغت دون أن يصدُر عنه صوت. وبالإضافة إلى البعوض يكثُر أيضًا النمل والعقارب والعناكب والثعابين، ناهيك عن اليربوع(٢٢٢) وهو حيوان غير مؤذ يُرى عادة في قمم التلال على خط السماء وقت الغروب.(٢٢٣)

(٢١٩)يقصد بتلر أنها باللغة العربية وهي لغة سامية، أما المصريون فهم حاميون تجري في عروقهم دماء سامية نتيجة لاختلاطهم بسكان الشام والجزيرة العربية. (المترجمان)

(٢٢٠)حي شرق الآن وبه أغلب المناطق التي كان يسكنها الأجانب في المدينة مثل لوران وجاناكليس وسان ستيفانو وونجت وجليم وسابا باشا وفلمنج وستانلي. يخترق الحي ترام الرمل ويقع به قسم الرمل. (المترجمان)

(٢٢١) يأكل وهو ساكت Yakul-Uskut . (المترجمان)

(٢٢٢)الجربوع، نوع من القواضم يشبه الفأر. (المترجمان)

(٢٢٣) خط السماء هو خط الأفق وعنده يُهيأ للمرء أن السماء تنطبق على الأرض. (المترجمان)

لم يكن هناك مضيف ألطف من موريس بيك، هذا الجندي الألمعي والفارس النبيل الذي هلك مع الجيش المصري بقيادة «بيكر» في»ترينكيتات»(٢٢٤) منذ أقل من ثلاث سنوات مضت. في عام ١٨٨٠ كان موريس في خفر السواحل. في إحدى الليالي تحدث الرجل بعد تناولنا العشاء عن التهريب الذي استشرى مؤخرًا. كان مما قال أن التهريب يُكلف الحكومة المصرية مئة ألف ليرة سنويًا. كان التبغ المجلوب من سوريا أهم السلع التي يتم تهريبها بصفة أساسية؛ وارتبط الاتجار به باليونانيين وقناصلهم. مؤخرًا توجه القنصل اليوناني في بورسعيد على رأس خمسمائة غوغائي من أبناء جلدته لمهاجمة مجموعة من خفر السواحل صادرت بعض التبغ. أثناء الشجار غرز القنصل نواجذه في ذراع أحد المناوئين. عاين موريس بيك شكل العضة ووجد أنها تطابق أسنان القنصل تمامًا حتى سنته المفقودة التي لم تخلف أثرًا. وبالرغم من إقرار المهربين بأن التبغ قد جُلب بشكل غير شرعي فقد انتهى الموضوع بعقاب أفراد خفر السواحل وإطلاق سراح المهربين؛ ومن يدري ربما أيضًا مكافأتهم. اعتاد موريس الخروج على رأس الدورية كل ليلة؛ ولطالما تعرض لإطلاق النار من قِبل المهربين. الذين دخل معهم في مناوشات أودت بحياة الكثيرين منهم. نجح موريس في جعل هذا الجزء من الساحل جحيمًا بالنسبة للمهربين مما اضطرهم للتوجه شرقًا بنحو ثلاثين أو أربعين ميلاً قبالة رشيد حيث يمكنهم إنزال حمولتهم من التبغ كما يحلو لهم، ثم إرسالها إلى البدو في طول البلاد وعرضها. تفقد موريس الساحل غرب الإسكندرية لمسافة ستمائة ميل وتبين أن له بالكامل ظهير صحراوي عدا مكان واحد يزخر بالأشجار.(٢٢٥) أما الأعراب الذين قابلهم فقد أكدوا له أن مصر تنتهي حين تبدأ طرابلس؛ ومن ثم فقد لفتوا نظره إلى وجود جبهة أخرى. بالرغم

(٢٢٤) Trinkitat، منطقة في السودان على البحر الأحمر، جنوب شرق «سواكن». (المترجمان)

(٢٢٥) لم يحدد بتلر نوع الميل: بحري أم بري، لكن يبدو أنه يعني إقليم برقة. (المترجمان)

من أن هذا الساحل قد يبدو مهجورًا إلا أنك تصادف على امتداده عددًا كبيرًا من الحجاج الجزائريين والمغاربة قاصدين مكة أو قافلين منها. تستغرق هذه الرحلة عامًا كاملاً سيرًا على الأقدام تعتمد خلاله هذه المخلوقات البائسة على الصدفة في العثور على طعامهم؛ أما شرابهم فيستقى من مياه الآبار الغائرة التي تميل إلى الملوحة؛ كما يجابهون قبائل من البدو الرحل فيهلك الكثيرون بطبيعة الحال على امتداد الطريق. حقًا «إن ممارسة البعض للشعائر الدينية قد تدفع الآخرين إلى ارتكاب الشرور.»[٢٢٦] لا شك أن هؤلاء الرجال يستحقون الشفقة، لكن إحساسهم بما هو واجب عليهم القيام به وتكريس أنفسهم له يثير الإعجاب.

كان قائد طابية فاروس مارقًا يونانيًا يُدعى حسين بيك؛ وعُد واحدًا من أكبر مهربي الإسكندرية؛ كما كان شقيقًا لأحد تجار التبغ في المدينة. سمح الرجل بنزول الشحنات على أسوار حصنه. حين صادر موريس بيك ذات مرة كمية من التبغ في الساعة الثانية من صباح أحد الأيام علق حسين قائلاً ببرود: «نعم... لقد قبضت على هذه الشحنة أمس لصالحك، وانتويت تسليمها إياك اليوم!» مؤخرًا قضى موريس بيك أوقاتًا كثيرة مطاردًا لقوافل البدو في الصحراء. فقد أثناء هذه الاشتباكات جنديين من رجاله من أصل خمسة وثلاثة من جياده، لكنه تمكن من وضع يده على ألفين بالة من التبغ؛ بينما لاذ البدو بالفرار. لم تعط الحكومة مكافأة للقائمين على الإمساك بهذه المهربات على غير عادتها في ذاك الوقت مما أنعش تجارة التهريب. لقد أراني موريس بيك خريطة لخط الساحل المصري. بدا واضحًا أن جزءًا يسيرًا منها قد تم تأمينه. قال موريس: «لا أمل في

(٢٢٦) نص العبارة اللاتينية التي أوردها بتلر هي: tantum religiō potuit suādēre malōrum، وتُنسب إلى "لوكريتس" Lucretius ذكرها في مؤلفه De Rerun Natura, Book I, ١٠١ وترجمتها حرفيا للإنجليزية So potent was religion in impelling to evil (المترجمان)

إنجاز العمل بقوتي الصغيرة تلك.» لقد حاول أحد المهربين اليونانيين الكبار يمكنني ذكر اسمه شراء موريس بيك بعشرة آلاف ليرة، لكنه رفض بطبيعة الحال. هز اليوناني كتفيه موجهًا حديثه لموريس: «يا صديقي العزيز... إنك إنجليزيًا أكثر مما ينبغي. لماذا تُنهك نفسك ليلاً ونهارًا وتعرضها للخطر على هذا النحو؟ لن يمكنك لمسنا. أؤكد لك ذلك. لدي القدرة على إنفاق خمسين ألف ليرة في القاهرة للحيلولة دون الأخذ بنصائحك التي تسديها للحكومة. وأقول لك بمنتهى الصراحة أن كل برقية أرسلتها للوزارة نُسخت وأُرسلت إلي. لذا فأنا أعرف دومًا ما يجب عليّ فعله.» يمتلك هذا الرجل قرية كاملة على النيل يعمل سكانها بشكل خاص في استلام التبغ المهرب من الصحراء ثم إرساله عبر النهر إلى التجار اليونانيين المنتشرين بالعشرات في كل بقعة من أرض مصر.

مشيت الهوينى لثلاث ساعات تقريبًا في ظهيرة يوم حار من شهر أغسطس من الإسكندرية[٢٢٧] إلى الرمل. ما من شك أن السير بحذاء الساحل أمر شيق لدارسي الآثار والمهتمين بالتاريخ. تميل الأجراف الرملية في بعض الأماكن إلى الانحدار الشديد فتُظهر قطاعات منها طبقات شكلتها يد الزمن خلال أجيال من العصور اليونانية والرومانية التي خلفت آثارًا على امتداد الشاطئ وفي أعماق المياه دون التاريخ مجلدات منها، لكن في مصر لا يراود الناس حلم القراءة ولو حتى سطر واحد. ترتفع الأجراف لثلاثين قدما؛ وترقد بين ثناياها بشكل مضطرد بقايا كسر الفخار ولبنات مصمتة وقواعد لغرف وحمامات ووسائل تسخين وغلايات وهلم جره. تنتشر بالقرب من البرج الدائري بجوار محطة القطار كتل ثقيلة من الأحجار في خرائب وأطلال تحوي بقايا أقواس على شكل نصف

(٢٢٧) يقصد المؤلف البلدة القديمة أو منطقة بحري، رأس التين والأنفوشي الآن. (المترجمان)

دائرة وتفاصيل معمارية أخرى.[٢٢٨] يقع حصن السلسلة في نهاية لسان طويل ويُشكل الجناح الشرقي للميناء القديم، بينما تحتل قلعة فاروس الجانب الغربي؛ ويُقال أن الذي شيد الحصن هو هارون الرشيد العظيم.[٢٢٩] وقفت على بوابة اللسان المعبد طالبًا الإذن بالدخول. رمقني الحارسان لبرهة في صمت ثم انتحى بي أحدهما وهو يقول:

«هل معك بقشيش؟»

«نعم.»

«حسن ناولني إياه؟»

«كلا يا صديقي العزيز. بعد أن أشاهد الحصن.»

«هذا ممنوع منعًا باتًا.»

«صحيح، لكن السخاء يفتح الأبواب المغلقة.»

«أجل، لكن أين هذا السخاء؟»

«الصبر... أنا رجل إنجليزي؛ وكلمتي ماضية كالسيف.»

(٢٢٨) يقصد بتلر منطقة آثار كوم الدكة والتي تقع بالقرب من محطة القطار المسماة الآن بمحطة مصر في مقابل مركز الإطفاء. اكتشفت البعثة البولندية في هذه المنطقة المسرح الروماني عام ١٩٦٠ أثناء بحثها عن قبر الإسكندر الأكبر. أما البرج الدائري الذي يشير إليه بتلر فلم نعثر له على أثر تاريخي؛ وربما كان أحد المنائر التي أتى عليها الزمن أو الفنار الذي دمره الإنجليز أثناء قصف المدينة عام ١٨٨٢. على أي حال واضح أن بتلر كان ينتقل من الساحل إلى جنوب المدينة ثم يعود للشمال، وأن طوبغرفيا الشريط الساحلي قد تغيرت كثيرًا من ١٨٨٠ وحتى الآن. (المترجمان)

(٢٢٩) تحتله الآن وحدة من القوات المسلحة المصرية في مقابل مكتبة الإسكندرية عند تمثال الأشرعة. (المترجمان)

التفت الحارس إلى رفيقه وهو يكرر كلماتي: «يقول أنه إنجليزي؛ وأن كلمته ماضية كالسيف.» على الفور سمحا لي بالدخول. كان اللسان مؤمنًا بحائطين يبلغ سمك أحدهما أربعة أقدام والآخر ستة أقدام، بيد أنهما تعرضا لانهيارات كثيرة. كان المد عاليًا، ومن ثم فقد تعذر عليّ بلوغ الحصن. في طريق العودة دفعت البقشيش الذي قوبل بالمراسم المعهودة حيث أطبقت عليه يد الحارس مقبلة النقود ثم ارتفعت بها إلى الجبهة.

وجدت بعد قرابة الميل بقايا لمقابر منحوتة في الصخر ومازال بها آثار الجص.[٢٣٠] شاهدت أيضا وسط المنحدر أرضية من البازلت الأسود يصل سمكها إلى قدم وكذا بقايا عمود رائع وقطع من الرخام العادي والأحمر والألابستر.[٢٣١] كانت الأحجار متينة ومتراصة باستخدام الملاط[٢٣٢] الذي يتكون من الطوب المدشوش والمحار المخلوط بالكلس.[٢٣٣] أظهرت الطبقات الأرضية استواء فريد لم يبد فيه أي تأثر بالزلزال.[٢٣٤] في قصر الرمل[٢٣٥] يشق جدارُ البحرَ لذا كان عليّ

(٢٣٠) الجبس. (المترجمان)

(٢٣١) لا ندري تحديدًا أي المدافن يقصد بتلر فمدافن كوم الشقافة إلى الجنوب وبدء التنقيب فيها عام ١٨٩٣ ومقابر الأنفوشي إلى الغرب واكتشفت عام ١٩٠١. المقبرتان الأثريتان الموجودتان إلى الشرق هما الشاطبي واكتشفت عام ١٩٠٤ ومصطفى كامل عام ١٩٣٣ ومقبرة شارع تيجران (شارع بوسعيد حاليًا) أُكتشفت عام ١٩٥٢ بمنطقة كليوباترا، وتم نقل أجزائها الرئيسية الى منطقة كوم الشقافة حيث أُعيد بناؤها هناك مع مقبرة سلفاجو التي نُسبت لهذا الرجل اليوناني الذي أسس شركة المياه لأنها وجدت على أرض له. وبما أن بتلر كان متوجهًا من الغرب إلى الرمل شرقًا وسار حسب قوله قرابة الميل من لسان السلسلة فإنه على الأرجح بلغ مقبرة الشاطبي؛ وأغلب الظن أن بعض الآثار كانت ناتئة في هذه المنطقة قبل الحفر والتنقيب. (المترجمان)

(٢٣٢) مادة تشبه المونة. (المترجمان)

(٢٣٣) الجير. (المترجمان)

(٢٣٤)يقصد بتلر الزلزالين الشهيرين اللذين ضربا الإسكندرية عام ١١٠٠ وعام ١٣٠٣ ميلادية. (المترجمان)

(٢٣٥)سراي الرمل أنشأها الخديوي إسماعيل وإليها تُنسب محطة ترام «السرايا». حُولت هذه «السراي» إلى ثكنة عسكرية بعد ثورة يوليو، وأُطلق عليها «طابية سيدي بشر». في الثمانيات من القرن العشرين هدمت «الطابية» أو ما تبقى من السراي وحل محلها مساكن لضباط القوات المسلحة ودار للقوات

أن أترك الساحل مارًا بساحة الحرب الشهيرة في اتجاه المسجد الصغير حيث يُعتقد أن جثة أبيركرومبي حُملت إليه.[٢٣٦] لطالما تملكني العجب من عدم بذل سوى أقل القليل من أجل اكتشاف الآثار التي تعج بها الإسكندرية.

زرت في يوم آخر طابية الفنار التي تقع في أقصى غرب نتوء رأس التين.[٢٣٧] لا يُسمح للزائرين أو الغرباء بدخولها. يبلغ عرض الفنار ثلاثين قدمًا؛ وترتقي داخله عن طريق مائتين وأربعين درجة. بناء الفنار حسن ومتماسك بالرغم من أنه أُصيب أثناء القصف بدانة أطلقتها السفينة «إنفليكسابل»[٢٣٨] فتركت فجوة في إحدى ثنايا برجه. يرى المرء من على قمته الأشياء على نحو متناسب مع الارتفاع، فالسفن الكبيرة في الميناء إلى الأسفل تظهر كالنقاط الصغيرة. يقع البحر إلى الشمال وفي العمق تمتد الأراضي الصحراوية. يقف حاجز الأمواج بين البحر بأمواجه المتقلبة وصفحة المياه الهادئة؛ وخلفهما شريط طويل ضيق من الرمال التي تفصل الخليج عن بحيرة مريوط. يمكنك رؤية المدينة برمتها بكل ما فيها من قصور ومآذن ونخيل ممتد من الشرق للغرب. في الحقيقة لقد شكلت هذه العناصر الزاهية مُجتمعة مشهدًا مذهلاً وشجيًا لتلك الأمسيات المصرية الذهبية.

البحرية تُعرف الآن بالمحروسة. (المترجمان)

(٢٣٦) Ralph Abercrombie(y، رالف أبركرمبي (١٧٣٤- ١٨٠١) قائد بريطاني أرسلته حكومته على رأس الحملة التي أنفذتها لإخراج الفرنسيين من مصر فنزل بأبي قير، لكنه قُتل أثناء المعركة. (المترجمان)

(٢٣٧) المقصود فنار المكس القديم. أُقيم في عهد محمد علي باشا وأشرف عليه المهندس مظهر باشا. (المترجمان)

(٢٣٨) The Inflexible، سفينة حربية إنجليزية دخلت الخدمة عام ١٨٧٦. (المترجمان)

توجد على الجانب المقابل من الميناء بالقرب من قصر سعيد باشا المهجور(٢٣٩) مدافن عديدة جديرة بالزيارة. تعج هذه المنطقة ببقايا فعلية للحمامات المنسوبة لكليوباترا، ناهيك عن الأفران وغرف المعيشة والمقابر. ربما يكون أبرز الآثار في هذه المنطقة سرداب للموتى وكهف نُحت في الصخر يشبه بدايات الكنيسة إلى حد كبير. للكهف مدخل مربع الشكل تحدد أضلاعه مجموعة من الأعمدة الرومانية ذات التيجان. تُفضي البوابة إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة مسقفة. توجد ثلاث ممرات أحدهما في الوسط وواحدة على كل جانب؛ وكلها تقود إلى غرف مُظلمة. في الغرفة الوسطى يمكنك اكتشاف ممر آخر ينتهي إلى الضريح المقدس أو ما يُمكن أن نطلق عليه بقايا المذبح كما كان يُعرف آنفًا.(٢٤٠) إن شكل المبنى يشبه إلى درجة ما الكنائس القبطية الأولى المنحوتة في الصخر.(٢٤١)

كانت النزهات الخلوية بالرمل أكثر بهجة من التجول منفردًا. أتذكر على نحو خاص إصابتي بضربة شمس في التاسعة من صباح يوم شديد القيظ من شهر سبتمبر بالرغم من وضع غترة على رأسي، لكن سرعان ما استعدت عافيتي. انطلقنا نحو المندرة حين اقتربت الساعة من الحادية عشر، ثم شرقًا بموازاة ساحل بحيرة أبي قير الواقعة على بعد نصف ميل إلى يميننا.(٢٤٢) تتفاوت الامتدادات الداكنة لمستوى الرمال هنا وهناك مكونة تشكيلات غريبة تختلط

(٢٣٩) كان يقع في منطقة الورديان حاليًا. تحول إلى سلخانة ثم مجمع للمدارس حاليًا. (المترجمان)

(٢٤٠)إن الأوصاف التي ذكرها بتلر تنطبق على آثار البرديسي المتاخمة لمسجد سيدي وفائي والمركز الثقافي الفرنسي بنهاية شارع النبي دانيال في اتجاه محطة مصر أو ربما «كوم الناضورة» الذي به قلعة «كافريللي» ومرصد النجوم الذي أنشأه محمد علي وقبر «الطرطوشي»؛ ويُقال أن عمرو بن العاص أقام بها مسجد الألف عمود الذي لم يعد موجودًا. (المترجمان)

(٢٤١) راجع كتاب»الكنائس القبطية القديمة في مصر» Ancient Coptic Churches of Egypt, Clarendon Press, Oxford, ١٨٨٤, Vol. ii, PP. ٣٤٩-٣٥٠. (المؤلف)

(٢٤٢) تم تجفيف هذه البحيرة لاحقًا بواسطة شركة أراضي «أبو قير»؛ وانتهى التجفيف عام ١٨٩١. (المترجمان)

أحيانًا بالحصى الصغير الأملس، وأحيانًا أخرى بقطع متناهية الصغر من الفخار أو كسر المحار. لمعت البحيرة كمرآة ساطعة من الزرقة المتقعة بينما حدد النخيل هنا وهناك الجزر والشُرُمُ، ورست زوارق المصريين بأشرعتها ثلاثية الأبعاد كما لو كانت جزءًا من الحلم. على مدد البصر التحمت المياه تدريجيًا مع الأفق الذي بدا بدوره كبحيرة زرقاء مكتسية بالبياض. أما فوق رؤوسنا فقد لمعت السماء بشدة بلون الياقوت الأزرق الذي يميز الصيف المصري. ارتفعت إلى يسارنا على مسافة قريبة مجموعة مضطردة من الكثبان الرملية متوجة ومزدانة بنقط نافرة من أشجار النخيل على اختلاف أحجامها. كانت الرمال حولنا كالتبر في لونه وصفائه؛ واعتلت الشمس الآن قمة السماء فخلقت دوائر من الظلال المتكررة والمتماثلة لكل سعفة على الأرض حول قعر النخيل. لايوجد ما يضاهي جمال مشهد الكثبان الرملية الذهبية وعذوق النخل التي ناءت بحملها من البلح الأحمر وظلال السَّعَفُ الذي يُشبه ريش الطيور؛ مشهد يتباين برمته عند خط الأفق مع زرقة السماء فوقنا التي لا ترتع فيها سحابة واحدة. لكي تدرك لون هذه السماوات عليك دائمًا أن تعاين المشهد المغاير في الأفق.

حين تركنا سلسلة الكثبان عايننا كثيرًا من مظاهر التغير في المشهد الصحراوي. وجدنا رمالاً تحيط بغزارة بالشجيرات الخفيضة التي يستخدمها صائدو الطيور العرب فينصبون مصائد عليها، ثم ينبطحون ويضعون فوق أجسامهم سعف النخيل ليمسكوا بالطيور بمجرد وقوعها فيها. أكثر ما يقع في تلك الشراك العصافير ومنها المغردة والطنانة وعصافير التين، لكنهم يصيدون أيضًا السمان بنوعيه العادي والملون والهَدَاهِد والصقور.

عندما قفلنا أخيرًا إلى المندرة، تلك القرية الصغيرة، انطلق الصبية عدوا قائلين: «هل تريدون مياه؟» بعد المشي لمدة ساعتين في قيظ الصحراء تشعر بحلاوة المياه الباردة من بئر نظيف. لم نشرب فقط، بل صببنا قرب الماء فوق رؤوسنا. تشتتنا بعد ذلك في بحثنا عن عربة الغداء التي ضلت السبيل في الصحراء، لكننا اهتدينا إليها أخيرًا وتقابلنا من جديد في بقعة واحدة. سرعان ما فرشنا الطعام على الأرض: لحم دندي ولسان وفطائر الحمام وشمبانيا وكل لوازم النزهة الخلوية الإنجليزية، ثم بدأنا في تناول الطعام وأهل البلد يرقبوننا بغرابة شديدة. بعد الغداء تناوبنا المشي والجلوس على الشاطئ لمدة ثلاثة ساعات، ثم عدنا بمركباتنا والبحر على يميننا والصحراء على يسارنا وأشجار النخيل حولنا في كل مكان.

لم تكن الجولة بالمركبات في ضوء القمر أقل متعة من النزهة الخلوية بمحاذاة الساحل. أوينا في إحدى الليالي عقب قطع مسافة عبر الصحراء المتموجة وشق طريقنا بحذر خلال أخاديد النخيل إلى مكان للراحة حيث كانت الأمواج البيضاء العاتية تتكور نحو الشاطئ. في مرة أخرى وبحلول منتصف الليل قمنا بنزهة خلوية على الصخور التي تنبجس من خلالها نوافير الرذاذ. لقد كان الليل ساحرًا دومًا وانعكاس ضوء القمر على البحر والرمال والنخيل جميلاً إلى حد يستعصي على المرء وصفه.

الفصل السادس

محادثات مع الخديوي- تجارة الرقيق- أخلاق المصريين- الدوسة- شهر الصوم- احتفال بالقصر- عادات خرافية- الرياضيون بحي الرمل- قصة السلطان- "مراسلنا الخاص"- قصة فكري باشا- رحلة غير سارة.

لقد منحتني محادثاتي الدائمة مع الخديوي رؤيةً ثاقبة ليس لشخصيته التي تعلمت أن أحترمها وأعجب بها فحسب، وإنما للعديد من المؤامرات والدسائس التي حيكت له. تعلمت أيضًا العديد من طقوس أهل البلد الغريبة التي عادة ما يجهلها الأوربيون.

تمتع الخديوي بعينٍ فاحصة، وذاكرةٍ جبارة، وبحديثٍ أخاذ مما جعله أكثر المتكلمين ثقافة وتنويراً. عادةً كان «تورابي» يحضر هذه المقابلات فيلجأ إلى استخدم اللغة التركية في توضيح ما تعجز اللغة الانجليزية أو الفرنسية عن تفسيره. قيل لي الكثير بالطبع عن تجارة الرقيق. استقر في ضميري أن الخديوي - في قرارة نفسه - يكره العبودية. أريته ذات مرة خطابًا منشورا في صحيفة «التايمز» من أمين سر الجمعية البريطانية الخارجية لمكافحة تجارة الرقيق أشار فيه إلى ما أورده مراسل في مدينة جدة من أن هناك زيادة في الرق بعد رحيل العقيد «جوردون» من السودان. أقر الخديوي بأن هذا الأمر قد يكون حقيقيا، وأعرب عن أسفه إزاء ذلك. أخبرني أن السير «مالت» نصحه

بإصدار قرار فوري ينص على إلغاء الاسترقاق ويكون نصه مقتضبًا على النحو التالي: «صار العبيد كلهم أحرارًا»، لكنه وجد أن من المستحيل إحداث مثل هذه الثورة في لحظة! تكمن صعوبة اتخاذ مثل هذا القرار في أن نظام الرق متشابك- ليس مع نظام الجواري فحسب - وإنما مع ديانة المسلمين،[٢٤٣] الأمر الذي جعل من الصعوبة إلغاؤه دون تفكيك النسيج الاجتماعي بأسره. أما عن الخديوي توفيق فهو لم يبتاع عبدًا قط، لكنه لم يجد بد من أن يرث بعض عبيد وإماء والده عندم توليه العرش. حصل كل من يُصنفون بعبيده على ليرتين كأجرٍ شهري بالإضافة إلى الطعام والكسوة. لم تكن هناك ثمة مبالغة في بغض تجارة الخصي والاستياء منها،[٢٤٤] ولكن الناجون من تلك الممارسات حظوا بمداعبة وملاطفة النساء؛ وغالبًا ما تمتعوا بالثراء الفاحش والسلطة. بلغت ثروة خليل أغا مثلا، الذي كان رئيسًا للخصي لدى الخديوي إسماعيل، عند موته ١٠٠,٠٠٠ ليرة. لقد سألت الخديوي عن مصير الزوجات في غياب عبيد وحراس الحرملك، فأجاب على الفور أن النساء كن سيبادرن بالمطالبة بجميع حقوقهن؛ فرددت عليه قائلاً أنه قد يحدث فقط في البداية سوء استغلال للحرية الممنوحة، لكن بعد فترة وجيزة، وعندما تحصل النساء على قدرٍ أعلى من التعليم فلا أرى مانعًا من أن يتصرفن مثل النساء الأوربيات.

---

(٢٤٣) هذا هو رأي الكاتب؛ ولا يعبر عن حقيقة الأمر في الدين الإسلامي الذي جفف منابع الرق. (المترجمان)

(٢٤٤) يؤسر الصبية أثناء المنازعات الأهلية في النوبة ثم تُقطع خُصَّيهم بضربة واحد. بعدها يُتركون في حفر حتى تلتئم جراحهم. ما يحدث في الغالب أن خمسة فقط من كل مائة يبقون على قيد الحياة. (المؤلف)

Captis inter bella intestina pueris in Nubia uno ictu praeciduntur paries : tune ipsi in terram medio tenus defossi relinquuntur ut sanguis sistatur vel, quod plerumque evenit, puerimiserrime moriantur. Ex illo vulnere adeo pauci convalescunt ut ex .centum pueris vix quinque vivi supersint

لقد أدرك الخديوي توفيق أهمية التعليم فأنشأ مدرسةً ثانوية لتعليم الفتيات بالقاهرة، لكن فكرته عن أخلاقيات النساء المسلمات كانت متدنية للغاية فقد رأى أنهن يتحدثن بلا توقف ويحلمن ويدبرن المكائد الشهوانية. أخبرني جلالته أن النساء في تركيا يتمتعن بقدر أكبر من الحرية، فنادرًا ما يضعن الحجاب، كما أن باستطاعتهن أيضا النزول والتجول في الشوارع وكذلك التحدث مع الرجال في الأسواق، لكنهن فُضليات. لقد قص عليّ ما حدث في السوق لرجل تركي ذي مرتبة سامية. حدث ذلك في مدينة اسطنبول حين كان الرجل برفقة أحد أصدقائه وأُعجب بفتاة فاتنة الجمال. حاول تقبيلها، لكنها استدارت في حنق شديد وسبته بأقذع الألفاظ وصرخت في وجهه مما جعله يلوذ بالفرار. قد يكون التبرير الطبيعي لمثل هذه القصة أن الرجل لم يكن ليقدم على تلك الفعلة بهذه الجرأة إذا علم أنه سيواجه هذه العفة والفضيلة، لكن الأتراك لا يفكرون في مثل هذه الحالات. أعرف تركيًا في لندن على استعداد أن يُلقي بنفسه على الأرض أمام أي امرأة حسناء في «هايد بارك» ويتوسل إليها أن تطأ مملوكها بقدميها!

إذا قلنا أن المصريات في الوقت الحالي يعشن حالة متدنية للغاية فإن الرجال ليسوا أفضل حالا منهن. انعقدت ذات يوم سباقات السباحة والرياضات المائية الانجليزية في ميناء الإسكندرية. حضر الخديوي والبلاط الملكي هذا الحدث كنوع من المجاملة. اعترت الدهشة البَاشَوات عندما لم يجدوا نساء يتابعن المسابقات؛ وأردفوا أن عقيلاتهم كن سيرحبن بحضورها ومتابعتها. وزاد أحدهم معبرا عن وجهة نظره الشرقية بصراحة فظة.[٢٤٥]

(٢٤٥) لماذا يتعين علينا أن نتابع هذا العرض طالما لا توجد مشاهدات أو متسابقات يظهرن الغنج والدلال. (المؤلف)

Cur nos, inquit, ad ejusmodi spectaculum trahimur? Adeone incesti ridemur ?

كان لدي بعض الوسائل التي تمكني من معرفة الكثير عما يجري في الحرملك. يمكنني الجزم بأن تأثير الحريم على الأطفال كان مؤسفًا للغاية، فليس لديهن أي وقار لغضاضة عمرهم ويتحدثن أمام الأولاد والبنات ويمزحن في أمور قد لا تعرفها النساء في بريطانيا. وما يقال عن النساء ينطبق أيضا على الرجال. رأى أحد البكوات متعة في تعليم الأميرين الصغيرين كل ما يفسد الأخلاق؛ بينما اعتاد آخر بذل أقصى ما في وسعه ليبث فيهم الدعة والتواكل. حضرته يوما وهو يقول لهم: « لا ترغبون في المذاكرة... لا بأس؛ أنكم أمراء ويمكنكم الاستمتاع بأوقاتكم.» كان الرجل يدرك أنني لا أفهم التركية، لكني أُخبرت بما قاله. لحسن الحظ، امتلك الأميران فكرة جدية عن ما يجب عليهما فعله. ذات يوم أصاب الوجوم الأمير الصغير «محمد علي» فامتنع عن أداء واجباته. قلت له: « عليك القيام بهذا أيها الأمير». ابتدر الأمير الأكبر، عباس بيك، معلقا: «أمير! إنه ليس أميرًا، بل فلاح.» فسألته: «لماذا تقول ذلك؟» أ

أجابني قائلاً: «لأنه متكاسل ولن يطيعك.» حين سمع الخديوي هذه القصة تعالت ضحكاته.

واستكمالاً لما كنت أرويه، أقول أن الخديوي نفسه كان لديه هلع من الحريم، ليس لمجرد الفساد الأخلاقي وحسب، بل بسبب أفكارهن الرجعية والخرافية والمغالية. أخبرني جلالته بالعديد من الأشياء الغريبة التي يصعب صياغتها بلغة محترمة.(٢٤٦) لقد خرجت إحدى شريفات القاهرة عن طوق العزلة وقررت

Feminas potius exhibendas judicamus.

(٢٤٦) تجد هؤلاء النسوة من على شاكلة «ميسالينا» في المدن كالإسكندرية حيث لا يبذل الرجل كرم الضيافة لشخص أقل منه، ولا تحفظ زوجته ولا ابنته طوق العفة؛ ويقل هذا الفحش عند الفلاحين في الريف الذي يسكنه أناس من نوعية أفضل. (المؤلف)

Domus esse in urbe quas potentiores feminae, Messalinae more, frequentent.

أن تعيش حياتها كالأوربيات. كانت امرأة متعجرفة تستأسد على زوجها دون حياء بسبب ثروتها ومقامها؛ وإذا بدا منه مظاهر الاعتراض كانت تُغري به عشرين عبدًا فيوسعوه ضربا.

علمت أن الخديوي توفيق ينتمي- مثل معظم الأتراك- إلى المذهب الحنفي. أخبرني جنابه أن أحد مبادئ هذا المذهب هو الإقرار بأهمية التعليم والتقدم؛ وأنه يعتبر الأفكار الاجتماعية والدينية قابلة للتطوير. في الجيل الماضي كانت المرأة التركية تُستهجن إذا تفوهت بكلمة فرنسية أو إنجليزية واحدة، أما الآن فالكثير من النساء يتحدثن بلغات أجنبية. كان محمد علي الكبير أكثر المصلحين حمية؛ وهناك قصة متواترة عنه أخبرني بها الخديوي يجدر ذكرها في هذا المقام. كان محمد علي متحمسا للتعليم واستمات في إقناع أهل البلد بأن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس، مؤكدا على المزايا العقلية والدنيوية للتعلم. وبالرغم أن الباشا الكبير وعد بمكافآت سخية، إلا أن دعواه نزلت على أذن صماء لأن البَاشَوات لم يستوعبوا فكرة إنفاق أموالهم على تعليم أبنائهم. بعد أن باءت محاولات الوالي بالفشل، غير سياسته فأمر أن يُسلسل الأطفال في القاهرة ويسحبوا من أعناقهم إلى التعليم الإلزامي بالمدارس.

لقد منحني الحديث عن الإصلاحات فرصةً لطالما تمنيتها منذ فترة طويلة، لذا فقد سألت الخديوي بعد ديباجة موجزة: «ألا تستطيع سموك إبطال الدوسة

Alexandriae autem apud Immillimam plebem mores vel pravissimos obtinere : quoties .enim rir amicum hospitio exceperit, nee filiae suae nee conjugis ccistitati parcere

This, however, is by no means true of the fellahin in the country districts, who are .simpler and better folk

"ميسالينا"، (١٧-٤٨ بعد الميلاد) هي زوجة الإمبراطور "كلوديوس"؛ عُرف عنها الخلاعة والانحلال حتى داخل أروقة قصر الحكم. (المترجمان)

في العام المقبل؟»، ذلك الاحتفال الفظيع الذي يطأ خلاله الفرس- وعليه شيخ الطريقة- ظهور الدراويش، والذي تطرق الحديث إليه آنفًا في متون هذا الكتاب. أجابني الخديوي قائلاً: «لا... ليس العام المقبل.» بالرغم من علم جنابه بوحشية الاحتفالات وهمجيتها، إلا أنه لم يمتلك العزم لإلغاء عادة دينية متأصلة استحوذت على مخيلة الناس. تجاسرت على الاختلاف مع سموه في الرأي فنبهته إلى أنه حاكم مصر ومن واجبه أن يحسم قضية إبطال هذا الاحتفال وعدم السماح باستمراره. أردفت منوهًا إلى أن الناس يدركون بالدليل العملي أن حاكمهم يعمل من أجل تحقيق الرفاهية؛ ولذا فلن يغضبوا. زد على ذلك أن هذا الاحتفال ليس جزءًا من ديانة المسلمين، بل مجرد بدعة محلية. أوضح الخديوي أن القلة المتعلمة ستفرح بإلغاء هذا الاحتفال، لكن الجموع الغفيرة من الجهلة سيستشيطون غضبًا وتستحوذ عليهم العصبية فتأخذهم لمنحى خطير. يجب أن نتحلى بالصبر. ربما تمكننا في غضون سنوات قليلة، سنتين أو ثلاثة، من فعل ذلك. أضاف جلالته بنبرة جازمة: «أشعر بالخزي من الدوسة وسأكون مسرورًا لإبطال هذه الممارسات.» ضربت له كمثال مهرجان «جاجاناث»[٢٤٧] بالهند ملمحًا إلى أنه قد ثبت أن المخاوف من تأجيج نار العداوة ليس لها أساس من الصحة.

عقب الخديوي قائلاً: «لقد كان هذا الاحتفال مروعاً وأودى بحياة الكثيرين، أما هنا في مصر فلا يُصاب أحد بأضرار بالغة عدا بعض الكدمات والرضوض وحسب.» حينئذ أخبرت جنابه كيف عاينت البؤساء المساكين وهم يتلوون ويعتصرون من الألم. «علق الخديوي: « الفرس ليس منتعلاً؛ أصدرت أوامر خاصة بألا يحدث ذلك.»

(٢٤٧) الإله الذي يعبده الهندوس. (المترجمان)

فأجبته قائلاً: «معذرةً! ولكني ذهبت بنفسي بعد الاحتفال ورأيت قدمي الحصان بأم عيني وتبين لي أنهما مزودتين بحدوتين من الحديد!»

ظن الخديوي أن الأمر التبس عليّ، لكني كنت متأكدًا تمامًا مما أقول. أخبرني جنابه أيضًا أنه سأل الأطباء الذين عالجوا الدراويش فعلم منهم أن الإصابات لم تتجاوز بعض الكدمات. بالطبع أخفى هؤلاء الأطباء الحقيقة. لقد وصفت المشاهد التي عاينتها بنفسي والتي لم يستطع الخديوي استجلائها من خيمته.

عرض الخديوي توفيق على شيخ الدراويش أن تجره في أرجاء القاهرة كبديل عربة بستة خيول بين صفين من الجنود، لكن الشيخ أجابَ أن الناس لن يرتضوا ذلك. لذا توقف الحديث في هذا الموضوع لفترة. عادةً ما كان الخديوي يستدعيني في منتصف الليل خلال شهر رمضان فنتجاذب أطراف الحديث لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. كانت الساعة الثانية صباحًا حين سألني ضاحكاً عما إذا كنت نويت الصيام. فأجبته: «لا يا صاحب السمو؛ وإذا صرت مسلمًا، فيجب أن يكون ذلك بعد انتهاء فترة الصوم.»

بدأ شهر رمضان في ذاك العام يوم الجمعة الموافق السادس من أغسطس، وقد علمت أنه خلال شهر الصوم لن تُقَدَّم وجبة الإفطار أو الغداء في القصر لأنه لا يجوز للمسلمين أن يشموا رائحة الطعام(٢٤٨) أو التبغ من شروق الشمس وحتى غروبها. بدأ شهر رمضان من غروب الشمس، واستُقبل بإطلاق القذائف الصوتية من إحدى وعشرين سفينة حربية في الميناء.

(٢٤٨) هذا هو أحد المفاهيم الخاطئة التي ذكرها الكاتب فيجوز للمسلمين أن يشموا رائحة الطعام خلال صومهم. (المترجمان)

في الساعة التاسعة، أقيمت مراسم الاستقبال الملكي للنخبة من أبناء البلد، والعلماء، وشيوخ البدو... وكلهم رفقة رائعة.

نُصِبَت خلال رمضان خيمة كبيرة في حدائق القصر شغلها ثلاثة أو أربعة من الشيوخ المكلفين بتلاوة آيات من القرآن الكريم طوال الليل دون توقف. تُقام طقوس يومية في المساء تُشبه إلى حد ما الصلوات العائلية بعد العِشاء مباشرةً. يؤذن شيخان[٢٤٩] من فوق درج القصر ثم يحتشد جميع رجال البلاط، والضباط، والخدم في الردهة لأداء الصلاة التي تتضمن مجموعة من الكلمات المحددة والحركات لمدة نصف ساعة.[٢٥٠] رفض صديقي تورابي بيك أن يصوم أو أن يُصلي، وكذلك فعل سليم باشا. تعرضا للكثير من المضايقات من الآخرين، لكنهما قالا صراحة أنهما لا يؤمنان بالصيام، وأما الصلاة، فقد قال لي سليم باشا: «بعد وجبة عشاءٍ لذيذة، لا أستطيع القيام بتلك التمارين البدنية.» طلب تورابي ممن ينتقدوه أن يهتموا بشؤونهم الخاصة؛ وأخبرهم أنه مسئول أمام الله وليس أمامهم عن أفعاله. كان هؤلاء المنتقدون على استعداد لتمزيقه إربًا، لكنهم في أعماق أنفسهم يبغضون الصيام والصلاة تمامًا مثل تورابي بيك.

كانت عبادتهم مجرد طقوس؛[٢٥١] ووقع في ظنهم أنهم رجال صالحون طالما يؤدون ما عليهم من عبادات وكلمات تجري على الألسنة ويعطون بضعة قروش كصدقة للمتسولين. يوجد أيضًا شكل آخر من الممارسات الورعة لا تكلف كثيرا لمن في مكانتهم مثل إطعام الجوعى وكسوة العراة مع التفوه بعبارات جميلة مثل

(٢٤٩) الأذان والإقامة. (المترجمان)

(٢٥٠) يعني الكاتب صلاة التراويح. (المترجمان)

(٢٥١) ربما أطلق الكاتب هذا الحكم بناءً على بعض النماذج التي رآها ولا ينبغي تعميمه على الجميع. (المترجمان)

« الله رحيم بعباده»، « الله يعطيك»، « الله يفتح عليك.» لم يكن لديهم أدنى فكرة عن الخطيئة، ولا عن الدين كقوةٍ روحيةٍ.

اعترض الخديوي في إحدى الليالي، على سبيل الدعابة، على عدم صيام تورابي. أبلغه جلالته بضرورة إحياء رمضان ولو بصوم يوم واحد على الأقل من أيامه. تابع قائلاً «في الواقع، آمرك يا تورابي أن تصوم؛ وإلا سأسجنك، خشية أن تنقض وعدك لي وتضعف أمام الأكل والتدخين حين تنفرد بنفسك في غرفتِكَ.» أخذ تورابي المسكين الموضوع على محمل الجد، وتوسل بطريقة مثيرة للشفقة، وأخذ يتحدث عن اعتلال صحته، وضعف أعصابه، وقواه الخائرة؛ وعندما لم تنجح هذه الأعذار في تحقيق مراده، لجأ إلى التملق قائلاً أن الجميع قد لاحظوا إشراق وجه الخديوي وبهائه الدائم أثناء الصيام، بينما تبدو وجوه الآخرين متدهورة وكالحة، أو حتى فظة. أثار المشهد بأكمله عن الكثير من الضحك.

كنت سعيدًا جدًا عندما شاهدت، عند الشاطئ بجي الرمل، غروب الشمس التي الذي أسدل الستار على رمضان، ذلك الشهر المُنهِك الذي عانى منه الجميع حيث يفقد فيه الناس كل ذرة من الطاقة والروح المعنوية ويتحول نهارهم ليل فيكون إفطارهم عند غروب الشمس وغدائهم في منتصف الليل وعشائهم قبل ساعة من شروق الشمس؛[٢٥٢] يشعرون بالخمول خلال النهار، وفاقدين للوعي، وعابسين جدًا. اضطررنا نحن الأوروبيون إلى التناوب قدر المستطاع لقطع مسافة ميل إلى المدينة لنحصل على طعامنا.

(٢٥٢) يقصد بتلر السحور. (المترجمان)

رأيت البدو في كثير من الأحايين يراقبون قرص الشمس وهو يهبط حتى آخر رمق في البحر، ليشعلوا سجائرهم ويلتهموا العنب أو التمر أو أي نوع آخر من الطعام الزهيد في حوزتهم. كان الجميع في القصر يهرعون بمجرد انطلاق المدفع لتناول وجبة دسمة، كما كانوا يحتشدون في الردهة قبل وقت الإفطار بنصف ساعة أو يزيد قليلا يقضونها في خلع واستبدال ساعاتهم وعد الدقائق وهم يتنازعون ويقيمون الحجج الداحضة على كل دقيقة؛ فالوقت يلفظ أنفاسه بصعوبة كما تعكسه الأقراص الزجاجية لأربعين ساعة. كان التثاؤب أيضًا هائلاً؛ وعندما يتثاءب الرجل يهم بتغطية فمه؛ لا لإخفاء الفعل، ولكن لمنع روح الشر من القفز في حلقه فيهمهم قائلاً: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

انبلج صباح اليوم التالي معلنا الاحتفال بعيد الفطر. حين استيقظت في الخامسة صباحًا رأيت تحت نوافذَي صفوفًا طويلة لجنود يرتدون زيًا أبيضا ملتحفين بالظلال الأخيرة من الليل. ومع شروق الشمس، لاحظت وجود مكان كبير مربع قرب درج القصر بُسِطَ فيه الحصير، وغُطي بسجاد رائع. أقيم في إحدى الزوايا منبر خشبي مكسو بقماش أحمر ومزين برايات ملكية كبيرة ومهيبة. كان العديد من الموظفين وغيرهم يؤدون الصلاة بالفعل، أما الأربعة آلاف جندي فقد وقفوا بلا حراك.

اجتمع الوزراء آنذاك وعلى رأسهم رياض باشا، وكبار الشخصيات والمشايخ. خلعوا أحذيتهم ثم تراصوا في صفوف على السجاد مولين وجوههم قبل المشرق. تُرِكَت الأحذية بالقرب من حافة الحصيرة. كانت هناك أحذية طويلة خاصة بالحرس الشخصي، وأحذية مصقولة بالورنيش خاصة بالوزراء، وأحذية صفراء

أو حمراء خاصة بالتجار. كونت هذه الأحذية شكلاً غريبًا للغاية حيث صُفت جميعًا في نظام في انتظار أصحابها.

هوى الجميع الآن على ركبهم. احتل الصف الأول العلماء ورجال الدين الذين راحوا يرتلون معًا بصوت خفيض. فجأة التحمت الفرق الموسيقية الأربعة وعزفت النشيد الخديوي؛ كما قدمت القوات استعراضًا بالأسلحة. عندئذ ارتفعت الشمس فوق جدران القصر، واعتلت أشجار السنط بينما شُوهد الخديوي ينزل الدرجات الرخامية مع حاشيته. عند نهاية الدرج كان هناك اثنان من العبيد انكبا لخلع حذائه. مشى الخديوي على السجادة وجثا عند صف العلماء الذي بدأ فيه الإمام في إقامة شعائر صلاة المسلمين. كان الجميع من خلفه يرددون كلامه ويكررون حركاته. عندما انتهت الصلاة صاح الإمام قائلاً: «السلام عليكم!» وصعد على المنبر. ظل الجميع جالسين أثناء الخطبة التي استمرت لمدة خمس دقائق وحسب.

بمجرد انتهاء الخطبة، عزفت الفرق الموسيقية من جديد ورعدت المدفعية من الحصون. مرت القوات في استعراض؛ وبدأت مراسم الاستقبال المعتادة. تعانق جميع المسلمين في هذا الصباح عند لقائهم. جاء خادمي إلى غرفتي متهللاً بكل فخر في ثوبه الحريري الجديد. حياني بإجلال حيث مَسَّ أطرافَ أصابعي بخفة، ثمّ قبّلَ يَدَّه ورَفعَها إلى جبهتِه، ومس صدره، وشفتيه، وجبهته مرة أخرى. يعد النموذج الأصلي لتحية الخديوي هو تقبيل هدب ثوبه أو تقبيل حذائه. حتى كبار بَاشَوات البلاط يفعلون ذلك بين الفنية والأخرى؛ ويعد تقبيل هدب الثوب أيضًا سمة مميزة للتحية بين النساء في الحرملك.

عندما يتحدث الأمراء الصغار مع بعضهم البعض لا يستخدمون أسماء تدليل، ولكن يستخدمون الاسم الكامل واللقب. فعلى سبيل المثال، ينادي عباس بك «محمد علي بك!» ويكون الجواب «أفندم» بمعنى «سموك».

ربما يتسع المجال لذكر بعض عادات وأفكار أهل البلد التي تعلمتها أثناء تواجدي بالإسكندرية. مازالت الخرافات الغريبة موجودة حتى لدى العائلات رفيعة المستوى. في بعض الأحيان، قبل ولادة أحد الغلمان النبلاء، تذهب والدته كل ليلة مع إحدى وصيفاتها إلى غرفة بها مبخرة على الأرض. تجلس الفتيات في حلقة حول المبخرة، ثم تخطو الأم برصانة سبع مرات فوق دخان البخور المحترق. عندما يولد الطفل يحملونه سبع مرات حول المبخرة. كان هناك نوع آخر من الكهانة في نفس المنزل. يوقدون النار واضعين فوقها مرجلاً من الرصاص المنصهر ثم تقف إحدى الفتيات التي يكون جسدها مؤمن بشكل جيد، ووجهها مغطى بقناع من الحديد، أمام النار ثم تغترف من الرصاص، وترمى به في وعاء من المياه. يتنبئون بحسن أو سوء الطالع للصبي بناءً على الأشكال التي يكونها المعدن في المياه. كانوا يحرقون أيضًا نوعًا من قرون الحبوب التي تطقطق وتفرقع بصوتٍ عال. يعتقدون أن هذا الصوت تبطل العين الحسود.

كانت عين الحسود هي بعبع هؤلاء الناس. تغطي المرأة العائدة من السوق سلتها بعناية فائقة في طريقها إلى البيت خوفًا من أن تصيب العين مشترياتها. كانت الأسماك هي الأكثر عرضة لتلك القوة الخبيثة، فإذا أصابتهاالعين تُفْقِدُها طعمها اللذيذ. للقديس جورج[٢٥٣]والتنين[٢٥٤] قدر ومكانة خاصة بين الفلاحين الذين

(٢٥٣) St. George ، القديس جرجس أو مار جرجس (٢٨٠-٣٠٣م). (المترجمان)

(٢٥٤)تقول الأسطورة انه في بلدة ما كان هناك تنين يسكن نبع الماء. اعتاد السكان إلقاء خروف يوميا

يعتبرونه تعويذة من العين الحسود. حتى الأطباء المحليون كانوا يستخدمون هذه الشخصية أيضًا في تعويذات علاج الرمد. يحظى هذا القديس المصري بالكثير من التبجيل لدى الأقباط؛ ولابد أن الخرافة العربية تعزو لفكرة مسيحية قديمة. يعتقد الكثيرون أن صاحب العين الحسود يمكنه بنظرة واحدة أن يقتل جمل. هناك الكثير من التعاويذ أو التمائم للاحتراز من ذلك؛ فأحيانًا توضع يد فضية صغيرة بين عيني الفرس؛ وأحيانًا يُوثق كيس جلدي صغير جدًا يحتوى على نصوص من القرآن الكريم حول عنق الرجل أو الحيوان؛ وقد يُوثق الخرز أو قطعة من الحُلي المزخرفة على غطاء الرأس الخاص بالطفل. بالنسبة للشخص الذي يعاني من الصداع، تُعلق قطعة من الخبز من طربوشه إلى صدغه؛ إذا احتقنت عيناه بالدم أو التهبت، فإنه يُعَلِّق قطعة من اللحم النيئ بينهما لاستخراج الحسد.

اشتهر الدجل باستخدام سحر الثعابين، لكنه كان يُدار بمهارة كبيرة. حكى لي وصفي عن محاولة قام بها لاكتشاف هذه الخديعة؛ فقد جلب بعض الأصدقاء ساحرًا محترفًا إلى أحد المنازل لطرد الثعابين منه باستخدام الرقية. قبل أن يدخل الغرفة، جردوه من ثيابه، وفحصوا كل شبر من ملابسه، كما لم يغفلوا عنه ولو للحظة واحدة. لم يستطع أن يفعل شيئًا في الغرف المضاءة بشكل جيد، ولكن في غرفة مظلمة نفَّذ تعاويذه بنجاح مبهر واستخرج ما لا يقل عن سبعة ثعابين طويلة، خرجت وهي تهسهس واحدة تلو الأخرى من تحت الأثاث. قال واحد من المجموعة فجأة «أود فحص هذا الثعبان». أمسك به على الرغم من تحذيرات الساحر المستميتة أن لمسه يؤدي للموت. تبين له في الحال أنه ثعبانًا

ليخرجوا التنين من العين ويحصلون على حاجتهم من المياه. عندما نفدت الخراف راحوا يضحون بشخص حسب القرعة. جاء الدور على الأميرة. مر قدرا الفارس الروماني جرجس فقتل التنين وهو يرفع الصليب. كافأه الملك؛ واعتنق السكان المسيحية. (المترجمان)

جبليًا، وليس منزليًا؛ ولم تكن له أنياب. ظل اللغز هو كيف تمكن الساحر من اصطحاب حيواناته الأليفة إلى داخل المنزل. في غمار حيرتهم، انقضّ الشباب على الرجل وطرحوه أرضا، وهددوا بضربه بالعصا ما لم يكشف لهم السر. انتحب الرجل وولول بشكل مثير للشفقة، وقال إنها مهنته، وإنه ليس لديه وسيلة أخرى لكسب قوته، حتى تأثروا بدموعه، وأطلقوا سراحه وتَركوه يُغادرُ دون إماطة اللثام عن سِرِّه.(٢٥٥)

يَعتقدُ العرب أن نهر النيل ينبع من الجنة، بينما يؤمن الأتراك في مصر والمسلمون بشكل عام بفكرة أن الأرض تَرتكز على قرني ثور.(٢٥٦) يقولون أنه عندما يسخط الله على الثور، فإنه يتحرك باضطراب فتتزلزل الأرض. أما الاستفسار عما يرتكز عليه الثور فيعتبر سؤال سخيف وآثم، فعقيدة المسلم لا تمنحه ولو حتى موضع صغير لموطئ قدميه. يبدو أن أفكار فيرجيل(٢٥٧) أسمى من ذلك حين قال بأن أطلس يحمل الكرة الأرضية على كتفيه. قال أحد البَاشَوات وقد أطلق لحية رمادية: «كيف؟... إذا تحركت الأرض حول الشمس، ستتطاير جميع الأواني والأوعية! إن الكفار فقط هم من يروجون مثل هذا الهراء؛ لعنة الله عليهم!»

حكت لي سيدة إنجليزية أن زوجة أحد المواطنين المرموقين أرتها صورة لحيوان غريب، حصان لديه أربعة أجنحة، وله رأس وصدر أنثى، ومُزين بالكثير من العقود المرصعة بالحلي؛ ثم قالت لها «انظري، هذا هو الحصان الذي سيحملني إلى الجنة.» جاءت إجابة السيدة الأجنبية: «ياه! يا له من

(٢٥٥) تُسمى هذه الطائفة في مصر بالرفاعية. (المترجمان)

(٢٥٦) هذه الفكرة مستقاة من حديث باطل (غير صحيح) وفقًا لما ذكره ابن القيم في كتابه «المنار المنيف في الصحيح والضعيف». (المترجمان)

(٢٥٧) شاعر روماني صاحب الإنياذة أو الإلياذة، ٧٠ – ٢١ قبل الميلاد. (المترجمان)

حيوان جميل، وهل سأذهب إلى الجنة على حصان مثل هذا؟» فأجابتها زوجة المواطن المصري: «في الواقع لا... أنت كمسيحية ستكونين محظوظة إن ذهبت إلى هناك على ظهر حمار.»

يعتقد معظم البَاشَوات بالبلاط أن السماء تشكّل سقفا صلبًا للعالم، وأن النجوم هي مجرد علامات تدل على أقدار البشر. لذا عندما شاهدوا نيزكًا صاحوا قائلين: «مات رجل آخر.»

وفي معرض الحديث عن الأمور التي تتعلق بالفلك، يجدر بي أن أسجل تعبيرًا رائعًا جدًا كان مستخدمًا بين اليونانيين المعاصرين. كانوا يقولون عند غروب الشمس (εβασιλείας)، ومعنى الكلمة أن نفوذه قد انتهى؛ يستخدمون أيضا نفس التعبير عند الموت والمغزى أن مملكته قد افلت.

ذات مساء، بينما كنت أتناول وجبة العشاء، دخل أحد الخدم مذعورًا مشيرا إلى أن شيئًا مروعًا قد حدث للقمر فتحول إلى لون الدم وخفت الضوء الصادر عنه بالرغم من ارتفاعه في السماء.

خرجت لألقي نظرة فإذا بالقمر قد انشق إلى ثلاثة أجزاء غائمة خُضبت جميعا بحجاب وردي قرمزي جميل، ملقيًا بظلالٍ خضراء وصفراء شاحبة. قال أحد العبيد: « يعلم الله وحده سبب ذلك.» ارتفعت صيحات مطولة في كل محيط القصر، وبالقرب من الثكنات واختلطت بقرع الطبول وصليل آلات حديدية، بينما انكب العلماء هنا وهناك على الدعاء. سألت مكاريا في وقت لاحق من تلك الليلة عما يعنيه كل ذلك، فأخبرني أن القمر يصنع هذه الصور مرة كل عام ليسلي نفسه.

فيما بعد، عندما كان في مزاج أكثر جدية قال: «إن الله يغطي القمر بالدم،[٢٥٨] فيبتهل الناس بالدعاء ويصلون، ثم ينتهي الأمر».

تُغطّي المسلماتُ رؤوسهن ووجوهُهن[٢٥٩] عندما يؤدين الصلاة، ويحرم عليهن أن يطلع أي رجل على شعرة واحدة من رؤوسهن في أي وقت من الأوقات. بالطبع يكشفن أعينهن أثناء المشي، ولكنهن يحرصن بشدة على عدم ترك الفم مكشوفًا.

تُرسل الأمهات الموسرات في كثير من الأحيان الأطفال المرضى لزيارة عدة مساجد، حيث يمكن رقيتهم في الأماكن المباركة. غالبًا ما توضع يد الطفل على ضريح له قداسة خاصة أثناء التضرع بالدعاء. وعلى الجانب الآخر وحتى في أرقى المنازل، هناك أمهات قاسيات بشكل كبير ينزلن بالأطفال والعبيد نوع وحشي من العقاب يتمثل في تقييد يدي المذنب معًا بإحكام، ثم تُرفعا فوق رأسه بحبل قوي مثبت بخطاف في الجدار. أبلغني الخديوي أنه نال هذه العقوبة في طفولته مرتين لمدة سبع ساعات متصلة.[٢٦٠]

روت سيدة أوروبية أنها عندما كانت تزور إحدى السيدات المصريات ذات مرة، وجدتها تذرف الدموع. عندما سألتها عن سبب بكائها فأجابتها قائلة: «أنا حزينة لأن زوجي لم يعطني سمكة».

«لم يعطك سمكة!؟ ولكن لماذا تريدين سمكة؟»

---

(٢٥٨) ربما يقصد الكاتب أن يشير إلى حدوث ظاهرة خسوف القمر حيث يُصلي المسلمون صلاة الكسوف (عند كسوف الشمس أو خسوف القمر) حتى ينجلي الأمر. (المترجمان)

(٢٥٩)هذا هو أحد المفاهيم غير الصحيحة التي ذكرها الكاتب فلا يجب على النساء المسلمات تغطية وجوههن أثناء الصلاة بل يكره ذلك؛ وقد يكون النساء قد اعتادوا على فعل ذلك آنذاك. (المترجمان)

(٢٦٠) تُسمى هذه العقوبة بالتذنيب. (المترجمان)

« يا إلهي، ألا تعرفين أنه في بداية كل عام يعطينا أزواجنا السمك كإشارة إلى أنهم لن يطلقونا خلال هذا العام... وهذه المرة لم يعطني زوجي شيئًا!» لم يذكر لين هذه العادة الغريبة ولا يبدو أنها معروفة للمقيمين في مصر.

عندما كنت في الإسكندرية شاهدت استقبال القنصل العام اليوناني الجديد، م. رانجاب.[٢٦١] بدأ النظام المعتاد للاحتفال بأن أرسل الخديوي مركبتين رسميتين لإحضار القنصل من الفندق الذي يقيم فيه إلى القصر حيث اسْتُقْبِلَ بالموسيقى والتحية العسكرية. بعد ذلك دُعي القنصل للمثول أمام الخديوي فوقف يقرأ خطابًا رسميًا، ثم قدم له أفندينا ردًا كتابيًا ودعاه إلى الجلوس.

عندئذ قُدِّمَت القهوة ومعها الغليون الوطني، الشبوك وليس النرجيلة. في الأيام العادية لا يُرى غير السجائر أو السيجار في القصر، لكن الخديوي لم يخالف القاعدة التي ألزمها لنفسه بعدم التدخين حتى في المناسبات الرسمية. بعد تبادل بعض الحديث قدم الخديوي للقنصل سيفًا ذا مقبض ذهبي؛ وانتظره بالخارج حصان عربي مكسو بغطاء مزركش وفق الذوق المحلي، وعليه سرج مرتفع الظهر وغطاء مطرز، وزمام بديع. وفقًا للتقاليد القديمة تُمنح هذه الهدية المكونة من السيف والفرس على وجه التحديد.

وبالمناسبة، يمقت الشرقيون بشدة همز الحصان؛ فقد كانت فكرتهم عن الكمال فيما يتعلق بركوب هذا الحيوان هي التمايل الثابت للأرجل الأمامية باستقامة واستواء شديدين لدرجة أن الراكب قد يشرب فنجان من القهوة في منتصف الخبب دون سكب قطرة واحدة. يحصلون على هذه النتيجة بتدريب الفرس على الخبب مع وجود أوزان رصاصية ثقيلة حول أرجله الأمامية. يحمل

(٢٦١) M. Rhangabe.

الحصان (الذي يسمى بالتركية رهوان) سرجًا غليظًا ومريحًا، ويمتطيه أحد الباشوات السمان المنعمين دون أن يهتز. هذا النوع من الخيول باهظ الثمن لا يفوقه في السعر سوى حصان الجر الذي تُعلق عليه مساند خشبية مربوطة بعجلات. في الحقيقة، إن امتطاء حصان يجر مركبة ذات أربع عجلات وعليها مقعد بمسندين هو الشكل المثالي للفروسية التركية.

مثلت بعض الممارسات الأوروبية، وليست إنجليزية لحسن الحظ، الحبة الأخيرة في هذا العقد من العادات المتنافرة؛ فقُبَيْلَ نهاية سبتمبر تصل أسراب السمان يوميًا بأعداد كبيرة من ناحية البحر؛ لتحط بعد شروق الشمس مباشرةً محدثة طنينًا كصوت طيور الحجل في اندفاعها.(٢٦٢) تخور قواهم بعد رحلتهم الطويلة لدرجة أنهم في كثير من الأحيان لا يتمكنون من التوقف أو التوجيه، فيصطدمون بالجدران والمنازل. عندما تهبط الطيور بسلام، تسعى للتواري بين النباتات البرّيةِ أَو الشجيراتِ بالقُرْب من البحر فتستريح هناك ليوم كامل لتستعيد قوتها. لكن البدو ينشرون شباك طويلة مرتفعة على الشاطئ ومحكمة النسج بدرجة كبيرة بحيث تعلق طيور السمان فيها من رقابها. بعد ذلك يستخلصونها وهي على قيد الحياة ويقومون بتوريدها بالجملة للرياضيين بحي الرمل. تمثل رحلة الصيد بهذا الحي مشهدًا غريبًا؛ فعادة ما يجري الصيد يوم الأحد في حديقة أو فناء مُسيَّج. يجلس الجميع على المقاعد، بما في ذلك السيدات، اللاتي يحضرن لتشجيع فرسانهم في تلك الهواية الرجولية. يُلقي البدوي السمان الواحد تلو الآخر في الهواء، ويأخذ كل فرد من الرياضيين دوره في التسديد، متجنبا بالطبع الجهد غير الضروري للقيام من مقعده. تصير

(٢٦٢) Partridge، طائر مستوطن متوسط الحجم لا يميل إلى الطيران. يضع نحو عشرين بيضة يبني لها عشا بين الأحراش والشجيرات. (المترجمان)

الإثارة أكثر حماسًا بالمراهنة، كما تحيط بالمضمار حفنة من الرجال القساة لذبح الطيور الهاربة. يعد هذا النوع من الصيد التتبعي من الأمور المبهجة لصيادي الإسكندرية من اليونانيين، والفرنسيين، والإيطاليين.

ذهب الخديوي إلى القاهرة في نهاية شهر يوليو لمدة يوم واحد لحضور قطع الخليج[٢٦٣] كي يتدفق عبره فيضان مجرى النيل، ولكن فيما عدا ذلك لم يفارق جنابه الإسكندرية. قال لي أن الاحتفال بإلقاء دمية من الطين في الماء يأتي وفق العادات الموروثة.[٢٦٤] تحكي الأساطير أنه في العصور الغابرة كانت تُلقى إحدى العذراوات في النيل ليفيض مائه،[٢٦٥] إلا أن الخليفة عمر ألغى تلك الطقوس الوحشية. أضاف الخديوي أن المؤرخين العرب لم يسجلوا غير الأخبار الجيدة عن عمر؛ فعلى سبيل المثال، ينفضون يديه من حرق مكتبة الإسكندرية العظيمة ويحملون الإغريق وزرها وتبعاتها!

مضت حياتي بسلاسة، إلا أنها ازدادت إثارة كلما زادت معرفتي بالخديوي المعظم. عرضت على جلالته في إحدى الليالي بيانًا استثنائيًا ألقاه السيد جلادستون في البرلمان الإنجليزي بتاريخ ٢٣ يوليو ١٨٨٠ جاء فيه: « ليس هناك ما هو أسوأ من الوضع في مصر بسبب سوء الإدارة وغياب الضمير. ومع ذلك فهناك بصيص من الأمل يدعمه خلوها من شرور الهيمنة الدينية.»

اندهش الخديوي، بل قل انزعج حين سمع ذلك. وافقته الرأي أن البيان جائر بعد كل ما تم فعله في الآونة الأخيرة من إدارة وتسييس جيدين. بدت الفقرة الأخيرة غير مفهومة: «لا توجد هيمنة دينية في مصر!» أنهى الخديوي

(٢٦٣) توجد في القاهرة منطقة تُسمى «فم الخليج». (المترجمان)

(٢٦٤) أسطورة «عروس النيل». (المترجمان)

(٢٦٥) يسميه المصريون «وفاء النيل». (المترجمان)

هذا الموضوع قائلا: «يجب أن يرى السيد ماليت هذا التقرير الذي لا يتسق مع الرسائل التي يبعث بها.» تابع جلالته قائلاً: «إن لديه رسائل عديدة من القسطنطينية تكشف المشاعر العامة المريرة جدًا تجاه السيد جلادستون، في حين أن الروس جد سعداء بالسياسة الإنجليزية». في تلك اللحظة على وجه التحديد كانت هناك سفينة حربية روسية في الميناء، أخذ ضباطها موعد لزيارة الخديوي في الصباح. عندما خاطبهم الخديوي باللغة الفرنسية، فغروا أفواههم من الدهشة حتى أن أحدهم قال: «يا للروعة، تتحدث جنابك الفرنسية بشكل ممتاز!» كما أظهروا إعجابهم أيضًا بأبهة القصر وأثاثاته. كادوا يثبون من مقاعدهم كلما تحدث الخديوي بالانجليزية؛ ويبدو أنهم فقدوا السيطرة تماما على تصرفاتهم.

وبالعودة للحديث عن السلطان،[٢٦٦] عاش عظمته في تلك الأوقات تقريبًا في ذعرٍ مستمرٍ. يمكث مع وزرائه حتى الساعة الخامسة صباحا بصفة يومية، ويجري المشاورات المطولة مع منجميه بشأن استسلام يانينا[٢٦٧] والأراضي التي مُنِحَت إلى اليونان في مؤتمر برلين.[٢٦٨] أقر المنجمون بإخفاقهم في قراءة المقدرات مما جعل السلطان ينفجر من شدة الغضب. عقب الخديوي: «بالرغم من كل هذا، هناك أمر واحد جلي، وهو أن تأثير الإنجليز قد صار في أدنى مستوياته.» ذكر الخديوي أن السلطان يدعم أحد الصحف الحكومية التركية تنشر مقالات تحريضية ضد الحكم الإنجليزي وتوزع على المسلمين في الهند، وأضاف أن جميع أعضاء البلاط التركي يناصرون روسيا.

(٢٦٦)عبد الحميد الثاني، ١٨٧٦- ١٩٠٩. (المترجمان)

(٢٦٧) Janena، يانيه، مدينة يونانية تقع في شمال غرب البلاد، وهي عاصمة منطقة «إبيروس» الإدارية. (المترجمان)

(٢٦٨)عُقد عام ١٨٧٨. (المترجمان)

ناقشنا مستقبل الحكم التركي، وتوصلنا إلى نتيجة عقلانية فحواها، كما صاغها توراني بيك، «أن أيام السيادة التركية باتت معدودة!»[٢٦٩] أعرب الخديوي في هذا الصدد عن أمله في أن تظفر مصر بالاستقلال وتسير على منوال بلجيكا. أسهب عظمته كثيرًا في تناول هذا الموضوع.

في ذاك التوقيت كان التصريح الخاص بزيارة أخت الخديوي لإسطنبول قد رُفض لأن الأتراك أوجسوا خيفة من أن يكون مجيئها لزرع الفتنة وليس للنقاهة.

وردت رسالة آنذاك من تلك المدينة تخبر الخديوي بأن أحد العلماء اعتلى المنبر، وخطب بصوت جهوري ضد ظلم وقهر الحكومة. سمعت به السلطات فأرسلت رجالها على الفور لإنزاله. قال لهم: «توقفوا، لدي ثلاث كلمات أخرى» ثم صاح بصوت عال للمصلين في الأسفل: «يا سلطان الإسلام، استمع إلى كلماتي!إذا لم تُصلّحُ حكومتَكَ وتَعْدلُ، ستهلك أنت وإمبراطوريتك.» بعد القبض عليه تساءلوا «ماذا نفعل به؟» أراد السلطان نفيه، علق سعيد باشا «لا... فإنك إن فعلت هذا سيتدخل السفير الإنجليزي.» دعونا نفشي أنه مختل عقليا، ونكمم فاه بالزج به في مستشفى الأمراض العقلية. لا يراودني أدنى شك أن الرجل المسكين لا يزال هناك ما لم يكن قد وافته المنية. جاء في نفس الخطاب أن المنجمين تنبئوا بنذر شر يحيق بالسلطان لأنه ليس مسلمًا حقيقيًا؛ كما تنبئوا بأنه سيقتل جميع المسيحيين.

(٢٦٩) بعد سبعة وثلاثين عاما تقريبا من هذا الحوار ومع نهاية الحرب العالمية الأولى في ١٩١٨ أعلنت وفاة رجل أوروبا المريض، وهو اللقب الذي أطلق على الإمبراطورية العثمانية. (المترجمان)

كان من المعتاد أن يزور خديوي مصر - بعد وقت قصير من توليه العرش- السلطان لتقديم فروض الولاء، لكن لجنة مراقبة الديون حالت دون إتمام هذه الرحلة بسبب الإكراميات الهائلة التي يَجِبُ أَنْ تُعْطَي للبَاشَوات أصحاب المقام الرفيع وحاكمهم في اسطنبول. تصل التكلفة إلى خمسمائة ألف ليرة في شكل هدايا خالصة. كان على الخديوي وأسرته أن ينثروا الماس والياقوت النقي بشكل عشوائي على أعضاء البلاط المتلهفين، ومنهم من يشبه النباتات الضخمة لا ترتوي إلا بنهر كامل من الذهب. أراد الباب العالي، فور تولي توفيق الحكم، إلغاء لقب الخديوي وعودة والي مصر إلى مجرد حاكم إقليم، لكن أصحاب النفوذ اعترضوا على الاقتراح. تلقى توفيق أخيرا عرضًا بصدور فرمان إمبراطوري مقابل عشرين ألف ليرة. رُفِضَ العرض بشدة؛ وأُرسل ردًا يفيد بأن زمن الإكراميات قد ولّى. ألمح ذوي النفوذ إلى أن مصر قد تعلن استقلالها حتى لو لم يكن في القريب العاجل، فحسم هذا الطرح مسألةَ الفرمان.

تلقى الأمير إبراهيم، شقيق الخديوي(٢٧٠) تعليمه في مقاطعة ولويتش،(٢٧١) وكان شخصًا محبوبًا وذا شعبية. كان إبراهيم متحمسًا آنذاك للعودة من انجلترا إلى مصر. أبرقَ اللّوردَ جرانفيل(٢٧٢) يسأل السير مالت عما إذا كان من الممكن الحصول على الإذن. أحال الخديوي المسألة إلى رياض باشا الذي رأى أن عودة إبراهيم خطرا على البلاد. ما يثير الدهشة، أن هذا الرد أثار حفيظة إبراهيم باشا على إنجلترا، لذا غادرها حانقا إلى باريس. في الوقت نفسه خطب داوود

(٢٧٠) إبراهيم حلمي، أمه جانانيار هانم. (المترجمان)

(٢٧١) Woolwich، مقاطعة جنوب غرب لندن. (المترجمان)

Granville(٢٧٢)، وزير الخارجية البريطاني، ١٨١٥ – ١٨٩١. (المترجمان)

باشا أميرة مصرية على خِطبة إبراهيم باشا بها. وكان قد خُصص لهذه الأميرة عشرة آلاف ليرة في السنة.

مثل المخطط لزراعة أراضي الدائرة في شهر أغسطس إكراهًا وقحًا جدًا للخديوي من قبل مدبريه البريطانيين. أعرب أحدهم كتابة بالتضامن مع مصرفي ألماني عن حاجته لعقد إيجار بنصف الأرض فقط. هدد باستخدام نفوذه ضد الحكومة المصرية في حالة الرفض لأنه رئيس حزب كبير في إنجلترا على حد قوله؛ وأن القنصل الإنجليزي، والبرلمان الإنجليزي، ومجلس الوزراء الإنجليزي، جميعهم رهن إشارته. هدد بإسقاط الخديوي في نهاية المطاف. أوعزت لجناب الخديوي بأن يدير ظهره لهذه الثرثرة الفارغة ذلك لأن الوزراء البريطانيين ليسوا مستعدين لترويج مشاريع خاصة أو اتخاذ تدابير صارمة أو جائرة لإتمام مثل هذه المشروعات. على النقيض من ذلك، ألمح إنجليزي آخر مهتم بالمشروع لتورابي بيك بلغة محتدمة أنه إذا لم يمتثل نظار الحكومة المصرية فإنه سيطيح بهم، ويدمرهم، ويمزقهم إربًا. بالطبع ذكر تورابي بيك ذلك للخديوي. مما زاد الأمر سوءًا تلك الضغوط الرسمية القوية التي مورست مرة أخرى لدعم مشروع زراعة أراضي الدائرة، كما ذكرت آنفًا. ومع ذلك، فشل المخطط وأخفى مروجي المشروع إحراجهم فأصدروا تقريرًا يعزو النظار للمشروع إلى عدم وجود رشاوى كافية. كان هذا التقرير زائفًا وعارٍ عن الصحة.

في الحقيقة، كما قال الخديوي، ولت أيام الإكراميات في البلاط. أكد لي عظمته أن مراسل إحدى الصحف الكبيرة في لندن، والتي لديها ذعر شديد من الاستخبارات، عرضت كتابة بعض المقالات المؤيدة لسموه ولنظامه مقابل راتب شهري متواضع قدره ٢٠٠ ليرة. رفض الخديوي رفضًا باتًا معربا عن أنه لا

يخاف الحقيقة، ولا الأكاذيب. في موقف آخر عرض مسئول ألماني، يتمتع بمنزلة في مصر، استيراد بعض الخيول الجيدة للخديوي، وهذا يعني، بطبيعة الحال، بذل مبلغ بسيط كعمولة. رُفِضَ هذا العرض مع إبداء الشكر. أشار الخديوي أثناء روايته لتلك القصص قائلاً: «بدأ المتسولون يدركون أن الأوضاع قد تغيرت، وأن فرصهم صارت محدودة الآن.»

ولكن إذا كان النظار قد ترفعوا عن الفساد في بعض الأمور، إلا أنه حازوا بعض الأفكار الرجعية بشكل غريب كما سيتضح من القصة التالية.

ضُبِطَ فكري باشا، وزير العدل، وهو يبعث برسائل إلى زوجة أحمد بيك نشأت، ابن شقيق المفتش المقتول. كان أحمد شابا بهي الطلعة يعمل في خدمة الخديوي؛ وكانت زوجته، التي قيل أنها رائعة الجمال، جارية للخديوي إسماعيل الذي تعامل معها بلطف حتى بعد زواجها. في يوم قارب منتصف شهر أغسطس كان فكري مستقلا مركبته في شارع شبرا مع صديق له، فاقترب أحمد من العربة. بعد توجيه بعض الكلمات الغاضبة، وجّه لفكري عدة ضربات عنيفة على وجهه بالعصا. بالطبع يستحق ما فعله الثناء، إلا أنه أمر غير مألوف في مصر.

استحسن الرأي العام عالميًا شجاعة أحمد، إلا أن فكري باشا وزملائه في مجلس النظار لم يتقبلوا الأمر. في السادس والعشرين من أغسطس جاء مجلس النظار لرؤية الخديوي. كان العالم بأسره ينادي باستبعاد فكري باشا من منصبه، لكن الوزراء لم يأتوا للاستماع إلى قرار الإقالة فقط. هددوا بتقديم استقالات جماعية إذا لم يُرسَل أحمد إلى المنفى أو يسجن في السودان،

(وهو ما يعني الموت)! سلم رياض باشا بأنه إذا لم يُنَكّل بأحمد، فإن أي شخص قد تسول له نفسه بضرب وزير لعلمه أنه سيفلت من العقاب.

هكذا كان رأيهم في العدل وفي صون المحارم الخاصة. كان المأزق خطيراً، لأنه لم يكن هناك من يحل محل فكري باشا غير شريف باشا الذي لن تتحمله السلطات. ورغم ذلك رفض الخديوي المقترح الوحشي بإرسال أحمد إلى السودان.

كنت واثقًا أن التهديد بالاستقالة مجرد سلاح للضغط، ومن ناحية أخرى، كان من الواضح أن الستار لا يجب أن يسدل على فكري باشا في وضعية المنتصر البريء المجروح. لذا تم الاتفاق على فصل أحمد من الدائرة، وتعويضه بعد ذلك بوقت قصير بوظيفة أخرى. في نفس الوقت أُرسلت أوامر إلى فكري باشا، مفادها أنه، على الرغم من احتفاظه بمنصبه، قد حل عليه سخط الخديوي، كما أنه يُحظر عليه الاقتراب من البلاط بدون تكليف خاص لمدة ثلاثة أشهر.

أثارت تلك الواقعة بطبيعة الحال نقاشًا بشأن نظام الحريم في حفل عشاء كُنْتُ متواجدًا به في حي الرمل. كان بين الحضور المراقب المالي الانجليزي الذي ذكر أن الهندوس، مثل المسلمين، يحرسون نساءهم بدقة شديدة ولكن بدون خِصي. أضاف أن نظام الفصل في الهند يبعث على الاطمئنان بشكل أكبر.

تجادل بعض الضيوف حول زيارة السيدات البريطانيات للحرملك في مصر(٢٧٣) واعتبارها خطأ لأنها اعتراف ضمني بهذا النظام المعيب، بينما رأى

(٢٧٣) منهم صوفيا لين بول التي كتبت «رسائل من القاهرة» ١٨٤٢-١٨٤٦ ولوسى دف جوردن مؤلفة «رسائل من مصر» ١٨٦٢-١٨٦٩... الخ (المترجمان)

آخرون أنه لابد لنموذج الحرية الإنجليزية أن يلعب دوره المنوط به في التصدي للعصبيات المحلية. بالنسبة لي، أعرف عن حياة وعادات الحريم أكثر من أي شخص آخر وسط الحاضرين حيث كانت لدي مصادر خاصة لاستجلاب المعلومات، وبالرغم من ذلك فقد تحفظت في الإدلاء بدلوي في المناقشة لأسباب واضحة.[٢٧٤] أرى أن السيدات الإبخليزيات لا يفقدن احترامهن لأنفسهن عند القيام بهذه الزيارات خاصة إذا علمن ما يجب عليهن فعله. من الجائز أن يُحسدن على نموذج الحرية تلك، لكن يشق على عقل المسلم الربط بين الحرية والفضيلة.

عدت من حي الرمل إلى قصر رأس التين في منتصف الليل، في الوقت المناسب تماما حيث طلبني الخديوي. وجدته يجلس بمفرده، لكن بعد قليل دخل تورابي بيك، ومعه مقال من جريدة «بول مول جازيت»[٢٧٥] عن «النهضة الحديثة في مصر>>. قرأ الخديوي هذا العنوان بصوت مرتفع، ثم أعاده باللغة الفرنسية، جملة جملة، للتأكد من إصابته للمعنى، وعند العبارة التي تقول «يؤدي هذا إلى الاعتقاد بأنه يكره الأوروبيين»، صاح بقوة «هذا ليس صحيحًا... ليس صحيح بالمرة... أنا لا أكره الأوروبيين!» على أي حال كان جلالته راضيًا بشكل مجمل عن المقال، خاصة فيما يتعلق بجهوده الصادقة من أجل تطبيق العدالة.

استمرت مناقشة الموضوع لبعض الوقت، وعندما سنحت الفرصة، طرقت بابا آخر، وهو قسوة المواطنين تجاه الحيوانات. أقر الخديوي في الحال أن هناك حاجة ماسة إلى إحداث تغيير كبير جدًا في الانطباعات تجاه هذه القضية.

(٢٧٤) يقصد بتلر أنه يعمل في معية الخديوي. (المترجمان)

(٢٧٥) The Pall Mall Gazette، جريدة مسائية صدرت في لندن عام ١٨٦٥. (المترجمان)

فقلت له، أن الطريقة التي تُعامل بها الحمير وحشية جدًا فهم يعانون من ضيق اللُجُمُ، ومن العصي الثقيلة المستخدمة لحثهم على السير بسرعة. كانت المعلومات بديهية بالنسبة له، بل أنه أضاف أن العديد من الفتيان يستخدمون عصي قصيرة في نهايتها مسمار حديدي عند ركوب السيدات، لأنه يتعين عليهم جرها من الأمام في هذه الحالة عوضا عن ركوبها.

رأيت ذات مرة في إحدى الممرات مصريا يحمل عمودًا متوازنًا على كتفيه. عُلقت في كلا الجانبين حوالي دستة أو يزيد من البط الحي مربوط من الساقين. تُعامل القطط بلطف على وجه العموم، أما الكلاب فإنها ضالة وهائمة في المدن. تعيش في عشائر يستأثر كل منها بحي في البلدة وتستبسل بشدة حين يقتحم مناطق نفوذها كلب من عشيرة أخرى. تمثل هذه الكلاب نموذجا لكل ما هو مزري ومزدرى في العقل العربي- كما تعكسه العبارات المألوفة، «ابن كلب مسيحي»، و»ابن كلب يهودي»، وما شابه ذلك.

يلخص الاقتباس التالي والمفضل لدى الأهالي هذا الابتذال بشكل أنيق: «كما يقول الشاعر: هو الكلب وابن الكلب والكلب جدّه / ولا خير في كلب تناسل من كلب.[٢٧٦] في أيام قصف الإسكندرية غالبًا ما كان العربي يُرى في القاهرة يجر كلبًا بسلسلة مثبتة حول عنقه، ويقف في زوايا الشوارع يضرب الحيوان المسكين بوحشية باستخدام عصا، صائحا بأعلى صوته، «أيها الكلب الملعون سيمور! يا كلب الكلاب، سيمور[٢٧٧]!»

لكن بينما تكتسب الكلاب التي تقتات على القمامة القدرة على تحمل الركل، لا تتعرض بعض أنواع الطيور، مثل اللقالق وطائر الحدأة، للهجوم؛ في حين

(٢٧٦) البيت للحطيئة. (المترجمان)

(٢٧٧) Admiral Simur، الأدميرال سيمور، قائد الأسطول البريطاني. (المؤلف)

أن طيور أخرى في مصر، مثل طائر أبو منجل والهدهد، تنعم بالحماية بسبب خرافات تقضي بأن الأرواح الراحلة تحل بها. لكن على وجه العموم، يفتقد العرب للتعاطف تجاه الحيوانات. يذهب الصبر والحلم الذي يظهره المصري للذباب والطفيليات الضارة التي تجتاح جسمه. للمصريين طرق غريبة للتعبير عن الأشياء أو الإتيان بها، طرق لا تخلو من الدعابة تصرف عن المرء غضبه في كثير من الأحيان.

رأيت ذات مرة حمار مكاري يَتّخذُ منعطفاً خاطئاً. أسرع الصبي إلى الأمام، وأمطر الحمار بوابل من اللكمات حول عينيه، متعجبا: «آه... يا ابن الكلب، منذ متى وأنا أعلّمُك شوارع القاهرة؟»

تَمنّى الخديوي تنوير وتثقيف أهل البلد. تحدث بحماس يعكس اهتمامه بالأمر. كانت الساعة الثانية صباحًا، ودعاني انطلاق مدفع السحور للانصراف.

نسيت أن أعرج على إحدى سمات الحياة الشرقية التي تعطيها مسحة من لمسات ألف ليلة وليلة. أعني بها راوي البلاط الذي يجتهد في الليالي الرمضانية الطويلة في مزاولة مهنته. عندما كنت ألبي دعوات منتصف الليل لزيارة أفندينا، كنت أجد الراوي، عثمان، معه في اغلب الأحيان، يحكي أو يقرأ القصص. كان لديه قائمة بعناوين القصص دونت في ورقة ؛وكان يمر خلالها ليختار الخديوي القصة التي يفضلها. على كل حال لم تدم تلك التسلية طويلاً، فسرعان ما تقاعد عثمان.

أتذكر على وجه الخصوص في إحدى الليالي قرب نهاية إقامتي في الإسكندرية، مشهدا من أكثر المشاهد المحفورة في ذاكرتي. استُدعِيت بعد

منتصف الليل مباشرة، فوجدت الخديوي في الهواء الطلق بالشرفة الكبرى خارج قبة الرواق التي يقبع تحتها صالون رائع. تعتبر القبة معلما مألوفا لكُلّ من يدخل ميناءَ الإسكندرية في أي وقت. أرضية الغرفة مطعمة بالعاج والأبنوس والصندل والخشب، وأما أرضية الممرات فمن الباركيه المصنوع من خشب باهظ الثمن. لكن ما يستقر في الذاكرة هو بهاء تلك الليلة الصيفية. تطل الشرفة على الميناء الكبير، الذي كان آنذاك مُضاءً بنور القمر. لم يكن هناك ما يفوق الجمال الصامت لصفحة المياه المنبسطة المُسلط عليها البدر فتسبح في خيلائه الأشكال الضبابية للسفن الكبيرة عن بعد، وعلى اليسار تصطف المنازل البيضاء والمآذن التي تلمع كمدينة في أرض الأحلام.

قال الخديوي في مقارنة بين القاهرة والإسكندرية وهو يُشير بفخر إلى هذا المنظر الرائع، «أين يمكن أن تجد شيئًا كهذا في القاهرة؟» لقد كان الخديوي عاشقًا جدًا لمدينة الإسكندرية، بينما كان كل البَاشَوات والناس حوله يتوقون بشدة إلى القاهرة. تحدث الخديوي، خلال هذه المقابلة، وهو يمشي في الشرفة ذهابً ومجيئًا عن بعض الموضوعات الهامة وعن مواضيع أخرى لغرض التسلية، بعضها سُرَد في مواطن أخرى والبعض الآخر في طي الكتمان.

ولكن أخيراً، حتى بالنسبة للبَاشَوات، دق ناقوس نهاية مكوثنا في الإسكندرية، وفي السادس عشر من سبتمبر عاد البلاط الملكي إلى القاهرة.

تلقيت تعليمات بالتواجد على المحطة في السادسة صباحًا. حصلت بشق الأنفس على قطعة من الخبز الجاف وقدح من الماء للإفطار. وصلت إلى المحطة في الوقت المحدد. هناك تحتم عليّ الانتظار لمدة ساعتين حتى الثامنة لحين قدوم سمو الأميرة التي كنت أسافر في حاشيتها. كان معي في المقصورة المسئول قائد

خيالة الخديوي وطبيب الأمراء، وكان كلاهما رفيقين جيدين. ما إن بدأ القطار بالتحرك حتى وثب بداخله اثنان من الخصي فقدا أماكنهما.

في اتجاه حي الرمل رأيت أحد الأصدقاء في الصحراء، فانحنيت خارج النافذة ملوحاً بمنديل. انطلق في الحال إنذار عفوي بالعربة. ناداني قائد الخيالة باسمي، وجذبَني الطبيب من أكمام معطفي؛ وصاح الخصي، لكنني لم أنتبه. انعطف الطريق واختفى صديقي عن الأنظار. جلست مرة أخرى مستفسرا: «حسنا، ما الأمر؟» أجابوا «ياه... لا ينبغي أن تتصرف بهذا الشكل، قد يتصادف ما فعلت مع تطلع الأميرة عبر النافذة فيدخل في روعها أنك ترسل لها إشارات.» لم أستطع الكف عن الضحك. كانت وجهة نظرهم في هذه المسألة غريبة تمامًا بالنسبة لي. بعد مرور أكثر من ساعتين من الغبار والحرارة غير المحتملين، توقفنا لمدة خمسة دقائق، وإذا بأطباق من الطعام، بالإضافة إلى وعاء من المياه المعكرة، تشق طريقها بالعربة.

لم تكن هناك سكينة أو شوكة؛ مجرد طبق واحد فقط لكل المجموعة عليه أطعمة غير صالحة للتناول أفسدتها الأصابع السوداء، وقدح لغت فيه الشفاه الغليظة المستديرة. آثرت أن أظل جائعًا وأن أسمح للغبار بخنق حلقي الجاف المحترق. تنافس الآخرون في غمس أيديهم من طبق إلى طبق. التهموا اللحم وجرعوا شرابَهم، شاكرين الله على الطعام والشراب. حصلت فيما بعد على القليل من العنب وقطعة من الثلج؛ ثم اتكأت للخلف ودخنت السيجار لإخفاء اشمئزازي.

كان المنظر الطبيعي للدلتا في هذا الوقت من العام أروع ما يكون، حيث استقام الأرز وقصب السكر بشكل وفير، وأينعت بواكير نورات الذرة،

واكتست آلاف الأفدنة بنباتات القطن الجميلة، وأشرقت بالزهور الصفراء، وامتلأت جميع القنوات بالمياه التي يستلقي فيها ورد النيل بتكاسل في روعة خالدة.

الفصل السابع

الصيف والشتاء- رياض باشا- الدوسة مرةً أخرى- بريطانيا والعبودية-ذكاء المفتش- العقيد جوردون- رشوة التايمز- الخديوي ووالده- إسماعيل وروسيا.

كانت القاهرة متجددة السحر. رغم الاشتياق الشديد لنسائم البحر إلا أنه من المستحيل عدم مشاركة البَاشَوات فرحتهم بالعودة إلى القاهرة. بعد يومين من وصولنا، علمت بما لا يدع مجالا للشك أن الصيف قد انتهى. حدث هذا خلال حوار قصير دار في المراسم. نحو الساعة الرابعة، دخل مسئول الخيل على كبار رجال البلاط. بعد الإجراءات الواجبة من إلقاء التحية وخلافه انبرى قائلا: «معالي الباشا! آمل أن تكون قد استمتعت بنوم جيد.»

«الحمد لله، أنا لا أحتاج إلى النوم الآن.»

« الله رحيم يا صاحب المعالي، لكن كيف يمكنك أن تمارس مهامك بدون نوم؟»

«هذا هو ما اعتدت عليه، يا صديقي، ولا أستطيع تغييره. أدعو الله أن تقرّ عيناك بتلك المعلومة. قُدر لي ألا أنام أبدًا أثناء النهار في فصل الشتاء.»

سجل الترمومتر درجة حرارة ٩٠ فهرنهيت[٢٧٨] في الظل، على الرغم من هبوب رياح قوية. أعتقد أن الباشا قد أظهر مزاجًا هادئاً مثل السمندل.[٢٧٩] في الواقع تنحصر البرودة في ثلاثة أشهر فقط هي: ديسمبر، ويناير، وفبراير.

لم تكن الليالي الآن حارة بشكل لا يطاق كما كان الحال سابقًا، لذا قضينا العديد من الأمسيات الممتعة جالسين في حدائق قصر الإسماعيلية. في الأمسية الأولى، جلست مع تورابي بيك نتجاذب أطراف الحديث. ما لبث أن انضم إلينا الأمير محمود فسحب كرسيًا بالقرب منا وأخذ يمطرنا بوجهات نظره بشأن الأمور العسكرية لمدة نصف ساعة. بعدها جاء رياض باشا، رئيس الوزراء، بعد مقابلته الخديوي. جلس لبعض الوقت، ثم انسحب محييًا الأمير باحترام. بعد مرور بضع دقائق أرسل الخديوي في طلبي أنا وتورابي بيك. جلسنا على الشرفة الرخامية أمام البهو. عقب مقارنة وجهات النظر بتلك التي تناولناها بشرفة قصر رأس التين، بدأ الخديوي في الحديث عن رياض باشا. كان رئيس الوزراء مسرورًا للغاية لأن شخصًا ما استضافه على مأدبة، ملقيا خطابًا مُبالغًا في ثنائه وتكريمه. عندئذ انتوى رياض باشا تَرْقِية مضيّفِه إلى منصب أعلى، لكن الخديوي رفض هذا الأمر.

كان هناك مدعاة أخرى لحبور رياض باشا آنذاك تتمثل في الرسالة التي تلقاها من السير ريفرز ويلسون، مشيدًا به وناسبا إليه الفضل في القضاء على تجارة الرقيق. عندئذ انزعج الخديوي معقبا: «انظروا كيف تُقلب الحقائق؛ ليس لدي عبد واحد؛ أما رياض فمنزله يعج بالعبيد الذين لم يدفع فيهم شيئًا. عرف رياض- حين كان في أوروبا- من أين تؤكل الكتف. تملق الحكومة الإنجليزية

(٢٧٨) (٣٢) مئوية. (المترجمان)

(٢٧٩) نوع من السحالي. (المترجمان)

بكلام معسول فنال حظوة زائفة وسمعة باطلة. أتمنى زيارة أوروبا بنفسي،[٢٨٠] فربما نالت سياساتي الإنصاف. لقد كاتبني السير ريفيرز ويلسون أيضًا مشيدًا بحكمي العظيم واستقلال وزراء بلادي. من الضروري أن نعمل سويًا لمصلحة البلد. إذا اعتقد الناس أني لا أثق في وزرائي، أو أن وزرائي لا يثقون فيّ، فسيكون من المستحيل حكم البلاد».

عندئذ جلب مصطفى برقية من رءوف باشا، نائب العقيد جوردون في الخرطوم، يعلن فيها أنه وجد الخصيين الذين قام بنفيهما الخديوي السابق حين حاولا قتل عدوهما، خليل أغا، رئيس الخصي. وافت المنية خليل مؤخرا في السويس وهو يتأهب للذهاب إلى مكة؛ لذا فسيعود المنفيان الآن إلى القاهرة.

استأنف الخديوي حديثه قائلا: «إنني أتمتع بالفعل بسلطان قوي على الناس، فعلى سبيل المثال، حاول الوزراء لفترة طويلة حث بعض القرويين على إصلاح إحدى القنوات، لكنهم تجاهلوا جميع الأوامر. عندما أرسلت برقيةً لهم في ذات الخصوص، أُنجزوا العمل في غضون يومين. لذا، إذا قلتُ للناس أنه لا ينبغي القيام بهذا الأمر أو ذاك، فسيطيعونني على الفور لأنهم يعلمون أنني مسلم صالح. إذا أمرت الدراويش مثلا بالتوقف عن التهام الثعابين فسيطيعون أمري.»

وجدت الفرصة سانحة هنا فعقّبت قائلاً: «أعتقد أن من السهل حقًا توجيه الناس من خلال الأسوة الصالحة؛ وأن الناس لديهم تبجيل شديد للسلطة؛ وهذا هو ما يعطي جنابك قوة هائلة على فعل الصواب. لذا، هل يمكن بعد ذلك أن تفصح جلالتك بأن الدوسة ممارسة بغيضة، وقاسية ووحشية، وكذلك

(٢٨٠) الجدير بالذكر أن الخديوي توفيق لم يقم بزيارة أوروبا مطلقا خلال فترة حكمه. (المترجمان)

مخالفة لدين محمد؛ وحين يمتثل الشيوخ تكون هذه هي نهايتها؟»

قال الخديوي «نعم... هذا صحيح، لكنه أمر أكبر من أن نُطالب به في الوقت الحاضر؛ فإذا منعت هذه الطقوس الآن، سيقول الناس أنني تصرفت تحت بوازع من الضغوط الأوروبية، وليس بدافع من إرادتي الحرة. إن شاء الله، في غضون عام أو اثنين، عندما تستقر الإدارة وتكتسب القوة، ينبغي حينها أن تنتهي الدوسة».

وهنا عقّب تورابي بيك قائلاً: «نعم، يا صاحب السمو، هذا صحيح؛ في غضون سنة أو سنتين عندما تكون الأمور أفضل.» ثم اتجه إليّ مضيفا: «لماذا يجب أن تتوقف؟ إنها غير مؤذية.» فأجبته بحدّة: « ليست مؤذية!... إنها وحشية للغاية.»

هناك بعض الحقائق والقصص المتعلقة بتجارة الرقيق في مصر يجدُر ذكرها هنا. مصدر الكثير من هذه المعلومات التي تعكر صفو السلطة الحاكمة هو شخص ألماني لا يمكنني ذكر اسمه. في إنجلترا تلقف الناس كل ما كتبه هذا الرجل كأمر مسلم به كما لو كان من نصوص الإنجيل. أخبرني الخديوي أن السيد فلان طالب رياض باشا بمبلغ ألف ليرة ثمنًا لصمته فيما يخص موضوع العبيد. رُفِض هذا العرض بشكل قاطع. عندما فشل الرجل في الحصول على ثمن سكوته، خرج على الملأ ليتحدث في هذا الأمر.

أثبتت لي الأدلة اليقينية، التي لا يمكنني ذكرها، أن الخديوي يمقت الرق. ذكرت هذا من قبل، وأكرره ثانية، لكن الشيء نفسه لا ينطبق على من هم حوله؛ فعندما كنا في الرحلة النيلية ابتاع أحد البكوات، الذين يعملون في

خدمة الخديوي، جارية صغيرة وتعمد التهرب من التفتيش. اشترى أحد خدم الخديوي الشخصيين أيضًا جارية، لكنه أمره افتُضح؛ وعندئذ استشاط الخديوي غضبًا، وأمر الرجل أن يترك الفتاة على الشاطئ، بل كاد أن يفصله من عمله في التو واللحظة. خلال الرحلة ذاتها ابتاع أحد أنسباء عظمته طفلين من الرقيق وتمكن من إخفائهما حتى عودتنا إلى القاهرة. عندما اكتشف الخديوي الأمر انتفخت أوداجه غضبًا وهو يخاطبه: «ما الفائدة من توجيه الأوامر للآخرين، إذا أتيت أنت ما أنهى عنه؟» وقد روى لي هذا المشهد شاهد عيان.

كان للأميرة[٢٨١] حوالي ستين من وصيفات الشرف، من الجواري وما شابه ذلك. لم يكن للخديوي حيلة في هذا الأمر، لكنه أيضا تجنب النظر إليهن كلما استطاع ذلك. إذا تزوجت إحداهن، كان من المعتاد تقديم اثنين أو ثلاثة من الزنجيات كهدية، لكن أفندينا أبطل هذه العادة نهائيًا.

ذات مرة، أخبرني الخديوي عن وصول رسالة من وكيله في القسطنطينية يقول فيها أن العبيد ما زالوا يُباعون في بيرا،[٢٨٢] بينما تظن الحكومة البريطانية أن تجارة الرقيق قد أُلغيت في تركيا. عرض الوكيل على الخديوي شراء فتاة جميلة بمبلغ قدره ثلاثمائة ليرة بعد أن كان سعرها سابقا ألف ليرة، فرد الخديوي قائلاً أنه لم ولن يشتري عبيدًا قط. عندما أخبرت جلالته أنه سيكون من الصعب للغاية إنهاء تجارة الرقيق في مصر طالما أنها ما زالت مستمرة في تركيا، أجاب: «سيكون من الصعب للغاية، لكنه ليس مستحيلاً، ستنتهي تجارة الرقيق. لقد قطعت على نفسي عهدًا مع انجلترا، وسَتنتهي تجارة العبيد في مصر. لقد أخبرتُك الآن، وسوف ترى أن كلامي سيَتحقّق.» تحدث بجدية واضحة، وأردف

(٢٨١) يقصد بتلر الأميرة أمينة إلهامي، زوجة الخديوي. (المترجمان)

(٢٨٢) Pera.

قائلاً: «لقد أصدرت أوامر شديدة الصرامة لحكام الإسكندرية والقاهرة وجميع المدن، لكن بصفة خاصة المناطق الساحلية، لمكافحة جميع المعاملات الخاصة بتجارة العبيد، وقد علمت مؤخرًا أن رءوف باشا أقال حاكم أحد الأقاليم في السودان لأنه اشترى عبدًا صغيرًا.»

كانت أسعار العبيد سابقًا منخفضة للغاية. روت والدة أبناء أحد البَاشَوات أنها بِيعت في بلدتها مقابل ليرة واحدة؛ وتحكي زوجة أخرى أنها بيعت مقابل بقرة. يمارس التجار أشد أنواع القسوة على ضحاياهم، فالندوب القطعية العميقة التي يراها المرء على وجوه العديد من السود تكون غالبًا نتيجة جرح أحدثه التاجر بسكين لتقليد الوشم المميز لبعض القبائل السودانية كنوع من أنواع الدمغ. تروي إحدى الجواري، التي تعيش في الحرملك الآن في القاهرة، أنها أثناء مرورها في النيل هاجم القارب ليلا جماعة تحري، فَقُذِفَ العبيد بسرعة في البحر مقيدين بالحبال من تحت أذرعهم، وأُجبروا تحت التهديدات المخيفة على الالتزام بالصمت في الماء.

ذات مرة أغرق أحد البَاشَوات لا يمكن ذكر اسمه العديد من الجواري والخصي معًا. حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه مسموحًا للفتيات بالترجل في الخارج برفقة الزنوج. جرت العديد من المحاولات للاتصال بالفتيات؛ وساعد الخصيان في حمل الرسائل. عندما اكتشف هذا الباشا الذي عُهد عنه الوحشية تلك المؤامرات، أمر بربط جميع الفتيات المساكين والخصي من اليدين والقدمين، وتقييدهم في أكياس، وإلقائهم في النيل. لم تُرْوى لي تلك القصة من الخديوي الحالي وحسب، بل أكد جميع تفاصيلها شخص كان يعرف بعض الجواري ممن زاملن الفتيات الصريعات، وكان شاهدا أيضا على عبد لقي

حتفه من الذعر وقت عِلمه بأخبار عملية القتل. قبل بضع سنوات أضرمت واحدة من الجواري التعيسات المملوكة لنفس الباشا النار في القصر، أملاً منها في الفرار أثناء الفوضى والهرجلة. لا يزال السبب الأصلي للحريق مجهولاً حتى الآن للعامة. يوجد في العباسية[٢٨٣] كشك يحيط ببئر يُقال أن هذا الباشا ألقى بجثث ضحاياه فيه، لكن لا يوجد دليل على ذلك. كان هناك في أحد المنازل بمنطقة «الكوبرا[٢٨٤]» زنزانة لها باب مسحور وضِع بمهارة في أرضية إحدى الغرف. شاهد هذا الباب مصدر المعلومات الخاص بي، كما أكد جميع أهل المنزل أن الرجل الذي صنعه قد استخدمه بالفعل.

رويت لي جريمة قتل المفتش من قبل، لكن في إحدى الليالي أعطاني الخديوي مزيدًا من المعلومات عن هذا الرجل. كان لديه أربعمائة جارية، جميعهن مكسوات بالحرير بشكل مبهر ومتزينات بالمجوهرات الرائعة. وكان لديه مجموعة مكونة من اثنتي عشر مطفأة سجائر ذهبية مرصعة بالماس يبلغ ثمن الواحدة منها خمسمائة ليرة. أما شئون المطبخ فتتكلف ستين ألف ليرة في العام. عندما ذهب الخديوي الحالي (وكان وقتها أميراً) مع زوجته لزيارة المفتش، ذهلا من الفخامة المترفة لقصره الذي يباري أكثر تصورات ألف ليلة وليلة رونقا. عندما كان المفتش يتأهب لمغادرة قصره، كان عبيده يشكلون صفين بدءًا من غرفته الخاصة مرورًا بالفناء وحتى البوابة الخارجية؛ وعندما يظهر، كانوا يصيحون جميعًا بصوت عال قائلين: «ها هو سيدنا ومولانا!» ثم يحيونه أثناء سيره، منحنيين احترامًا، محركين اليد اليمنى لأسفل ثم يضعون أكفهم أعلى رؤوسهم.

(٢٨٣) نسبة إلى والي مصر،عباس الأول، وهو أول من عمرها؛ وكان له بها قصرا. (المترجمان)

(٢٨٤) يبدو أن هناك خطأ مطبعي والكاتب يقصد «الكوربة» وهي منطقة في مصر الجديدة بالقاهرة والكلمة إيطالية معناها المنحنى لأن الشارع ينحني عند هذه المنطقة. (المترجمان)

روى لي الخديوي قصة غريبة جدًا عن تصرفات المفتش مع حريمه الخاص، حكاها له أحد أفراد أهل بيت المفتش كان على علاقة حميمة بأحد العبيد السابقين الذين عملوا في قصره وكان يختلس النظر من إحدى النوافذ التي لم تكن خاضعة للحراسة، لكن كما أوضح هيرودوت هناك بعض القصص المصرية التي لا يجب أن تكون معروفة للعامة.

بالعودة إلى قصص العبيد. يُحكى أنه قبل بضع سنوات كان هناك طفلة صغيرة عمرها عشر سنوات سُحِبتْ بالسلاسل في الصحراء مع زمرة كبيرة من العبيد. أصابها الإعياء والمرض من شدة النصب والمعاناة من السير فألقى بها مالكها على جانب الطريق لتموت، اعتقادًا منه أنها لا تستحق عناء الاستمرار معه أبعد من ذلك. عندما رأى تاجر آخر هذا الأمر عقب قائلاً: «هل تنوي ترك الفتاة؟»

«نعم... إن شاء الله؛ لقد كُتب على جبينها الموت.»

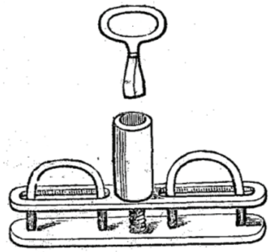
«حسناً! سآخذها إذن. ربما يكون لديها فرصة للنجاة.»

تَعافت الفتاة، ولكن عندما اقتربت المجموعة من القاهرة، طالب بها المالك الأصلي؛ وتبع ذلك تبادل كلمات غاضبة. أقسم الرجل الذي تخلى عن الصغيرة أنه لم يقصد أن يتركها ويرحل، وعندما اكتشف أن الطرف الآخر لن يرضخ لطلبه، أدار الطفلة، وشق جنبها بسكين اعتقادًا منه أن قتلها سيُنهي الخلاف. سقطت الفتاة شبه ميتة، لكن الرجل الذي أنقذها اعتنى بها، حتى تعافت مرةً أخرى. روت لي هذه القصة إحدى السيدات التي سمعتها من الفتاة نفسها، وعاينت ندبة الجرح بأم عينيها.

سمعت عن طفلة أخرى تبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات أنقذها الأدميرال ماكيلوب[٢٨٥] من تاجر للرقيق في البحر الأحمر، ثم أخذت إلى انجلترا حيث ترعرعت كفتاة انجليزية، ووعت الأساليب الإنجليزية، ولم تتعلم أي لغة أخرى عدا الإنجليزية. قابلتها سيدة سكندرية على متن سفينة فطرحت عليها بعض الأسئلة لمعرفة مقدار ما تتذكره من حياتها السابقة. عندما استفسرت عن والديها، سحبت الفتاة سبابتها بهدوء - دون أن تنظر أو تتفوه بكلمة واحدة - حول حلقها.

حتى في عام ١٨٨١، كانت هناك ممارسات قاسية وفظيعة في القاهرة. في ليلة من ليالي فبراير الماضي، هربت إحدى الإماء الزنوج، وتوجهت إلى الكونت «صالا» للمطالبة بحريتها. هم الكونت بإحالتها إلى قسم الشرطة، ولكن عندما اعترضت على ذلك قائلة إنه قد فات أوان الذهاب إلى هناك، أمر الحارس أن يعطيها غرفة لتبيت بها ليلتها، على أن يرافقها في الصباح إلى المخفر. تبين لسوء الحظ أن المنزل الذي هربت منه الفتاة هو بيت الضابط الذي يعمل بقسم الشرطة. بعد مرور بضع ساعات لاحظ الكونت «صالا» أن الحارس لم يعد، فأرسل إلى الشرطة للإستفسار. عُثِرَ على الرجل المسكين هناك منبطحا على الأرض وفاقدًا للوعي، وقد سُحق إبهاميه، ومُزِّقَت قدميه إلى أشلاء. عندما رافق الزنجية، اتُّهِمَتْ في الحال بالسرقة واتُّهِمَ هو بالتواطؤ معها. تعرض الرجل للتعذيب بالآلة التي تَسحْق الأصابع وكذلك بالسوط لإجباره على الاعتراف.

(٢٨٥) Admiral McKillop، الأدميرال ماكيلوب، كان مديراً للموانئ والمنائر في زمن إسماعيل. (المترجمان)



THUMB SCREW.

ظل في غيبوبة لفترة طويلة، لكنه تعافى ببطء. ما كانت الإماء لتُعتق أبدًا إذا سرقن أي شيء من سيدهن، أو إذا أخفقن في إثبات أنهن يمتلكن وسائل للعيش؛ ومن ثم فقد أعيدت معظمهن إلى العبودية بتهمة سرقة ملفقة.

في إحدى ليالي يوم صادف الأحد، كنت أتحدث مع الخديوي بمفرده، وأريته رسالة العقيد جوردون الأخيرة لصحيفة التايمز عن تجارة الرقيق، والمقالة الافتتاحية للصحيفة. اتهما المقالان الخديوي بالنفاق وانتقداه لعدم وجود اتفاقية معلنة لحظر تجارة الرقيق بين المواطنين في القاهرة وصعيد مصر. كانت معلومة «عدم وجود اتفاقية معلنة» صحيحة، ولكن الاستدلال كان خاطئًا. إن فشل الخديوي في نشر مثل هذه الاتفاقية مرده ببساطة إلى إحجامه على أن يبدو كمن يعمل تحت ضغط الأوروبيين. عقب الخديوي: «في هذه اللحظة لا يوجد أي عبد معروض للبيع في القاهرة، من الصعوبة بمكان أن تجد عبدا للشراء الآن. إذا كنت منافقًا، وآثرت تشجيع تلك التجارة، أو حتى التواطؤ معها، ألن يكون هناك المئات من العبيد؟ إن العقيد جوردون ليس كغيره من الرجال؛ إنه يفوقهم. يظن عامة المواطنين هنا أنه مختل عقليًا. على أي حال لقد جانبه الصواب بكل تأكيد.»

أجبت الخديوي قائلا: «أستطيع تبين ذلك في هذه الرسالة، فالعقيد جوردون يتحدث عن الخديوي السابق وأنا أعتقد، كأحد أصدقائه، أن إسماعيل باشا سيضحك في سره عندما يعلم باللقب الذي نُعت به، «بطل إلغاء الرقيق». مما لا شك فيه أن والدكم قد مكَّنَ العقيد جوردون من إنهاء تجارة الرقيق في السودان، ولكن ما نال إعجاب إسماعيل حقًا في إنجازات جوردون الرائعة هو توسع إمبراطوريته وتحقيق جزء من حلمه بفتح تلك المناطق. أعلم جيدًا أن إسماعيل باشا كان طيلة الوقت أكبر مشتري للعبيد في مصر، والسيد الأكثر استبداداً.»

علق توفيق: «هذا صحيح. لقد انخدع جوردون في والدي، ولكنه مع ذلك أحبه. يوجد في أوراق أبي الكثير من الرسائل والبرقيات الغريبة من جوردون. لذا، عندما صرف المراقبين البريطانيين والفرنسيين، أرسل له جوردون برقية يهنئه ويقول له: «سوف تكون السلطان.» كان هناك أمر آخر أثير في الخطاب الذي أرسل إلى صحيفة التايمز وهو الاحتفاظ بدارفور. قال الخديوي إنه سيعيد المملكة بكل سرور إلى واحد من أسرة سلطان دارفور، لكن لم يبق منهم أحد هناك الآن إلا صبي في الثانية عشرة من عمره لأن الباشا الذي لم يُزج باسمه أمر بقتل الباقين جميعًا.

فوجئت بهذا الخبر فبادرت بالقول: «أعتقد أن جنابك تَقصد أنّهم قُتِلوا في المعركةِ.>> قال: «لا ... لقد أمر هذا الباشا بقتلهم جميعًا عمدًا هنا في القاهرة وكان عددهم ثمانية عشر أو عشرين.» يا لها من كارثة يندى لها جبين الإنسانية!

شرح دكتور «لوي»[٢٨٦] التدابير المتخذة في الآونة الأخيرة لقمع تجارة الرقيق بأوامر من الخديوي في خطاب أرسله إلى صحيفة التايمز من القاهرة، لكن هذا الخطاب لم يُنشر أبدًا. وعندما علقت على هذا الأمر، أجاب الخديوي بكل بساطة قائلاً: «ربما تريد التايمز رشوة.» فضحكت، وقلت إن هذا من المستحيل تمامًا. قال الخديوي: «ولكنني أؤكد لك أن ضمن حسابات والدي كان هناك بندًا قيمته عشرة آلاف ليرة دُفِعَت لصحيفة التايمز للحصول على دعمها.» عندما ذكر الخديوي اسم الوكيل الذي رتب هذه الصفقة، لم أستطع الشك في أن تلك الأموال قد دُفِعَت ثمنًا للغرض المزعوم، لكن ثمة شيء ما اعترض سبيلها. سُجِّلَت بعض المبالغ كمدفوعات إلى جميع الصحف الإنجليزية الرائدة تقريبًا في صورة رشاوى لضمان اهتمامهم بالخديوي إسماعيل، الذي يبدو أنه غُرر به في هذه المسألة على نحو نميس.

عندما مرَّ العقيد جوردون بمصر أثناء عودته من الهند، بعث ببرقية من السويس إلى الخديوي قائلا: «كيف حالك؟ وما هي أخبار تجارة الرقيق؟» منذ ذلك التاريخ لم يعد جوردون إلى مصر مرةً أخرى، حتى أرسله السيد جلادستون إلى الخرطوم، وتركه يموت تلك الميتة التي شهدها العالم بأسره، فقد كانت وفاته هي الأكثر مأساوية في التاريخ. يا الله! واحسرتاه على الأيام الخوالي؛ فلا يصنع الحرب سوى الإيمان الذي لا يتزعزع.[٢٨٧]

وبالحديث عن السويس والقناة، أضاف الخديوي قائلاً: «إن كبير العلماء والدراويش في مصر، قضى نحبه مؤخرا. كان الرجل متعصبًا بدرجة كبيرة، قال لي ذات مرة إذا تعاملت انجلترا مع مصر بشكل سيئ فسآمر جميع رجالي الذين

(٢٨٦) Dr. Lowe.

(٢٨٧) Heu pietas ! heu prisca fides invicta que bello Dextera.

يصل عددهم إلى ٤٥٠،٠٠٠ بالذهاب إلى قناة السويس وردمها.»

لم يمض وقت طويل حتى عرج الحديث من جديد في ليلة أخرى على العقيد جوردون. عاد الخديوي يذكر أنه عثر بين أوراق والده على العديد من الرسائل والمذكرات من جوردون، من بينها مذكرة واحدة تتعلق بشكل خاص باللجنة المالية. لقد نصح جوردون الخديوي إسماعيل آنذاك، برفض ترشيح السيد جوشن والسيد «جوبير»[٢٨٨] إذا كان ذلك ممكنًا أو بإبعادهما حال وصولهما مصر.

لم يكن الخديوي إسماعيل ليرفض فكرة لجنة التحقيق، لكنه رفض إبلاغ هذه القوى أنه قادر تمامًا على إدارة الأمر برمته دون مساعدتهم. أكد لي الخديوي أن العقيد جوردون تجاوز الحد المسموح به اجتماعيًا وحرضه قائلاً: « لديك العديد من الجنود، وجيش جيد جدًا، وإذا لزم الأمر يمكنك شنّ الحرب على إنجلترا وفرنسا.» ضحك الخديوي بشدة وهو ينقل هذه العبارة ثم أردف: «أتمنى أن ينشر كل ذلك في صحيفة التايمز أو الستناندرد.»[٢٨٩] بعد مزيد من النقاش، قال الخديوي إنه وحكومته كانوا مصممين حقًا وبصدق على وقف تجارة الرقيق، وكل المخالفات التي تتعلق بها.

تبع ذلك النقاش العديد من القصص الغريبة عن الحياة في مصر وتركيا. سألت الخديوي هل ما زال من المألوف إلقاء جثث المعارضين في مياه البوسفور؟ أجابني قائلاً: «حتى يومنا هذا، ليس من الغريب أن يُرمى شخص بالقوس وتُلقى جثته في البحر.»

(٢٨٨) Joubert، المراقب المالي الفرنسي. (المترجمان)

(٢٨٩) Standard.

دار بعض الحديث عن إسماعيل باشا؛ واسمحوا لي الآن بإضافة بضع النقاط عن تاريخه. يبدو من الحسابات التي خلفها وراءه بسبب العجلة في المغادرة، أنه من أصل ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة اقترضها الخديوي أُنفِق ١٥,٠٠٠,٠٠٠ ليرة فقط على الأشغال العامة في مصر. أما المتبقي والمقدر بـ ٨٥,٠٠٠,٠٠٠ فلن أروي ما هو معلوم لي ولا ما هو مجهول. قال لي الخديوي الحالي ذات مرة عندما كان يتحدث عن والده: «لن يضاهيه شخص آخر في فخامته وعظمته... مستحيل!»

تجاسرت على القول: «أعتقد أن الناس يحتاجون إلى الإدارة الجيدة أكثر من الإدارة الرائعة؛ ولذا فالأولى محل تقدير لديهم.» فقال توراني بيك: « نعم... فهم يعرفون أن نواياك تجاههم جيدة وأنك تسعى لتحقيق رفاهيتهم.»

جاءت الإجابة بنبرة جدية وعميقة: «يعلم الله... يعلم الله أن نواياي تجاههم صادقة؛ إن أسمى رغباتي هي أن أراهم سعداء ومنعمين، وليس هناك ما يشغلني أكثر من ذلك.»

شهد حفل افتتاح قناة السويس سلسلة من المواكب والفقرات الترفيهية التي أُنفق عليها مبالغ طائلة. دون الخديوي إسماعيل في وقت لاحق تلك الأحداث ونُشرت في مجلد من القطع الكبير مدعم بالصور.(٢٩٠) طُبِعَ من هذا الكتاب ثلاثمائة نسخة تكلفت ١٠,٠٠٠ ليرة. لدي نسخة منه، أهداها لي الخديوي.

لقد كان في جعبة توفيق العديد من القصص الغريبة عن سلوك الإمبراطورة الفرنسية(٢٩١) وغيرها من الأقطاب الأوروبية،ولكنه لم يقل إلا كل خير عن أميرة

(٢٩٠) يصل ارتفاعه إلى ٦٠ سنتيمتر. (المترجمان)

(٢٩١) أوجيني، يُروى أنها كانت عل علاقة بالخديوي إسماعيل. (المترجمان)

ويلز.[٢٩٢] عندما زارت الأميرة الخديوي توفيق وزوجته دار حديث عن تعدد الزوجات. دُهِشَت الأميرة عندما سمعت توفيق يُدين بشدة هذا النظام؛ كما فوجئت أيضًا عندما قال أنه لم يكن لينكح زوجة إلا إذا كان يحبها. كانت هذه المحادثة باللغة الفرنسية، وفيما بعد سألت والدة الخديوي ابنها قائلةً: «عن ماذا كنتم تتحدثون طوال هذا الوقت؟» فأجاب: «ياه... جمال الطبيعة: الأشجار، والطيور، والزهور.»

ذات يوم خرجت الأسرة المالكة بأكملها في نزهة إلى «هليوبوليس». ركبت المجموعة كلها، حوالي مائتي شخص، على ظهور الحمير. أثناء عودتهم هتف مجموعة من الفتيان الذين يعتنون بالحمير في الأزبكية[٢٩٣] للخديوي إسماعيل، الذي كان يركب مع الإمبراطورة. ذُعِر الخديوي جدًا من هذا الصخب. أرسل على الفور إلى الشرطة فقبضوا على عشرة أولاد وحبسوهم في السجن. لقد عاش الخديوي إسماعيل حياته في رعب. لم يكن ليسمح لشخص غريب أو أحد المواطنين بالاقتراب منه إذا كان بإمكانه تجنب ذلك خوفًا من أن يكون أحدهم قد أخفي خنجرًا بين طيات أكمامه. لم يكن لديه قلب أو عاطفة فقد أفسدهما انغماسه في الشهوات. لم يستبق جارية من جواريه البيض لمدة طويلة. ما هو إلا شهر أو شهرين حتى يتحول هوسه إلى ملل. إذا حدث أحيانًا وتمردت إحدى الإماء في الحرملك رافضة الانصياع فإنه يلجأ إلى الإكراه الوحشي بمائة أو حتى مائتي جلدة على أخمص القدمين.

---

(٢٩٢) الأميرة «الكساندرا» Alexandra، الملكة «ألكساندرا» فيما بعد، زوجة الأمير «إدوارد»، الملك «إدوارد السابع» فيما بعد. (المترجمان)

(٢٩٣) نسبة إلى قائد الجيوش الأتابك سيف الدين بن أزبك. كان السلطان قنصوه قد أهدى له هذه المنطقة. (المترجمان)

قال الخديوي: «سيُدهش الناس في أوروبا إذا عرفوا حقيقة شخصية الخديوي إسماعيل وتاريخه.» قلت: «نعم، لا يُعرف عنه سوى الإسراف والأنانية، لكنه كان مهذبًا، وذكياً، ومستنيرًا.» عقب توفيق: «أرجو من اللهٰ أن تكون تلك الأوقات القاسية قد ولت من دون رجعة.»

أنهت هذه الجملة الحوار الذي تابعناه في مساء اليوم التالي. أخبرني جلالته عن الصعوبات التي واجهها في عهد والده. رشحه السيد فيفيان[٢٩٤] في إحدى المرات لتولى منصب رئيس مجلس الوزراء، لكنه اعترض بشدة، معللاً ذلك بأن والده لن يمنحه الثقة في العمل، وسيشك دائمًا أنه يدبر المؤامرات والمكائد. عُين الأمير توفيق في المنصب، لكن جاءت النتيجة كما توقع هو من قبل. اعترف اللورد فيفيان بالأمر في خطاب أرسله إليه يأتلف من ثلاث كلمات فقط: «لقد كنت مُحقًا!»

كان الخديوي إسماعيل يُراقب توفيق ليل نهار؛ وكان الجواسيس ينقلون كل حركاته وسكناته للخديوي وكذلك أسماء كل الزوار وتاريخ حياتهم.[٢٩٥] ومع ذلك، لم يخضع توفيق لأي مؤامرة ورفض الانخراط في أي عمل ضد والده. عندما كان توفيق وصيًا على العرش أثناء زيارة الخديوي إسماعيل إلى أوروبا،

(٢٩٤) Vivian ، اللورد فيفيان هو القنصل الانجليزي الذي أرسلته انجلترا مع نظيره الفرنسي البارون «دي ميشيل» للضغط على الخديوي وإكراهه على قبول فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ووضع السكك الحديدية وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة. تردد إسماعيل في قبول هذه المطالب الجائرة، وقامت في البلاد حركة استياء من جورها، ولكن الخديوي خشي علي مركزه أن تزعزعه مقاومة الدولتين الإنجليزية والفرنسية، فنزل أخيراً على إرادتهما، وأصدر مرسوما بذلك في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦. (المترجمان)

(٢٩٥) لم يكن إسماعيل يثق في توفيق ولم يسع لإرساله لأوروبا لتلقي تعليمه هناك أسوة بأخوته حسين كامل وفؤاد وغيرهما. أما مسألة أن إسماعيل اضطهد توفيق لأن أمه كانت جارية ففيها كلام لأن إسماعيل نفسه كانت أمه جارية وهي «هوشيار قادين». (المترجمان)

تلقى خطابًا من أحد الوزراء آنذاك يعرض عليه خدمات القوات البرية والبحرية ويعد بإغراق إسماعيل في ميناء الإسكندرية عند عودته لمصر. رفض توفيق هذا العرض ليس مرة واحدة بل مرتين ولكنه احتفظ بالخطابات.

أثناء الاحتفالات لم يكن المسئولون يعاملون توفيق بلطف؛ وكانوا يتركونه ينتظر لمدة ساعتين حتى يعلنوا عن اسمه. عند زواجه أراد والده تقليص المراسم، لكن رياض باشا كان حاسماً في هذا الأمر؛ ونجح - بعد عناء شديد- في اتخاذ الإجراءات اللازمة اللائقة بحفل زفاف الأمير والأميرة. ذات مرة، قال أحد النظار لتوفيق ساخرًا: «يا أمير! سيرسلك والدك مكبلاً بأغلال من حديد إلى السودان في القريب العاجل إذا لم تتصرف بشكل لائق.» فأجاب توفيق قائلاً: «إنه والدي وولي نعمتي ويمكنه أن يُلقي بي في النهر إذا أراد ذلك.»

كان الخديوي إسماعيل دائمًا ما يستشيط غضبًا بسبب الميول الدينية لتوفيق. ذات مرة قال لابنه: «أقسم بالله سأصدر أمرا بذهابك للخرطوم إذا دأبت على تلك الممارسات الإسلامية على هذا النحو. ما جدوى ذلك؟ يجب أن يكون اهتمامك بالأوروبيين فتقلدهم وتتبنى أسلوبهم في المعيشة والتفكير مثلي. أنا لست مسلمًا، بل إني مسيحي. ستدمر نفسك بتلك الطرق المتعصبة التي تتبناها.» لكن في وقت آخر جاءت نصيحته كالتالي: «عندما تتولى العرش تظاهر بأنك مسلم جيد فسيحبك الشعب من أجل ذلك. هذه سياسة جيدة.»

عاش توفيق في خوف يومي على حياته فكان يخشى أن يُسمم أو أن يُقتل، لأن فنجان القهوة المسمومة كان الوسيلة الشرقية المعتادة للرجال العظماء في مصر آنذاك. أفصح الخديوي: «أؤكد لك أن تلك الأوقاتَ كانت مرعبة بالنسبة

لي. لا يمكنني أبدًا أن أنسى ما عانيته. إن سلامة الضمير واعتزامي الصادق على فعل الصواب هو ما حال دون سقوطي. مع ذلك، لم تكن لدي مخاوف شخصية ولم أتصرف كشخصٍ جبان. عندما توليت العرش تلقيت الخبر دون أن أشعر بأي فرحة، فتعاطفي مع سقوط والدي وإحساسي الكبير بالمسئولية لم يترك لي مجالاً للبهجة. بالطبع ألقى والدي باللائمة عليّ، واتهمني بالتآمر عليه وأنني قد أفلحت فيما خططت له. عندئذ أخرجت الرسائل التي بعث بها الوزير إليّ يعرض فيها مساعدة الجيش. عندما قرأها والدي تأثر بشدة وعانقني قائلاً: سامحني يا بني، سامحني. صادف اليوم الأول لاعتلائي العرش يوم الجمعة، لذا ذهبت إلى المسجد في موكب عظيم. قال والدي: ما هذا!، ألا تزال مُصرًا على لعب دور المسلم؟ فأجبته قائلاً: نعم يا سيدي، أكثر من ذي قبل.»

كانت العلاقات بين إسماعيل وروسيا هي الأقل غرابة. فيوجد بين أوراق الخديوي إسماعيل العديد من الوثائق التي تبين أنه كان يتظاهر بالسعي لمصادقة انجلترا وفرنسا، إلا أنه كان يتآمر سرًا مع روسيا. انصب تفكيره على إمكانية أن تُطيح روسيا بتركيا وتُعلن استقلال مصر. في أثناء الحرب الروسية- التركية، رفض في بادئ الأمر إرسال أيّ قوّات مِنْ مصر لمؤازرة السلطان. فيما بعد، عندما أرسل وحدة مكونة من ١٥٠٠٠ فرد، تحت قيادة حسن باشا، كان تجهيز الجنود هزيلا؛ وافتقروا للمدفعية أو الفرسان. قدم الخديوي اعتذارًا زعم فيه أنه لم يكن هناك خيول في مصر آنذاك، لذا اضطر الأتراك إلى سدّ العجز. و حتى عندما جُهِّزَ سلاح المدفعية بالخيول اللازمة، لم تقم بأي دور على الإطلاق تمامًا مثل بقية الكتيبة المصرية. في الواقع، كان لدى حسن باشا أوامر سرية بالبقاء خاملاً قدر المستطاع، وباغتنام أي فرصة للإضرار سرًا بالقضية التركية. سيتذكر البعض الإعلان الفوري الذي صدر عن روسيا - فور تحذير اللورد

دربي لها-[٢٩٦] بأنها لا تنوي المساس بمصر؛ وهكذا تساعد القصة السابقة في تفسير ذلك التصريح.

أخبرني الخديوي أيضًا أنه رأى خطابًا كتبه والده إلى الجنرال «أجناتيف»[٢٩٧] يطالبه بعدم السماح لشاه إيران بالمرور عبر مصر أثناء زيارته لأوروبا، ويعرض عليه ستة آلاف ليرة لترتيب هذا الأمر. عثر جنابه أيضا على رد الجنرال أجناتيف، الذي ذكر فيه قبول هذا العرض مؤكدًا أن الشاه لن يمر عبر مصر. هذا ولم يتمكن الخديوي توفيق من فهم دوافع والده تجاه هذا الأمر.

(٢٩٦) Lord Derby، سياسي بريطاني، ١٨٤١- ١٩٠٨. (المترجمان)

(٢٩٧) Gen. Ignatieff، سفير روسيا في الأستانة. (المترجمان)

الفصل الثامن

الأهرامات وقت الفيضان- حصار البدو- العملات المعدنية القديمة- المسدسات المنسية- قصص الرجال المبروكين - احتفال المحمل- عيد الأضحى- رئيس الخصي- زيارة إلى الشيخ محمد السادات- غرفة الفرعون

يذهب جميع المسافرين إلى مصر لمشاهدة الأهرامات؛ يحظى القليل منهم برؤيتها في شهر سبتمبر عندما يفيض وادي النيل العظيم. لا أجد مبررا للحديث عن هذه القبلة والوجه المعتادة للرحالة والمسافرين غير منظرها الذي يكون أكثر سحرا وجمالا في هذا الوقت من العام. عقدت العزم في عصر يوم حار قُبَيْلَ نهاية شهر سبتمبر على القيام بهذه الرحلة بمفردي. بمجرد مغادرة الجيزة، وجدت أن السهل العظيم، الذي يفصل بين النهر والصحراء في فصل الشتاء، قد أصبح بحيرة. كان الطريق أشبه بخط طويل وسط المياه.

امتد الفيضان على الجانبين إلى ما لا نهاية؛ وحفُّته بساتين النخيل النائية؛ وطوقته الجبال الليبية[٢٩٨] التي وقفت غرب تلال المقطم شامخة، بيضاء وبراقة في الشمس، إلا أن «كنتوراتها» كانت غير واضحة بسبب اللون السماوي المتَّقِد. لم أر من قبل مشهدا أو بالأحرى مكانا يعبر عن فكرة التجسيد طبيعي لعالم

(٢٩٨) يقصد بتلر الصحراء الغربية. (المترجمان)

الخيال الذهبي، ويحلم فيها اللواتة (آكلي اللوتس)[٢٩٩] بشروقَ شمس أبديّ أكثر من تلك التلال القاصية.

كانت نزهة لطيفة ومنعشة في ظل شارع طويل من أشجار السنط؛[٣٠٠] حيث كانت النسائم القوية تهب على الماء. تمنيت أن أنعم بالوحدة في هذا المكان، لكن البعض شعر بقدومي، وانقضت عليّ النسور العربية من القرى. لم يكن قد زارهم أحد منذ الربيع ، لذا فقد كانت مناقيرهم مشحوذة وألسنتهم ظمآنةَ. باءت محاولاتي لإخبارهم أنني لست سائحاً؛ وأنني أعرف هذا المكان قبل أن يولدوا؛ وأنه مكتوب على جباههم أنهم لن يحصلوا على المال، كلها بالفشل. ساروا خلفي في قطيع جائع، فتعذرت الخلوة لأني نسيت مسدسي، وهو الشيء الوحيد الذي يخشاه البدو.

آثرت أخف الضررين وانتقيت اثنين من الرجال ليتبعوني: محمد وشحاتة؛ وعندئذٍ انصرف الباقون. بعد زيارة أبي الهول، طلب مني محمد أن أحتسي القهوة في منزله. لذا هبطت إلى أسفل الهضبة،[٣٠١] ودخلت قرية مبنية من الطوب المجفف بالشمس.[٣٠٢] رأيت مسجدًا صغيًرا مسقوفًا بسعف النخيل، ومررت عبر سياج مبني من الطين خاص بمسكن محمد. وقفنا لوهلة عند المدخل بينما كان هناك تدافع ولهوجة داخل المنزل حتى تختفي النساء. مشينا عبر أحد الأفنية نحو سَقِيفَة ذات مدخل ونوافذ مفتوحة. كانت نصف الأرضية

---

(٢٩٩) هي أحد القبائل الأمازيغية التي كانت تقطن ليبيا خلال الفتح الإسلامي في سنة ٦٤٣ م (٢٤هـ). وهذا الاسم هو تحريف لاسم القبيلة التي ذكرها هيرودوت باسم "آكلي اللوتس" والمذكورة في رحلات أوديسيوس. (المترجمان)

(٣٠٠) شارع الهرم الآن. (المترجمان)

(٣٠١) بركة السمان أو نزلة السمان الآن. (المترجمان)

(٣٠٢) الطوب اللبن. (المترجمان)

مكسوة بالحصير، لكنهم فرشوا سجادة جميلة وجلبوا وسادة من أجلي. اتكأت بالكامل، لكن استرخائي كان وجيزًا، حيث عرج علينا البدو رويدًا رويدًا، حتى تجمع ما لا يقل عن ثلاثة عشر منهم في دائرة حولي. تجاذبنا أطراف الحديث مع احتساء القهوة التي لم ينل شرف شربها سوى رجل واحد فقط كان بجانبي. بعد ذلك أحضروا الواحد تلو الآخر « أنتيكاتهم»، والتماثيل المطلية باللون الأزرق، والبرونزي، والتماثيل الحجرية، وما شابه ذلك. كانت معظم هذه التحف بدون فائدة، والبعض الآخر «مشكوك فيه»، لذا فقد رفضتهم بتلويح اليد. كانت عملية المساومة في البَيْعِ والشِّراء بطيئة، لكن كلما دققت النظر في الوجوه المحيطة بي - بعضها صادقا وودودًا، والبعض الآخر همجيًا وشرسًا- لم أستطع درأ التفكير في مدى سهولة تعرضي للسرقة والقتل في ذاك الكوخ المهجور الذي يبعد سبعة أميال عن القاهرة. كانوا يعلمون أنني أحمل المال؛ وتذكرت بأسى لا طائل منه عدم وجود المسدس.

في النهاية أخرج واحد من البدو حقيبة بها شيء يصلصل، وحَلَّ الرباط بأسنانِه، وبسط بأناة حفنة من العملات اليونانية القديمة. بدت العينات بحالة جيدة إلى حد ما. كان معظمها مألوفاً لي اللهم إلا قليل منها. أعقب ذلك الترتيبات المعتادة لأية صفقة حتى قلت «كلمتي الأخيرة». جُمِعَت القطع النقدية بعبوس، كما لو أنها ستُعاد في الحقيبة، ولكن البدوي غير رأيه فجأة وسلمهم لي في جو من الأسف الزائف؛ وتسلم أمواله في المقابل. فيما بعد، اكتشفت بين القطع النقدية غير المألوفة عملتين فريدتين من نوعهما وغير منتشرتين، وثالثة نادرة للغاية. توجد تلك العملات الثلاث الآن في المتحف البريطاني.

كانت تنتمي إلى منطقة قوريني(٣٠٣) وبركي.(٣٠٤) مما لا شك فيه أن العرب الذين مروا بالأهرامات في طريقهم إلى القاهرة أحضروها آنذاك؛ حيث أن هذا هو الطريق المعروف للحجاج القادمين من شواطئ شمال أفريقيا إلى مكة المكرمة.

قضيت وقتًا طويلاً في الكوخ مع أصدقائي البدو، وعند خروجي استمتعت بمنظر الهرم الأكبر من تلك القرية بالأسفل. فالمشهد لن يكون بمثل هذه المهابة من أي موضع آخر فمن هذا المستوى المنخفض ترى العين السمو التام لهذا النسيج الرحب الذي يشمخ عاليًا. عند صعود الهضبة مرةً أخرى، رأيت الشمس تغرب وارتقيت أحد الأهرامات الثلاثة الصغيرة التي تقع شرق الهرم الأكبر.(٣٠٥) شكل هرما خوفو وخفرع إطارًا لغروب الشمس، كما أبرزت كتلهما المعتمة المساحة المضيئة بينهما في وضوح مُبهر، حابسة للضوء يمنة ويسرة. في الأسفل عند خط الأفق كان هناك وهج من اللون البرتقالي الداكن يتلاشى إلى أعلى ليتحول إلى اللون الذهبي الباهت ويمر من أعلى سديم يتدرج بين اللون الأرجواني إلى الأزرق اللامع؛ وفي الجزء الأزرق كانت تطفو سحبًا صغيرة من اللون القرمزي الداكن ذات ظلال بنية مصفرة.

تطرق حديثي مع العرب بعد العشاء إلى الدوسة، كانوا مقتنعين بشدة أن هذه الطقوس تعد اختبارًا يظهر الدرويش الحقيقي والمزيف، فالأخير يُصاب، بينما الأول لا يعاني أبدًا. أخبرني محمد أنه تمكن من عقد نكاحه على زوجته الحالية عن طريق دفع عشر فرنكات لأحد السحرة. فوالدها كان يكرهه، ووقف

(٣٠٣) Cyrene، «قوريني" أو "قورينا"، مدينة تاريخية أسسها الإغريق في الجبل الأخضر، أقصى شمال شرق ليبيا وتبعد عن مدينة البيضاء بحوالي بعشرة كيلومترات. (المترجمان)

(٣٠٤) Barca ، "بركي" أو «برقة»، مدينة أسسها الإغريق في شرق ليبيا الحالية، لتصبح لاحقًا مدينة رومانية ومن ثم بيزنطية. (المترجمان)

(٣٠٥) تخص علية القوم من الوزراء والمهندسين و الكتاب والفنانين وخلافه. (المترجمان)

في طريق زواجهما. أعطى الساحر محمد تعويذه ورقية دفنهما في إحدى الليالي أمام عتبة منزل حماه. كان تأثير التعويذة ناجحًا ففي خلال ثلاثة أيام لان القلب القاسي، وأُبْرِم عقد النكاح.

يستخدم بعض البدو تعاويذ مماثلة لتصويب بنادقهم ولكي تكون تسديداتهم ورمياتهم مميتة، بينما لا يؤمن آخرون بمثل هذا الأعمال السحرية.

بعد فترةٍ وجيزة من طلوع القمر، الذي كان ساحرًا للغاية وقت الفيضان، اضطررت إلى الرحيل. بينما كنت أسير عائدًا إلى المركبة، سألني محمد ما إذا كنت أحمل أية مسدسات؟ لم أجزم. قلت له: ربما نعم، ربما لا. ألحَّ علي بشدة، فوجهته ليهتم بشئونه الخاصة. عندئذ بدا متألمًا. قال أنه شعر فقط بالقلق عليّ لأن العربان في كثير من الأحيان ينسلون من قراهم ليلاً ويهاجمون المسافرين الفرادى. أخبرني أنه تعرض نفسه للهجوم في إحدى الليالي عندما كان قافلا إلى البيت بمفرده، وأن قوة ساقيه في الركض هو ما أنقذه. كان أسلوبه شديد الجدية، لكني تظاهرت بأنه لا يوجد ثمة ما يُقلق. في المركبة وجدت شحاتة وغيره يطرحون نفس السؤال عن مسدساتي، لكنهم حصلوا على نفس الإجابة. سردوا لي قصصًا مروعة عن مخاطر الطريق أثناء الليل، وعرضوا إقراضي بعض أسلحتهم الخاصة، لكني رفضت أخذها. قبل اعتلاء المركبة، التقطت حجرًا كبيرًا لاستخدامه كقذيفة عند الحاجة، ثم بدأت في التحرك. كنت مضطربًا بعض الشيء. رفض شحاتة أن يتركني، وتبع مركبتي جريًا على الأقدام. ظللت أناشده عدة مرات أن يؤوب، لكنه كرر أكثر من مرة أنه خائف على حياتي، وركض بجانبي. في النهاية عندما أيقنت أنه مصمم طلبت منه أن يركب معي؛ وهكذا وصلنا إلى القاهرة سويًا. لم يحفل الطريق بأية مغامرة مثيرة، على الرغم

من أن شحاتة أشار إلى العديد من الأماكن المظلمة ذات المظهر الخطير بين القصب والأشجار يمكن للصوص عمل كمائن بها إذا عن لهم ذلك.

نزلت في قصر الإسماعيلية وأرسلت العربة إلى قصر عابدين، لكن الخديوي كان قد خرج لرحلة على سفح المياه في ضوء القمر. جلست في الحديقة مع مصطفى باشا، وعلي بك، وغيرهم. لاح رئيس الخصي. قام الجميع لتحيته فيما عدايّ، حيث بقيت جالسًا بعناد وكان ظهري شبه منثني، مبديًا عدم الاكتراث. تذلل له رجال البلاط لكي يمتدحهم في الأوساط العليا. كَانَت هذه إحدى النقاط التي ظللت مختلفًا فيها مع تقاليد البلاط السائدة. تكرر نفس الشيء مع الشماشيرجي؛ رأيت أحد رؤساء المراسم يحيي «زوجته الشابة بشكل رسمي!

في اليوم التالي، علمت أن الخديوي والبَاشَوات قاطبة تحدثوا عن زيارتي إلى الأهرامات بمفردي. اتفق الجميع على أن هذه الزيارة محفوفة بالمخاطر حقًا. تلقيت تحذيرًا جادًا بعدم الإقدام على مثل هذا الفعلة في المستقبل. ما أضحكني بشدة هو أن خادمي - عند وصول المركبة إلى قصر عابدين - حمل الحجر الكبير الذي نسيت أمره بعناية فائقة ونقله إلى غرفة نومي وتركه يزين إحدى المناضد.

قلت: «ما هذا يا محمد؟».

«ما شاء الله! إنه التحفة الجميلة التي أحضرتها سعادتك في المركبة من الأهرامات!»

عندما قابلت الخديوي في المساء، حكيت له عن العديد من الأشياء اللطيفة التي قالها عنه البدو، ورويت له قصة الساحر. قال لي عظمته أن الشرطة ألقت القبض على أحد الدجالين الذين علقت بهم السمعة السيئة.

لعب الرجل على مدار السنوات الثلاثين الماضية في القاهرة دور «الرجل المبارك»؛ واستغل موضوع البركة تلك في استدراج النساء إلى منزله. كان يقنع النساء بعد المقابلة الأولى أن يقدمن عليه في أبهى حللهن ومجوهراتهن ويعدهن بالثراء والسعادة العظيمة، محذرًا إياهن أن يخبرن أزواجهن أو أقاربهن بأي شيء عن هذه الزيارات حتى لا يُفسد السحر وتحل عليهم اللعنات الفظيعة؛ ثم يقوم بقتلهن وسلبهن. قال الخديوي أن ذلك الساحر قتل ما لا يقل عن مائة سيدة بهذه الطريقة، بينما اعترض تورابي على هذا العدد معتقدًا أنه مبالغ فيه. اعترف الرجل المبروك بخمسة جرائم قتل من هذا النوع، وأُعْدِمَ شنقًا حتى تأخذ العدالة مجراها.

منذ عشر سنوات ذاع صيت «رجل مبارك» آخر بسبب حياته الزاهدة وانقطاعه، بالإضافة إلى موهبته الخارقة في مداواة المرضى. عاش في مغارة في الصحراء وفيها كان يعالج العقم بصورة ساحرة. لجأت إليه العديد من النسوة في الخفاء. بعد القيام ببعض الطقوس في خلوته كنّ يرجعن بتعويذة مفعولها نافذ في حينه. في أحد الأيام قرر عثمان باشا (الحاكم الحالي لأسيوط)، وبعض الضباط الآخرين، زيارة هذا الناسك بعد ما سمعوا عن فضائله وقواه الروحانية، فوجدوه في الكهف متدثرًا في تجهم ورع أخفى ملامحه تمامًا. أرادوا إماطة اللثام عن ماهية ذلك الجسد القابع هناك، والذي يحوي بين جوانحه وثناياه تلك القوى الروحية العظيمة جدًا. أوقدوا المشاعل؛ وبمجرد أن أضاء الوهج الكهف، اكتشفوا أن هذا القديس هو الرقيب ذو البنية العضلية القوية الذي فر من فرقتهم الخاصة. قبضوا عليه وقيدوه واقتادوه إلى الثكنات حيث جُلد خمسمائة جلدة، لعلاجه من أمر الكرامات والبركات.

هناك رجل آخر ينتمي إلى نفس الفصيلة يقطن الآن الحي العربي في القاهرة بالقرب من سوق السمك. كان يَدّعي الفضائل العظيمة، لكنه يمارس جميع الرذائل. كان لا يستقبل سوى النساء، فيأسر مخيلتهن الساذجة بتمتمة بعض النصوص والتعويذات؛ ثم يعدهن بكل ثروات وروائع الشرق. كان يعيش في قذارة وبؤس، فشعره وأظافره غير مقلمين، وجسده ترتع فيه الطفيليات، ومع ذلك يخبر زائراته أنه يعلم مفاتيح الغيب، وأنه صديق لله ويتحدث معه، وأنه يمكن أن يمنح الغنى و الشرف لمن يشاء. صدقت المسكينات كل ذلك دون أدنى شك، وفي ذروة حماسهن كنّ لا يرفضنّ له طلباً.

قُبَيْلَ نهاية شهر سبتمبر حانت مغادرة المحمل - حيث يُرْسِل الخديوي نوعًا من الهوادج يحتوي على الكسوة المباركة سنويًا في موكب رسمي إلى مكة المكرمة. نقطة البداية هي الساحة تحت القلعة،(٣٠٦) وفيها احتشدت القوات منذ ساعة مبكرة، بينما احتلَّ المتفرجون جميع المواقع الممتازة: أسف نتوء المنحدرات، والبوابات، والأسوار، والشرفات، والمآذن. شكلت ثياب النساء البيضاء أو الزرقاء، وكذا ملابس الرجال متعددة الألوان، التي لمعت في أشعة الشمس القوية، مشهدًا رائعًا جدًا وشرقيًا بامتياز. في الربيع، عندما يعود المحمل، يكون نصف الحشد أوروبيًا،(٣٠٧) أما الآن فهناك ستة فقط من الأوروبيين حاضرين. وصل الخديوي في الثامنة والنصف صباحًا، ونزل في خيمة من الحرير القرمزي أعدت له، في حين رعدت مدفعيات القلعة بالتحية. تَقَدّمَ موكب من الإبل من أقاصي الميدان حتى المساحة الخالية أمام الخيمة. طافت النوق والبعير ثلاثية، اقتيد بعدها جمل المحمل إلى الخيمة حيث سلّم الشيخ عنان لجامه إلى

(٣٠٦)ميدان الرميلة. (المترجمان)

(٣٠٧) لم يعط بتلر سببا لذلك، لكن ربما تكون درجة الحرارة. (المترجمان)

الخديوي الذي ناوله بدوره إلى الضابطِ قائد الحرس، في إشارة إلى أن عليه أن يراقب المحمل أثناء الرحلة، وأن يعيده سالمًا إلى القاهرة. عندما يعود الضابط إلى القاهرة مرةً أخرى يُسلّم العنان إلى الخديوي في احتفالٍ مماثل.

تحرك الموكب في طليعته موكب من الرمّاحين ورجال الدرك، ثم حاملو المشاعل مرتدين الحرير الملون، يليهم ستة رجال يمتطون الخيول ويرتدون ملابس حريرية عاجية اللون مطرزة في بعض المواضع على شكل مربعات متباينة حمراء اللون. كان هؤلاء هم الرجال الذين أوكل إليهم حماية الإبل. جاء بعدهم مجموعة من المطربين سيراً على الأقدام يحملون مناسيء طويلة، وعدد من ضباط الخيالة؛ ورجلين يؤرجحان مباخر العود المحترق؛ ثم أتى المحمل- سرادق من الحرير الأحمر، المطرز بالذهب، له أعمدة في كل ركن يعلوها كرات وأهّلة مرصعة بالفضة، وهناك حلية مماثلة على القمّة. كان جمل المحمل مُزينًا بزخارفٍ رائعة، وعلى رأسه قماش من الذهب، وعلى أنفه ريشة من ريش النعام. كان أمير الحج، يركب جمل آخر مزين بالأعلام الصغيرة، ويتدلى من سرجه الأمتعة المختلفة بما في ذلك جرس يدوي كبير. يحمل الجمل الثالث رجلاً غريب المظهر يُدعى شيخ الإبل، سمين البنية، طويل الشعر وذو لحية كثة، عاري حتى الخصر، وحاسر الرأس. كان هناك جمل آخر يركبه شيخ الهرة، الذي كانت مسئوليته حسب العرف القديم هو رعاية هرة كبيرة في السن اختيرت لأداء فريضة الحج. لا أدري ما إذا كان هذا العرف يرجع إلى عادة مصرية قديمة في عبادة القطط أم لا. تبع ذلك شيخ الراية، وستة من الإبل مع الموسيقيين، وخمسة مع الحجاج. كان بعض الإبل مزينًا بحزمات كبيرة من أوراق النخيل مرتفعة كالريش الضخم من جانبي السرج؛ وفي آخر الركب أتى جمل واحد يحمل صندوقًا مربعًا رحيبًا للمؤن متدلي على أحد الجانبين. لاحق الدراويش

الموكب خارج المدينة وهم يحملون الشارات حسب مراتبهم المختلفة، فبعضهم يحمل الدروع المبهرجة، وبعضهم يحمل السكاكين أو الثعابين، والبعض الآخر يحمل العصي التي علق عليها شبكاك بها أسماك.

يذهب مع الحجاج إلى مكة المكرمة حرس يتكون من مائتي فارس مغوار. يصطف الضباط بشكلٍ رائع في الأزياء الرسمية الأرجوانيةِ والذهبيةِ والقرمزيةِ، ويمتطون السروج ذات المساند المرتفعة المغطاة بقماش مذهب ، ويحملون سيوفًا معقوفة ذات مقابض فضية.

لم يمض وقت طويل بعد رحيل المحمل حتى قضى كبير الدراويش سعيد البكري نحبه. يُكَون الدراويش رابطة أو أخوية كتلك التي تُعرف بالماسونية. وعلى الرغم من أن الروابط بينهم أساسها ديني إلا أن ملة محمد لا تعترف بنهجهم. يُعين حاكم مصر شيخ الدراويش، وقد اختار الخديوي في هذه الحالة ابن المتوفى ليكون شيخ الدراويش، وتم تنصيبه في قصر الإسماعيلية في احتفال مهيب. قُبَيلَ الظهر، جاب موكب كبير من الدراويش الشوارع رافعين الرايات الكبيرة. عُلِّقَت هذه الرايات على أعمدة طولها حوالي خمسة عشر قدمًا؛ ائتلفت بعض الرايات من لون واحد، لكن معظمها كان مفعما بالألوان: الأحمر، والأخضر، والأسود، والأصفر، ومزينة بالأُطُر التقليدية، والزهور، ومطرز عليها نصوص من القرآن الكريم. يعلو الأعمدة كرات أو أهلة أو تصاميم مفرغة مصنوعة من الفضة أو البرونز. بمجرد وصول الموكب إلى القصر، اتخذ الرجال مواقعهم على طول الطريق الخارجي، واحتشد أصحاب العمائم سريعًا حتى سدُّوا الفراغ بين صفي الدراويش الطويلين. عم سكون مهيب. لم يصدر أي صوت عن حشود الشرقيين وما أدراك ما هم. يتناقض هذا الصمت مع صخب

واندفاع الحشود الإنجليزية، مثلما يتناقض سكون بستان النخيل في الربيع مع «الموسيقى البرية» التي « تلازم كل غصن» في الغابات الإنجليزية. سرعان ما سُمِعَ ضجيج بالخارج. تبين أن زوج من الثيران يسحبان حمولة ثقيلة على إحدى الكارات الضخمة المفتوحة من الجانبين والمملوكة للدولة. كانت الكارة تصارع لتشق طريقها ببطء وسط الحشود.

حدثت جلبة أخرى بدون أي همهمة صوتية. هذه المرة كان الشيخ ومرافقيه. ولج في القصر ثم اقتيد إلى غرفة الانتظار. عندما أصبح الخديوي مستعدًا، تقدّم الشيخ ومرافقوه عبر الحدائق إلى الشرفة الرخامية، ثم صعد الشيخ الدرج إلى الدهليز، بينما توقف أتباعه في مجموعة بالأسفل، وانسدلت ثيابهم الحريرية الفاخرة بنعومة مبهرة على خلفية الرخام الأبيض. كانت عباءاتهم الخارجية أو «الجبَّة» ذات لون واحد، أسود، أو بني، أو أخضر بلون البحر، أو بنفسجي أو أزرق سماوي، أو أحمر قاني أو قرمزي؛ وتحتها «القفطان» المخطط، الذي كان من لون يتناسب مع لون الجبَّة. كان اللون الغالب على العِمَّات هو الأبيض؛ وهي من نموذج يُسمى «العمامة المكلوسة[٣٠٨]»، بينما ارتدى الأشراف العِمَّات الخضراء كالعادة. لقد كان المشهد منقطع النظير بالنسبة للملابس والألوان. في هذه الأثناء حيَّا الخديوي الشيخ الجديد، وأشار إلى إحدى الأرائك ليجلس عليها. قُدِّمَت القهوة في أكواب ذات حوامل ذهبية، ومعها الغليون الرسمي بقطعة المبسم المرصعة بالجواهر. تبادل الخديوي الحديث والنصح مع شيخ الدراويش، طالبا منه القضاء تدريجيًا على جميع الممارسات الدينية المنافية للإنسانية مثل الدوسة، وأكل الثعابين، وتشويه الأجسام؛ ووعده الشيخ

(٣٠٨) العمامة المكورة، هي العمامة البيضاء الأسطوانية، التي يتعمم بها كبار رجال الدين في الطائفة الدرزية. (المترجمان)

بتنفيذ هذا الأمر. عندئذ أُحْضِرَ الرداء الرسمي، وهو ثوب من الحرير الأخضر الداكن مزين بفرو السمّور، والعمامة المقدسة التي يبلغ قطرها قدمين تقريبًا. تكونت العمامة من وشاح أسود ضخم ملتف عدة لفات حول قبعة خضراء في انثناءات مدمجة. يقدّر عمر القبعة بسبعمائة سنة، ويُجدَّد الغطاء الخارجي لها فقط من حين لآخر. عندما وُضِعتْ العمامة على رأس الشيخ والعباءة حول كتفيه، شحب وجه الشيخ، الذي كان يكبت مشاعره لفترة طويلة، وسقط مغشيًا عليه. قُدم له الماء ولكن دون جدوى، لذا كان لابد من سنده، بل سحبه واقتياده وهو في حالة انهيار لأسفل الدرج الرخامي، حيث كان ينتظره جواد عربي رائع رمادي اللون، أهداه له الخديوي، ليحمله إلى مقصده. عُلّقَ اللجام بالناصية والعنان، كما تدلت من صدر الحصان شراريب مزينة؛ واكتسى القربوس(٣٠٩) والسرج بمشغولات نحاسية محفورة بتصاميم على شكل زهور. كان ركاب السرج مصنوع أيضًا من النحاس المحفور؛ أما غطائه وقماشه فمن المخمل الأخضر المطرز بخيوط الذهب. رُفِعَ الشيخ إلى السرج. حمله أتباعه وأمسكوا بساقيه على الجانبين، وبينما كان يبتعد سبقه أحدهم مرتلا آيات من القرآن الكريم. عند بوابة القصر انحنى شيخ الدراويش مغشيًا عليه فوق عنق جواده، فرشوا عليه الماء مرة أخرى. عندما أفاق، أخذ الجواد يعدو واختفى أخيرا عن الأنظار وسط غابة من البيارق. كان الجميع مستعدون؛ ركب الشيوخ جيادهم العربية التي زُيّنت ببزخ وترف. كان على كل منها سجادة صلاة فاخرة بدلاً من قماش السرج. أخذت البيارق تخفق منطلقة للأمام، ثم أُعيد تشكيل الموكب كله ليجوب شوارع المدينة.

(٣٠٩) الحافة المرتفعة من السرج. (المترجمان)

بعد فترة وجيزة من هذا الحدث، اجتاح القاهرة وباء حمّى «الدنجي»[٣١٠] فلم ينجو منه أحد. عندما التقطت المرض، أظهر خادمي البربري الذي كنت قد اعتنيت به آنفا أثناء إصابته امتنانه بهجري. عندما تعافيت، قال الخديوي أنه حين أصيب تلميذي، محمد علي بك، بتلك الحمى، رفضت الممرضة السماح له بتناول العلاج الذي وصفه له الطبيب، وذبحت - عوضا عن ذلك - دجاجة، ساكبة الدم أسفل ظهر الفتى الصغير كرقية أفضل من جميع الأدوية. بالطبع غضب الخديوي جدًا، وأمر بفصلها. كانت إحدى عواقب هذا الوباء هو خوف وإحجام القادمين إلى مصر، ومن بينهم الجنرال روبرتس،[٣١١] الذي كان عائدًا من انتصاراته في أفغانستان. لكن على الرغم من صعوبة حمى الدنجي في ذاك الوقت، حتى أُطلِقَ عليها اسم « محطمة العظام»، إلا أنها لم تكن خطيرة، ونادرًا ما كانت تترك آثارًا سيئة.

بحلول احتفالات عيد الأضحى، كانت القاهرة قد تعافت من هذا المرض. يقول المسلمون أن أصل هذا الاحتفال هو أن النبي كان يخصص وقتًا لمعايدة أصحابه، وأن أتباعه قد قدسوا تلك الفضيلة حتى صارت إحدى الشعائر؛ كما دمجوا معها أيضًا سنة التضحية السنوية والتي عرفها الشرق منذ قديم الأزل؛ وما زال العرب يجلونها إحياءً لفداء إسحاق[٣١٢] من الذبح على يد إبراهيم. في أول أيام عيد الأضحى المبارك الأربعة، تُذْبَح الجواميس الصغيرة وتُوهب لحومها للفقراء. يقدم كل بيت مسلم أضحية من الأغنام؛ بينما يضحي الأثرياء بالعديد منها. يعتقد الجهلاء منهم أنهم سيكافئون في مقابل كل خروف يذبحونه بحورية في الجنة؛ وهذا هو نهجهم في جني الكنوز في الفردوس.

(٣١٠) Dengue Fever، مرض فيروسي ينتقل عن طريق البعوض. (المترجمان)

(٣١١) Frederick Roberts، ١٨٣٢- ١٩١٤ (المترجمان)

(٣١٢) الذبيح عند النصارى هو إسحاق، بينما يعتقد المسلمون أنه الصبي البكر إسماعيل. (المترجمان)

استيقظت بعد ساعة من شروق الشمس على عزف الموسيقات العسكرية. وجدت الجنود مصطفين في باحة قصر عابدين والخديوي قادم في زينته. في طليعة الموكب امتطى قائد خيالة الخديوي حصان عربي أسود، يليه ستة من الفرسان الأتراك يتبخترون ويتواثبون على خيولهم. كان زيهم الرسمي، المكون من اللونين الأزرق والذهبي، مع الأكمام المتطايرة، والأوشحة الواسعة، والبنطلونات القرمزية، والجترات(٣١٣) المطرزة، أكثر من رائع.



جاءت في إثرهم مركبة مفتوحة يجرها أربعة جياد رمادية تحمل الخديوي، ورياض باشا، ووزير آخر. ركض السائسون على جانب الطريق في ملابسهم البيضاء الفضفاضة وستراتهم المتخمة بالتطريز. في ذيل الموكب كان هناك مجموعة أخرى أقل منزلة من الحرس الخديوي. بعد زيارة قصيرة إلى المسجد،(٣١٤) دخل الخديوي القصر، وأقيمت على الفور مراسم الاستقبال الملكي المعتادة.

عندما انتهى الاستقبال، زرت سمو الأميرة، التي لا تظهر بطبيعة الحال على الساحة. استقبلني رئيس الخصي، الذي أشار إلى السجل الذي يُدون فيه الزوار أسماءهم. في جميع أنحاء غرفة الاستقبال كان البكوات والبَاشَوات متألقين بالذهب. أصر علي بيك، أن أجرب النموذج الإسلامي للسلام (العناق)، الذي يتم تبادله في هذا اليوم مع الاهْتِزاز المستمر للأيادي المُصَافِحة. كان رئيس الخصي شديد اللطف، وهو الأمر الذي أدهشني، فمنذ أسبوع مضى أمرت

(٣١٣) تُسمى «شنكارات» Shin-guards في مجال الرياضة. (المترجمان)

(٣١٤) صلاة العيد. (المترجمان)

بخروجه من تلك الغرفة ذاتها. كنت هناك أدرس للأمراء فدخل رئيس الخصي بدون استئذان. قرّرتُ في الحال أن يغادر، ومن ثم ناديت صديقي علي بيك قائلا: «إن أوامر الخديوي تنص على ألا يدخل أحد هذه الغرفة أثناء تدريسي للأمراء.»

فأجاب: «مفهوم، لكن يا سيدي لا يوجد أحد هنا!»

«لا يوجد أحد هنا؟ إذن من هذا الذي على الأريكة هناك؟»

عندئذ بدا على وجهه الانزعاج الذي تضاعف عندما قلت: «من فضلك أبلغ هذا الرجل أن يخرج».

قال علي «بسم الله!»، «هل نسيت أنه شخص صاحب مكانة. إنه رئيس الخصي الخاص بجناب الخديوي، هلا تغاضيت عن هذا. دعنا لا نكدر صفو اليوم. استحلفك بالله، يمكنك التحدث في هذا الأمر غدًا».

عندما أيقنت أنني لن أحصل على أي مساعدة من علي، سرت في اتجاه رئيس الخصي، الذي قام وحياني. تلوت عليه أوامر الخديوي، فظل صامتًا وواقفًا. فالتفتُ نحو علي بك قائلا: «إذا بقي هذا الرجل، فسيكون الدرس قد انتهى.» عندما رأيت أن رئيس الخصي لا يزال هناك، أغلقت الكتب، قائلاً: « لقد انتهينا.» قررت اصطحاب الأمراء بعيدًا. بينما كنا نغادر الغرفة، أخفى علي بك نفسه للحظة وراء الستارة، وهمس وفي عينيه وميض من السعادة: «أحسنت، أحسنت، أحسنت!» مع الضغط الشديد على المقطع الأخير من الكلمة. انتظر حتى عودتي وكاد يرقص من شدة الفرح وهو يصيح قائلاً: «رائع! بديع! أطال الله عمرك!»

أجبته قائلاً: «إن الجميع يخشون هذا الرجل، أما أنا فلا أخشاه، إنني أحترم فقط أوامر الخديوي.» عندئذ انتهت الواقعة التي تُعَد مثالاً غريبًا للشخصية الشرقية.

واستئنافًا لما كنت أرويه، فعلى الرغم من أن الأميرة لا تقابل إلا السيدات، إلا أنها تقيم حفل استقبال خاص بها في عيد الأضحى، وترتدي أكثر مجوهراتها روعة وفخامة. في هذه المناسبة كانت ترتدي إكليلاً كبيرًا وقلادة من الماس بها دلاية رائعة، ونجمة من الماس (بروش) على الجانب الأيسر من صدر الثوب. كانت أصابعها متوهجة بالمجوهرات، التي كان بينها ما هو بهي وكبير كالبندقة. أما وصيفات الأميرة فكن يرتدين الملابس الحريرية متفاوتة الألوان، ويعلقن وشاح حول خصورهن؛ وقد جُمعت أذيال أثوابهن وثُبِّتت حول الركبتين من جهة الأمام في شكل غريب. أقاما الأمير محمود وإبراهيم باشا أيضًا حفلات استقبال في قصريهما. في الواقع كان على المرء أن يقضي ذاك اليوم في جولة متنقلا بين القصور.

يتبادل الأغنياء في العيد الكثير من الهدايا. في أيام الخديوي إسماعيل كان كل عضو من أعضاء المحكمة يتلقى هدية: سيفًا، أو حصانًا، أو جوهرة ثمينة. قال لي تورابي أنه رأى ذات مرة عشرين علبة مليئة بالمجوهرات مخصصة كمنحة لرجال البلاط... لقد ولت تلك الأيام.

كانت المواكب التي تنقل هدايا أحد البَاشَوات الأثرياء عجيبة، حيث تتحرك في شكل قافلتين منفصلتين مع وجود مساحة مفتوحة بينهما. في البداية تأتي الفرقة الموسيقية، يليها ستة رجال يرتدون الثياب الرسمية للبلاط والقفازات البيضاء، ويحملون في كل يد شمعة طويلة ملفوفة بالشاش. يأتي خلف هؤلاء اثنا

عشر رجلاً يرتدون الأزياء الوطنية من الحرير القرمزي، ويحمل كل منهم فوق عمامته البيضاء صينية مستديرة مغلفة بالقماش الخفيف الفضي. يستطيع المرء أن يرى تحت الغطاء الشفاف أطباقًا من الحلوى والعديد من الصناديق والحزم الصغيرة ملفوفة في الحرير. أحيانًا يتكَوَّن الموكب من مركبات يجلس فيها حاملي الصحاف في حالة من الوقار واضعًا صحفته على ركبتيه. إذا تقاطرت المركبات عن كثب دل ذلك على وجود سيدات على وشك القيام بالزيارات، ومن ثم تسبقهن هداياهن.

تُشَاهد صواني هدايا مماثلة في مناسبات الزواج، لأنه من المعتاد أن يُضفي العريس جوًا من البهجة على معارفه وأقاربه. على عكس العادات الإنجليزية، في مصر لا يتلقى العريس أي شيء، بل يقدم هو الهدايا لجميع أصدقائه. ومن فرط سرور الزوج لا يشغل باله بلا شك بمن توهب له هذه الهدايا حتى لو شاب الأمر بعض العشوائية. وعلى النقيض مما قاله لين، أو ربما بسبب اختلاف التقاليد، فإن التوقيع على عقد الزواج أصبح أمرا معتادًا اليوم. على سبيل المثال عندما دُعِيتُ إلى حفل زفاف يعقوب بك، تجمع الضيوف في منزله في الصباح وشهدوا توقيع العقد، ووُزِّعَت الهدايا، ثم تفرق الجمع على أن يلتقوا مرة أخرى وقت العِشاء، لمشاهدة زفة العريس بالمشاعل لدى عودته من المسجد.

على الرغم من أن عيد الأضحى هو أكثر الأوقات ابتهاجًا، إلا أنه يلي مباشرة يوم الوقفة والذي يشهد طقوسا من الحداد[٣١٥] من جانب النساء، ففي عشية الاحتفال، وعندما كنت أمتطي جوادي في الصحراء، مررت بالمكان المهيب

(٣١٥) يبدو أن الكاتب يشير هنا إلى ما اعتاده بعض المصريين من زيارة الموتى من أقاربهم أثناء العيد أو قبله بيوم. ما زالت هذه العادة متبعة حتى يومنا هذا في الكثير من القرى والنجوع في مصر حيث يذهب الرجال بعض صلاة العيد مباشرة إلى المقابر لزيارة موتاهم بينما تذهب النساء يوم الوقفة. (المترجمان)

المخصص للقبور والذي يقع جنوب القاهرة.[٣١٦] وجدت أغلب المقابر الحديثة محاطة بمجموعات من النسوة اللاتي جلسن على الأرض يبكين، ويصحن، وينتحبن كما سجلت الآثار القديمة. عم الرثاء والحسرة جنبات المكان. زين العديد من المشيعين قبور أعزائهم الراحلين بالزهور وسعف النخيل، بينما نصب البعض الخيام بجانب بعضها حتى يتمكنوا من الجلوس وتناول الطعام، والنوم، ومداومة الندب. برهنت النيران المُضرمة والطعام الذي يُعد في أوعية فوقها على أن الصيام ليس جزءًا من طقوس هذا الاحتفال.

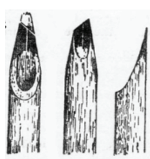
في تلك الأثناء شرفت بتلقي دعوة لزيارة الشّيخِ أحمد محمد السادات الذي يتمتع باللطف ودماثة الخلق. يسكن الشيخ محمد أحد قصور القاهرة القديمة الباقية حتى الآن. يُقال أن أسرته عاشت في نفس المنزل لمدة ثمانمائة عام. قد يكون هذا صحيحًا إذا سلمنا بأن تاريخ بناء المنزل يعود في القدم إلى ألف ومائتين أو ألف ثلاثمائة عام.[٣١٧] قدت المركبة برفقة أحد السعاة خلال الشوارع الضيقة والمتعرجة. بعد اصطدام سريع، لكنه طفيف مع مركبة أخرى وصلنا أمام البوابة. نهض ستة من الخدم محيين ثم اصطحبوني إلى الفناء، حيث جلس الشيخ في جلباب رائع على مقعد عتيق وغريب. شعّ وجهه البشوش بالترحاب، وانفرجت شفتاه بفيض من التعبيرات العاطفية الشرقية وهو ينهض ويأخذني من ذراعي ليفرجني على المكان. ذهبنا أولاً إلى غرفة استقبال كبيرة وقاعة جميلة طولها ستون قدمًا وارتفاعها أربعون قدمًا، وبها ثلاثة مشربيات كبيرة متباينة العرض على كل جانب. اكتست أرضية القاعة بالرخام. عند المنتصف تشطر درجة سلم القاعة إلى مستويين. وضعت أرائك

(٣١٦) مقابر الإمام الشافعي والخليفة. (المترجمان)

(٣١٧) ذكر علي مبارك في الخطط التوفيقية أن المنزل أقيم عام ١٧٥٤ ميلادية؛ ويقع في الحلمية الجديدة بالسيدة زينب. (المترجمان)

بمحاذاة الحائط في جميع أنحاء المستوى العلوي حيث تسلل الضوء من النوافذ المرتفعة، أما النصف الآخر من المبنى فهو مضاء فقط بمصباح يتدلى من قبة كبيرة. يوجد عند الجدار الغربي نافورة تُطلق سرسوب من المياه في حوض من الرخام. كان كل شبر من الحوض مغطى بالبلاط الدمشقي واليوناني المنسوب إلى جزيرة رودس، وتصميماته أكثر من رائعة، لكن معظمه يعاني من التصدع والسقوط، لذا فقد تم استبدال القطع التي وقعت بلصق رسومات جدارية مائية[٣١٨] في محاولة بجة لتقليد الأنماط القديمة. تُعتبر تصميمات البلاط في كافة أرجاء المستوى العلوي مثالية. كان السقف مصنوعًا من الخشب المطلي بالذهب والملون بأسلوب غاية في الروعة. ترتكز العوارض الرئيسية على إفريز حجري مزخرف يحوي نحتا بديعا، كما طُليت الأفاريز وكذا الركنيات العلوية برتوش ذهبية لتلائم السقف.

جلسنا نحتسي القهوة وننفث الدخان الذي لا مفر منه. يستخدم المصريون لفظ «يشرب» التبغ عوضًا عن «يدخن» التبغ. اصطحبني أحمد لمشاهدة «مكتبه»، وهو عبارة عن غرفة طويلة منخفضة ذات سقف منحوت بأناقة، ونوافذ مطلة على حديقة. كان هناك كتب، ويراعات للكتابة.



(٣١٨) استخدم الكاتب كلمة "فريسكو" التي تعني تصوير جصي (أي رسم بالألوان المائية على الملاط الرطب) وهو أحد أشكال الفن التي يتم من خلالها استخدام الجص كمادة لتمليط أو تجصيص سقف أو جدران بشكل فني. كلمة فريسكو جاءت من الكلمة الإيطالية affresco التي تعني غض أو طري. (المترجمان)

كانت الأوراق ملقاة في كل مكان على السجاد الفاخر الذي يُغطي الأرضية. لم يكن هناك أية مقاعد سوى الأرائك، وبالطبع لم يكن هناك أي طاولات للكتابة؛ حيث أن المصريين دائمًا ما يُدونون على كف اليد اليسرى كما كان يفعل أجدادهم القدماء. انتقلنا لغرفة ثالثة عن طريق اجتياز ممر طويل من تكعيبات العنب، سقف آخر بديع وأرضية رخامية مطعمة بالفسيفساء على نحو أنيق. كانت المشربيات الموجودة بالحرملك من أجمل ما رأيت في القاهرة. يظهر من خلالها ومضات خافتة من غرف أخرى رائعة، لكن السيدات كنَّ متواجدات، وبالطبع كان الدخول ممنوعًا. بعد نظرة خاطفة على المسجد الخاص، ودَّعت القوم. اصطحبني مضيفي إلى المركبة وودعني بالسلامات والتحيات الحارة.

التقيت الشيخ محمد، شاعر شاب ملأت شهرته الآفاق، في حفل عَشاء أهلي. جلس الموسيقيون القرفصاء على المقاعد يصدحون بأغانيه على العود والقانون والكامنجة والرق. من الضروري هنا في الشرق أن يكون الشاعر نفسه موسيقياً، يكتب كلمات أغنيته، ويلحنها، ثم يرسل للموسيقيين، ويغنيها لهم، ويُعَلِّمهم الكلمات والموسيقى المصاحبة لها. يُعَلِّم هؤلاء غيرهم، وهكذا تنشر الأغنية. لا شك أن القصائد الشعبية لهوميروس وأغاني أنكريون[٣١٩] انتشرت بنفس الطريقة. في الليل كتبت عن الشيخ محمد الذي ارتدى رداءً من الحرير بنفسجي اللون وتحته قفطان مخطط باللون الأصفر، وحمل عصا طويلة رأسها من العاج؛ كما كان ثملاً للغاية.

تدق الساعات المصرية دائمًا على رأس الساعة مرتين بفاصل دقيقة بين كليهما. حسبما أخبرني أحد المواطنين، في المرة الأولى غالبًا ما يكون المرء نائمًا،

(٣١٩) Anacreon، (٥٨٢ – ٤٨٥ ق. م.)، شاعر يوناني غنائي اشتهر بقصائده عن معاقرة الخمر. (المترجمان)

وإذا استيقظ بسبب صوتها، فإنه لن يتمكن من عد الدقات بالكامل. إن النهوض لمعرفة الوقت، أو حتى فتح العينين بدون داع لأمر مجهد. لذا تبدأ الساعة في الدق من جديد. ومن منطلق هذه الفكرة أروي تفاصيل زيارة أخرى قمت بها إلى الأهرامات بعد حوالي شهر من تلك الزيارة التي ذكرتها في بداية هذا الفصل. لم تكن الزيارة الثانية مجرد تكرار فهذه المرة، وبمجرد بلوغنا الصحراء، بدأ المطر في الهطول للمرة الأولى منذ ثمانية أشهر. بدت السماء ملبدة بسحب قاتمة تشبه غيوم شهر نوفمبر في انجلترا، مما أضفى مسحة من الشجن والكآبة والحزن على الأهرامات، بحيث لا يمكن أن يتخيلها أولئك الذين شاهدوها فقط في الشمس المتألقة أو النجوم الزاهرة. كان المشهد حولنا قاتما ولون أحجار الأهرام داكنًا في المطر. توشح أبو الهول بابتسامته الأبدية، إلا أنه بدا موحلاً وشجيًا حيث لم تستطع عيناه رؤية التلال الشرقية أمامه في مشهد يوحي برمته بالمجد الراحل والمهابة الضائعة. إن مشهد الأهرامات في هذا الطقس الغائم أمر صعب على النفس بكل تأكيد.

أحيا الوهج الوردي الخافت لغروب الشمس الأمل في أمسية صافية، لكن آمالنا ذهبت أدراج الرياح، فعقدنا العزم أخيرًا على البحث عن مأوى داخل الهرم الأكبر. كان ممر التهوية الهابط من المدخل رطبًا جدًا بطبيعة الحال، لكن بمجرد بلوغنا القاع، ارتقينا - وسط جو من الجفاف والحرارة - الممر الطويل المائل الذي يُفضي إلى حجرة الملك. أُضيئت الشموع وفُرِشت البُسُط، لكن الظلام كان حالكًا لدرجة أن مشاعلنا الستة أنارت فقط إحدى جوانب الغرفة.

تناولنا العشاء مع ستة من العرب يعملون في خدمتنا. دخل علينا قرب نهاية العشاء رجل سابع في صمت مطبق. كان الرجل مسنا ونحيلا جدا؛ كما

كان يحمل مجمرة (راكية). لم يبد الرجل أدنى اهتمام بالحاضرين. فقط وضع المجمرة في نهاية الغرفة، ثم وضع على الفحم المتقد إبريق صغير من النحاس الأصفر. جلس القرفصاء أمام النار متمتما بأغنية رتيبة جافة أو ربما كانت إحدى التعاويذ. كان الرجل يتوقف للحظة فقط بين الفنية والأخرى للنفخ في الجمر. كلما كانت أنفاسه تزيد الفحم اشتعالاً وتحوله إلى وهج لامع، انعكس وهج متورد على شخصيته الغامضة ولحيته الشهباء، وذراعيه البرونزيين القويين العاريين حتى كتفيه، وثوبه الأبيض وعمامته الناصعة؛ وعندما كان يتوقف عن النفخ في النار، يتلاشى الانعكاس مخلفا كآبة قاتمة. بدا المشهد لي وكأننا في كهف أحد السحرة. عزز هذا الإحساس استغراق الرجل الكامل في عمله، وفقدانه الشعور بأي فرد حوله، وغناءه الذي سبب له نوعا من الراحة، وصورته الغريبة المهتزة خلف غلالة رقيقة من الهواء الساخن المنبعث من جذوة اللهب.

لكن الجرعة المُقطرة في الإمبيق[٣٢٠] الخاص بساحرنا كانت مجرد قهوة من أفضل ما احتسيت. إنه لأمر مؤسف أن الغربيين ليسوا بارعين في مثل هذا النوع من الكيمياء. جلسنا ندخن ونتحدث لبعض الوقت، بينما كان المطر لا يزال يتساقط بالخارج. عمل العرب على تسليتنا بالأغاني والرقصات التي سرتهم وربما سرت عنهم في مثل هذه الظروف المحيطة. ولما أدركنا أنه لا طائل من الانتظار، عدنا أدراجنا في خضم المطر المنهمر تحت سماء عز فيها القمر.

(٣٢٠) أداة كيميائية للتقطير. (المترجمان)

الفصل التاسع

السحر الأسود- الخديوي وأحد السحرة- قبطي يتاجر في الأحـراز- احـتفال فـارسي مـميز- طقـوس دمويـة- دعاء التضرع وتلاوة قرآنية - مزيد من الكلام حول الدوسة- أساطير عربية

تكتسي قصص السحر في الشرق دومًا بجاذبية خاصة. يميل المرء - بدرجة ما - إلى التصديق بامتلاك الحكماء الشرقيين طرفًا من علم السحر والأرواح، ذلك الذي فقده الغرب منذ أمد في خضم التغييرات المتلاحقة التي شهدها. لقد قفزت إلى ذاكرتي الآن قصة تبدأ خيوطها حين استدعاني الخديوي في إحدى الأمسيات قائلا:

« أود إخبارك بشيء عجيب. يتواجد في القاهرة الآن تُركِي في حوزته خاتم يَدعِي أن لديه قدرات سحرية. قابلت الرجل وعاينت الخاتم فوجدته من الذهب ومرصع بحجر أحمر اللون يزعم أنه جُلب من مكة. أراني أيضًا طبق فضي نُقشت عليه آيات من القرآن. فشل في تفسير أسباب عدم إتيانه السحر بنفسه، بل عن طريق وسيط، طفل دون العاشرة. يأخذ الطفل الخاتم ويضع الطبق الفضي فوق رأسه؛ وفي لحظات معدودة يتبدل لون الفص إلى الأبيض وتتجلى فيه رؤى تُمكن الطفل من الإجابة على أي سؤال.»

تابع الخديوي حديثه مفصحًا عن طلبه بحمل الخاتم إلى قصره حيث يتوفر نوع من الخصوصية لفحصه إذ أنه وجد صعوبة في تصديق ما حدث بشكل تام. وافق حائز الخاتم فأخذه الخديوي إلى قصر الإسماعيلية حيث تصادف وجود ابنة لمرضة. كانت الفتاة في الثامنة من عمرها وأمية لا تستطيع القراءة أو الكتابة. حين تم وضِع الطبق الفضي فوق رأسها ومناولتها الخاتم صاحت الطفلة على الفور: «لقد تحول لون الفص إلى الأبيض.» انبرى الخديوي في توجيه أسئلة حول أشخاص لم تلتق بهم الفتاة من قبل فجاءت أوصافها صحيحة. توجه أحد الحاضرين إليها بالسؤال:

«كم من الأطفال لدي؟»

«ولدان وبنت.»

«صحيح... كيف يبدو الولد الكبير؟»

«يرتدي زيًا بصف من الأزرار في الأمام وسروال مُقلم ولديه سيف.»

«وما هي هيئة الولد الثاني؟»

«يرتدي زيًا بصفين من الأزرار في الأمام؛ على كميه تطريز لمرساة وكتافات ذهبية صغيرة.»

كان أحدهما في الجيش التركي والآخر في البحرية التركية؛ وكلاهما مجهولين تماما للطفلة. من الصعب التفكير في نظرية التواطؤ إذ أنه من المستحيل - حتى على الساحر - دخول الحرملك. زد على ذلك أن الأسئلة كانت جد متلاحقة

ومتباينة فلا يستقيم معها تبديل الإجابات أو تخمينها. أنهى الخديوي القصة قائلاً: «لا يمكنني تصديق ما حدث، لكني أيضًا لا أستطيع تبريره.»

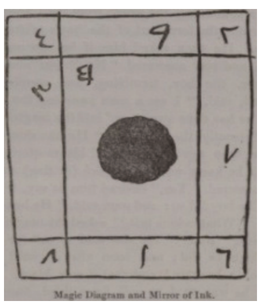
تناوبت نزرًا يسيرًا من الحديث مع الخديوي حول المستبصرين والمُنومِين مغناطيسيًا؛ عرج بعده جلالته على حكاية ذات صلة حدثت له قبل أن يجلس على العرش. سأل سموه عرافًا كان بصحبة ناظر الجهادية: «ماذا في جعبتك عن مصر.» طلب العراف أن يُمهَل دقيقتين ثم أجاب: «الحرب مع الحبشة.» عاد الأمير يستفسر منه: «وهل ستكون الغلبة للجيش المصري؟» أجاب العراف: «أمهلني ست دقائق.»

بدا الانزعاج على وجه الرجل مع انقضاء المهلة. ارتجف صوته وارتعش جسمه برمته وهو يجيب: «ستكون الهزيمة من نصيب المصريين وسينكسر جيشهم؛ ولن يبقى منه سوى شرذمة قليلة.» أثارت النبوءة تهكم الأمير، ثم انزوت في طي النسيان. بعد مرور شهرين على هذه الواقعة أطلع ناظر الجهادية نفسه الأمير على برقية قادمة من مصر العليا تفيد بأن الجيش قد ضُيق الخناق عليه بشكل كامل؛ وأن أربعة كتائب من أصل ستة قد أبيدت عن بكرة أبيها. علق الوزير: «هل تذكر سموك صديقنا العراف؟» تذكر الأمير؛ والآن وبعد أن أصبح خديوي مصر لا يزال يرى في الأمر مصادفة عجيبة.

دخل تونينو بيك علينا في هذه اللحظة ليخبر الخديوي أنه استقبل الرائد بارنج في محطة القطار ورحب به نيابة عن جلالته. دعاه الخديوي للبقاء؛ وسرد على مسامعه قصة الخاتم، لكن هذه المرة بالفرنسية؛ ومن ثم فقد سمعت القصة مرتين لم يكن بينهما ثمة تباين. قبل أن أهم بالانصراف وعد الخديوي بأن يحاول الحصول على الخاتم مرة أخرى حتى أتمكن من حضور بعض التجارب.

بعد مرور عدة أيام أبلغني جنابه أنه رأى صاحب الخاتم؛ وأنه طلب منه استعارته من جديد، لكن الفأر لعب في عب الرجل. كان أحد باشوات البلاط قد عرض عليه مائة ليرة مقابل الخاتم، أي مائة ضعف قيمته الحقيقية، لكنه رفض. أثار طلب الخديوي رؤية الخاتم مرة ثانية خوف الساحر بشكل عارم وانتابته الشكوك أنه لن يرى كنزه من جديد فأجهش بالبكاء وترجى الخديوي أن يدعه له. حينئذٍ قال جلالته: «تخطأ لو تظن أني أعتقد في قدرات الخاتم أو أي شيء من هذا القبيل. نهارك سعيد.» كان اسم الرجل هو «أحمد أغا». ذرعت القاهرة ذهابًا وجيئة ومرارًا وتكرارًا بحثًا عنه، إلا أنه اختفى كفص ملح في الماء. أغلب الظن أنه لاذ بالفرار من المدينة بسبب شعوره بالخوف. نما إلى علمي أمر عجيب يختص به. زعم البعض أنه أبرأ الكثيرين من مرضى الروماتيزم عن طريق دفع إبر في أرجلهم ورقابهم وأكتافهم؛[٣٢١] وأنهم لم يشعروا بأي ألم؛ ولم تقطر منهم نقطة دم واحدة.

أورد لين[٣٢٢] في كتابه «المصريون المحدثون»[٣٢٣] قصة غريبة عن الرجم بالغيب باستخدام الأوفاق.



Magic Diagram and Mirror of Ink.

(٣٢١) يقصد بتلر في الغالب الإبر الصينية. (المترجمان)

(٣٢٢) Edward William Lane، ١٨٠١-١٨٧٦، مستشرق ومنقب عن الآثار. (المترجمان)

(٣٢٣) ترجمه إلى العربية عدلي طاهر نور وطبعته الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٨. (المترجمان)

تبقى المعلومات الواردة على عهدة الراوي - وإذا صحت - فهو شيء مذهل. أعتقد أن لين قد تعرض للتضليل. اجتهدت في استقصاء هذا الأمر في القاهرة. بحثت عن أي ساحر يمكنه قراءة الطالع باستخدام هذه الوسيلة مقابل عطية كبيرة، وكذا لأي فرد من أهل البلد يدلني عليه، لكن دون طائل. بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام جاءت الإجابة تفيد أنه لا يعيش في القاهرة مثل هذا الشخص؛ ولم يسمع أحد بوجوده.(٣٢٤)

يصيب المتعاملون في الأعمال السحرية بالطبع شهرة لا بأس بها؛ وتتوقف سمعتهم على مدى مصداقيتهم مع المترددين عليهم. كان أحدهم كهلاً قبطيًا؛ وأحد أكثر رجالات المجتمع علمًا، لكنه غريب الأطوار. اعتاد كتابة الأحراز، آيات من الإنجيل مكتوبة باللغة القبطية القديمة، لمن هم على ملته من المسيحيين على قصاصات من الورق النفيس. حين ذاع صيته لجأ إليه الرجال والنساء من المسلمين نشدًا للعون. دأب على استهلال حديثه معهم قائلا:

«هاهو يا صديقي... خذ هذا الحجاب وضعه على قلبك خلال ساعات النهار وتحت وسادتك ليلاً.» يشعر المكروب بالراحة فيغادر والأمل يداعبه دون أن يعرف أن ترجمة النص القبطي هو «محمد في النار». في الواقع، لقد كان القبطي على درجة من الوعي والتنوير بحيث لا يؤمن هو نفسه بالتمائم، لكنه استمرأ الموضوع كنوع من المزاح والدعابة. الغريب أن أمه تؤمن بهذه التعاويذ؛ وحين مرض الرجل جلبت المسكينة أفضلها وقامت بدسها خلسة تحت وسادته في تلهف يثير الشفقة.

(٣٢٤) لم يكن بتلر موفقا في هذه المعلومة فالأوفاق موجودة منذ قديم الأزل وقد أوردها أحمد بن علي البوني المتوفى عام ٦٢٢ هجرية في كتابه عن السحر «شمس المعارف الكبرى»، على أن الأوفاق تستخدم بشكل أساسي للتحرز وفك السحر، وليس لقراءة الطالع. (المترجمان)

بالرغم من شعوري بخيبة الأمل في بحثي عن السحرة، إلا أنني عاينت آنذاك مشهدًا بغيضًا جدًا لا تعرفه أوروبا. يحتفل الفارسيون في بقاع عديدة من الشرق بذكرى مقتل الحسين، حفيد الرسول، في سهل كربلاء عن طريق الانخراط في شعائر دموية. لا يأخذ هذا الاحتفال في أي مكان منحى أكثر تعصبًا من القاهرة ففي العاشر من الشهر الأول في تقويم أتباع محمد(٣٢٥) تُقام الصلوات في المسجد الحسيني،(٣٢٦) ثم يعقبها خروج موكب من الرجال في أثوابهم البيضاء وهم يمزقون أوصالهم بالنصال والسيوف أثناء مرورهم من شارع إلى آخر وانتهاءً إلى منزل كبير طائفتهم(٣٢٧) في العاصمة حيث يُكملون مناسكهم هناك. يتابع العديد من الناس الموكب، لكن لا يُسمح للأوروبيين بدخول المنزل. تلقيت - رغم ذلك - دعوة خاصة، ربما بمحض الصدفة أو ربما بفضل الخديوي. توجهت مساء يوم الاحتفال بصحبة وصيف وأحد ضابط المراسم إلى مقر إقامة كبير طائفة الفرس.

كان المسجد الحسيني في سابق عهده – كما أوضح لين - مشهدًا لألوان وأصناف من الفعاليات. حين أعيد بناؤه على طراز معماري بائس يلصق نفسه كذبًا بالقوطية(٣٢٨) أوقِفت الاحتفالات القديمة خشية انتشار الأقذار أو الخروج على النظام. خلت الطرقات من مشاهد الإثارة أو مظاهر الدهشة العارمة. صعد طفل عتبة المركبة قائلا: «أعطني هبة السنة الجديدة... وحياة النبي.» أزعجتني أيضًا زمرة من الساقين بنفس المطلب، لكن – عدا ذلك – لم يحدث ما يستحق الذكر حتى وصولنا منزل القنصل الفارسي عقب الغروب مباشرة.

(٣٢٥) التقويم الهجري، والمقصود شهر «المحرم» ويُسمى العاشر منه «عاشوراء». (المترجمان)

(٣٢٦) تُعرف عند الشيعة بالحسينيات. (المترجمان)

(٣٢٧) المقصود كبير الشيعة. (المترجمان)

(٣٢٨) Gothic، نوع من فنون العصور الوسطى تطور في فرنسا في منتصف القرن الثاني عشر. (المترجمان)

مررنا بفناء المنزل ثم وجِهنا لصعود الدرج حيث دعانا المضيف لشرب القهوة وتدخين السجائر. استطعنا من مكاننا رؤية الفناء الذي كُسي بالجوخ الأسود وتدلت منه القناديل. بالقرب من أحد الحوائط، وقف رجل دين في زيه الأخضر الغامق وحوله العديد من الشموع المشتعلة عند موطأ قدميه، ناهيك عن شمعدانين كبيرين عاليين من الفضة. توافدت على الفناء بمعدل بطيء جدًا شخصيات فارسية؛ كما قطعته خلسة وعلى استحياء سيدات منتقبات تمامًا يرتدين عباءات حريرية؛ ثم صعدن الدرج واختفين في الحرملك. بدأت غرفتنا أيضًا في استقبال عدد متنامي من الشخصيات المبجلة.

طال مكوثنا لأربعة ساعات متصلة دون إرهاصات بوجود موكب أو عشاء. في التاسعة تمامًا، قام المضيف ليدعو الرفقة التي غلبت عليها سمات الصمت والجدية إلى العشاء. في حجرة رائعة مسقوفة بالعوارض الخشبية وحسنة الطلاء وجدنا مائدة طويلة. ائتلف الطعام من أنواع عديدة وشهية من الأرز الذي أتى في أوعية ضخمة؛ بالإضافة إلى العدس واللحم المطهي في الحساء وجيلي لم يكن مذاقه طيبًا. كان العشاء فارسيًا بامتياز، وجيد جدًا في طبيعته، وبمثابة وليمة من ناحية المذاق الذي نفتقده. خُصص لكل شخص شوكة، لكن الفرس فضلوا استخدام أصابعهم. أمتعني أحد الضيوف بشرح طريقة الأكل بهذه الكيفية: تتناول طبق الأرز ثم تسكب فوقه بعض الزيت وتقلبه؛ ثم تأخذ بيدك كمية منه حسب قدرتك على البلع؛ ثم تظل تقبضها حتى تتكور وتدفع بها في فمك... وهكذا دواليك إلى أن تصيب الشبع.

كان هناك فارسي آخر - لا يقل إمتاعًا عن سابقه - يجلس متربعًا على أريكة في مواجهتي؛ ويدخن أثناء تناولنا الطعام. لم أر من قبل وحتى اللحظة

هذه الصورة المتقنة للشرقي في رباطة جأشه. وصل رداءه إلى أخمص قدميه والتفت حول رأسه عمة كبيرة هائلة الحجم. كان يرتكز بذراعه الأيسر على مسند الأريكة ليحكم القبض على السيجارة التي راح يستنشق وينفث دخانها بهدوءٍ شديدٍ حتى أنه لم يحرك يده أو شفته. تسمرت عيناه الجميلتان على غرض ثابت أمامه، لكنهما استجابتا دومًا لأي نظرة خاطفة نحوه بتعبير باسم وحالم. لم تتبدل تعبيراته حين نهضنا من المائدة. لم يهتم أو يتابع أي شيء؛ احتفظ فقط بجلسته كعاهل لمملكة الخيالات. لم يلحق بنا ثانية. ظل على الأرجح في مكانه طيلة المساء لم يغادره؛ وربما لا يزال قابعًا هناك حتى الآن ،غير واع بشكل مريب بما يدور حوله.

جلس ثمانية من الضيوف على مائدة الطعام. عندما انتهينا من تناول العشاء، عاد الرهط إلى غرفة الاستقبال التي ترتفع عشرين قدمًا عن الفناء بينما تخلفت أنا وصديق مصري اصطحبني إلى الحوش حيث خصصوا لي مكانا في صدارة المجلس على مقربة من المنصة. جاءوا بالنرجيلة إلى الجالسين في الرواق؛ وسرعان ما رحنا ننفث دخانها بروية كما لو كنا تعارفنا من قبل. ظللنا نسبح في الهالات التي يشكلها التبغ بتؤدة دون استشراف لأي إثارة مقبلة. تناوب شيخان مصريان تلاوة سور من القرآن طيلة السهرة. جلس أرفعهما قدرًا، الشيخ علي، أمامي ولصيقًا بي حتى أن ركبتي لامست كتفيه المكتنزين باللحم. حين عاد دوره في الترتيل أخذ قدر أنملة من النشوق بين سبابته وإبهامه ثم تمايل برأسه الضخمة وزحزح نفسه ليزن جسمه الثقيل. قرأ آية بصوت خفيض؛ ثم أخذ يرفع عقيرته متشدقًا بالمزيد مما يطلق عليه العرب إنشادًا؛[٣٢٩]

(٣٢٩) استخدم بتلر لفظتي "Chant" and "Sing" للإشارة إلى قراءة القرآن الكريم؛ وكان الأفضل له أن يستخدم كلمة Recite. لم يستمتع بتلر بتلاوة القرآن بطبيعة الحال لأسباب منها: جهله بمعانيه واختلاف ثقافته؛ ناهيك عن أن هناك حاجز نفسي بينه وبين القرآن الذي هو كتاب المسلمين. يجب أن لا ننسى

ومع كل وقفة يصيح المستمعون «اللّٰه... اللّٰه!» دأب الشيخ على حك طرفي سبابته وإبهامه بما فيهما من نشوق بمقدمة منخاريه. تكرر هذا الأمر عشرين مرة حتى نفد ما بهما.

أثناء التلاوة كان الموكب يشق طريقه من المسجد إلى المكان الذي نتواجد فيه. نزلت امرأة من الحرملك منطلقة إلى الشارع؛ وعادت سريعًا برفقة رجل يحمل بين ذراعيه طفلاً ينزف ويصرخ من الألم. صعد كلاهما إلى الطابق العلوي. كان الطفل يمثل دور «الحسن»، أخو الحسين، في الموكب وأصابه والده ببعض الجروح السطحية.

سرعان ما جاء الرسل عدوًا يعلنون قدوم الموكب: وصلت إلى مسامعنا الصيحات في الخارج وزاد وقع الصوت شيئًا فشيئًا. فُتحت البوابات على وجه السرعة فاجتازته ثلاث رايات ضخمة يحيط بها حاملو المشاعل. أصبح الصوت الآن قريبًا جدًا؛ وهو عبارة عن ولولة تخرج من نهاية الحَلْقِ يُصدرها جمهرة من الرجال الغاضبين؛ وينقلب هذا العويل أحيانًا إلى صراخ هستيري مختلط بصوت صليل السيوف.(٣٣٠) دخل حصان أبيض عليه سرج يكسوه قماش أبيض ويجلس عليه صبي في ثياب بيضاء وممسكًا بنصل بينما تسيل الدماء من بعض الجروح السطحية في رأسه. صُبغت حواشي السرج أيضًا بلون أحمر

أن بتلر كان مسيحيًا متدينًا؛ والدليل على ذلك اهتمامه بتاريخ الكنائس القبطية. كان بتلر من الكياسة بحيث لا يوجه انتقادات صريحة. خلع عمله في القصر عليه بعض الدبلوماسية وقيد بوحه بمكنون رأيه فلا يجب أن ننسى أن الخديوي نفسه كان مسلمًا معتدلا. وصحيح أن بتلر قد أصدر هذا الكتاب عام ١٨٨٧، لكن الخديوي كان ما زال في سدة الحكم. على أي حال، يُصنف بتلر من المؤرخين المنصفين فالرجل لم يتطاول بشكل فج ولم يجاهر بالعداوة والبغضاء ولم يستخدم المصطلحات التنصيرية ولم يكفر الآخرين أو يعتبرهم من الزنادقة. (المترجمان)

(٣٣٠) يُسميها الشيعة «لطمية». (المترجمان)

فظ كي يشبه لون الدماء. كان الطفل يُمثل الحسين وبدا رابط الجأش وكأن جراحه لا تزعجه. حين أصبح الحصان في منتصف الحوش تم توجيه شطره نحو الشرق[٣٣١] وانبرى الناس في الهتاف.

وصلت الهوجة إلى البوابات فانتصبنا على أقدامنا في ترقبٍ شديد. تدفق عبرها بصورة غوغائية نحو خمسة وعشرين شخصًا تُنبأ هيئتهم وحركاتهم عن جموح وجنوح إلى الوحشية. راحوا يلوحون بنصالهم المقوسة وسكاكينهم الكبيرة في جنون مطبق. كانت رؤوسهم الحليقة مثخنة بالجروح وراحت الدماء تسيل على وجوههم وتتقاطر على أثوابهم الكتانية البيضاء. بدا الأمر وكأنه معركة حر بية يقودها جماعة من المتعصبين الذين لم يستنكفوا تقطيع أنفسهم أو بعضهم البعض إربًا. كنت الأوروبي الوحيد في الفناء، لكن ذلك لم يردع أو يدرأ شعوري بأن أقل باعث قد يجعل هؤلاء القوم يصبون جام غضبهم على الجمهور الوديع. أحسب أنه من الصعب تخيل ما يدور في المعارك الحقيقية، لكن الغريب أن تخيل مشاهدها لا يعدل رؤية هذا الرعب الحاصل أمامنا رأي العين. شكل الرجال، عقب اندفاعهم المتهور معًا ومناوشاتهم الغاضبة بالسيوف وسط الحوش، حلقة حول الحصان وعليه الصبي الذي لم يزل يولي شطره نحو الشرق؛ ثم نفضوا سيوفهم فوق رؤوسهم واستمروا في جرحها وهم يصرخون أو بالأحرى يولولون «يا حسين! يا حسين!»

شرعوا الآن في اللف مرتين هرولة حول هذه الحلقة وهم يلوحون بمُدْياتهم ويُدمون وجوههم. بعدها اقتيد الحصان بعيدًا واختفى عبر ممر الدرج مما جعلني أركز في مراقبة الرجال الذين اتقدت عيونهم بالإثارة. تباينت الطرق التي حلقوا

(٣٣١) المقصود إلى مكان القبلة في مكة، أي جنوب شرق، أو كربلاء، شمال شرق. (المترجمان)

بها رؤوسهم. كان أكثرها شيوعًا هو جز شيئا من الشعر يُسمى «الفَرْقُ» من الجبهة حتى هامة الرأس، أي وسطه. أزال البعض شعرهم بالكلية؛ بينما ترك آخرون غرة طويلة تتدلى في نهاية مؤخرة الرأس. تركزت جراحهم بشكل أساسي في منطقة أعلى الرأس، لكنها لم تكن خطيرة في مجملها خلا حالة واحدة أشك أن صاحبها يحتاج نقل دم؛ ناهيك عن بعض الجروح العميقة المشقوقة بطول الخد والدماء المتجمدة التي تصل كتلتها إلى شبر. دار اثنان أو ثلاثة رجال في الحلقة من الداخل ليجففوا الدماء التي تسيل من جروح المشاركين. اصطبغت الثياب البيضاء ببقع ولَّطِخُ قانية بينما بدت بعضها وكأنها منقوعة في الدماء. كان المشهد مزريًا رغم إثارته. استمر الصياح ثم سادت فترة من السكون لتعود الحلقة إلى سيرتها الأولى مع قدوم جماعة أخرى بحصانين مزركشين باللون الأبيض لا يجلس عليهما أحد بل يحملان خوذة وتُرس مصبوب.[٣٣٢] قطع الجوادان الفناء وسط الحشود المتزاحمة وانطلقا مباشرة حتى اختفيا عن الأنظار.

حاول المرافقون الآن إيقاف رقصة السيوف الوحشية. سلم البعض سيوفهم طواعية؛ لكنها سُحبت من آخرين بلي الأذرع. أمسك كل فرد بحزام من يحاذيه واندفعوا جميعا بقوة صوب الأمام وتلاشوا خلف الممر الذي قصدته الخيول آنفًا. دخل بعض الرجال وراحوا يجمعون أكوامًا من النصال المعقوفة والسكاكين العريضة ذات الحدين والخناجر وجميعها كانت تُطلق ثم تُطرح أرضًا والدماء تقطر منها ثم يمضون بعيدًا وقد امتلأت أذرعهم بها. ينتمي المبارزون الذين شوهوا أنفسهم لطائفة الدراويش. استبدلوا أثوابهم البيضاء في المنزل؛ أما الذين لم تكن جراحهم عميقة فقد عادوا واختلطوا بالجماهير. من حكمي على

(٣٣٢) يُسمى أيضا «بالمعطف المصفح»، وكان الزي الشائع للمحاربين في العصور الغابرة. (المترجمان)

المشهد، أستطيع القول أن عددهم كان ثمانية أو عشرة أفراد. تم تمييزهم خلال مراحل الاحتفال برمته عن طريق العِمَّات الملطخة بالدماء؛ ولم يُنبأ سلوكهم عن أنهم كانوا تحت تأثير الحشيش أو أي مخدر آخر.

حان وقت الفصل التالي من الدراما؛ وهو عبارة عن مرثية فارسية مهيبة مُهداة لذكرى الشهيدين. وقف شيخ على حافة درج المنصة المكتسي بالجوخ يصدح على مهل بأنشودة موسيقية. كان صوته رائقًا وجميلاً. يعقب كل بيت شعري لازمة «حسين! آه!... حسين! آه!... آه! حسين!»، أخذ يرددها جوقة المتواجدين في وسط الفناء؛ وهم الأشخاص الذين اشتركوا في الموكب بشكل حصري مع الضرب على صدورهم بشكل عنيف. كان بعضهم عاريًا حتى الخصر فأخذ يضرب الصدر برمته؛ فتح آخرون أثوابهم بحيث يضربون الشق الأيسر من الصدر براحة اليد اليمنى ثم يبعدوها لأقصى مسافة ممكنة ويُعيدون الكرة بقوة كبيرة. كانت الضربات جد موجعة؛ ويصدر عنها صوت حاد يُشبه التصفيق. في وسط الحشد كان هناك ثلاثة زنوج عراة حتى الوسط ومفتولي العضلات. يضرب هؤلاء النفر الثلاثة صدورهم أيضًا ويحافظون على التناغم مع اللازمة، لكن ما يميزهم عن الآخرين هو استخدامهم ببراعة السياط المصنوعة من السيور الجلدية وفي أطرافها حلقات من الحديد. يُمسكون بالسياط في كلتا اليدين ثم يوجهون ضرباتها للوح الكتف بالتناوب وبإيقاع سريع. كان صوت خشخشة السلاسل وقرقعة الضربات وهي تنزل على صدورهم العارية وكأنها تسحق عظامهم أمرًا وحشيًا ومزريًا. وبالرغم من ذلك فلا يعدل شيئا في السوء آثار الكدمات والرضوض الزرقاء تحت بشرتهم الداكنة نتيجة لاحتباس الدماء بها.

شارك جميع الفرس المتواجدين في اللطمية بدرجات متفاوتة من الحماس. كان جلتهم يضرب الشق الأيسر من الصدر في إيقاع منتظم دون كشف الأثواب. بدا على الجميع مظاهر الخشوع. لم يلق أحدهم ولو نظرة واحدة تجاه الحريم طيلة المساء بالرغم من أن وجوه بعض النساء المليحة كانت سافرة بوضوح من وراء المشربيات؛ ورحن يختلسن النظرات إلى الأسفل حيث يجري الاحتفال. بعد انتهاء المرثية انبرى حاملو السياط وآخرون شبه عراة في جلد أنفسهم بشكل هستيري أكثر من ذي قبل؛ واستمروا في ذلك حتى أُرغموا على التوقف بالقوة ودخول المنزل لتغيير ملابسهم!

أعقب ذلك سرد نثري باللغة الفارسية لقصة مقتل الحسين. اعتلى شيخ سلالم المنصة ثم جلس على آخرها بين الرايات ثم بدأ في نسج خيوط الحكاية بصوت جميل ورنان يأخذ بالألباب. جلس المستمعون على الأرض أو على الدِكَاكُ وقد ثبتوا أعينهم باهتمام شديد على الراوي. رأيتهم يجهشون بالبكاء كالأطفال ويضربون جباههم تعبيرًا عن الفاجعة المريرة في المواضع الشجية. لم يبد عليهم المراءاة أو التكلف. دفن الكبار والشباب والصغار وجوههم في مناديلهم وراحوا ينشجون كالرضع؛ كما ارتعدت أجسامهم من الحسرة والكمد. من العجب العجاب أن تعاين هذا الكرب يقطع أنياط القلوب ويثير انفعالات أشخاص تعرفهم آنفًا من تجار سجاد أو أنتيكات أو منخرطين في سلك الجندية وكلهم وادعون ومهذبون ومتحفظون. تراهم الآن متأثرين وهم يتابعون قصة الصبي الذي ذُبح في المعركة منذ اثني عشر قرنًا خلت. تكشفت هذه الواقعة النقاب على نحو لا يرقى إليه شك عن طبيعة الشرقيين وسرعة تأثرهم وتجعلنا نفكر على التوازي في ديننا وأساطيرنا.

عندما انتهت القصة الفارسية، استبدل رجل آخر الراوي ليعيد القصة باللغة العربية. ومرة أخرى اتقد التعاطف وتجدد النحيب الذي لا يُرجى من ورائه طائل.

بصفة عامة كانت النسخة العربية بطيئة ومؤثرة، لكن إيقاعها تسارع هنا وهناك في الفقرات الإنشادية التي تخللت السرد النثري. في النهاية طلب القاص من المتجمعين الدعاء فجلسوا مادين أذرعهم ورافعين عيونهم للأعلى وهم يرددون «يا الله! يا الله!». نهضوا بعد ذلك وولوا وجوههم شطر الشرق وتمتموا بدعاء مقتضب. أعقب ذلك نزول الشيخ من المنصة؛ وهكذا أُختتم الاحتفال بليلة عاشوراء.(٣٣٣)

يستدعي المشهد حين تتأمل فيه لاحقًا أفكاراً تقليدية عديدة في ثوب جديد وبأسلوب هين. يستطيع المرء الآن رؤية معاني متجددة في عبارات بالية مثل «وبيدي أستبسل في ضرب صدري...» (٣٣٤) وكذلك «أخذ يتأوه رافعًا كفيه نحو النجوم.» (٣٣٥) يودع المرء الضحك وهو يستدعي الأبطال وهم ينتحبون ويصبح مؤهلاً أكثر لفهم عقيدة الأسى والمرارة بنبرتها وسمتها الجنائزي السرمدي تمامًا كما في أغنية «لانوس» أو «آليموس» (٣٣٦) وحزن وموت «أدونيس»(٣٣٧) أو «هيبوليتس»(٣٣٨) أو «نارسيسيوس».(٣٣٩)

(٣٣٣) العاشر من محرم. (المترجمان)

(٣٣٤) Plangere nuda meis condbar pectora palmis، العبارة للشاعر الروماني «أوفيد» Ovid (٤٠ ق.م – ١٧ م)، بالإنجليزية Then with my hands my breasts I strove to beat. (المترجمان)

(٣٣٥) duplices tendens ad sidera palmas، العبارة للشاعر الروماني «فيرجيل» Virgil(٧٠ ق.م – ١٩ ق.م)، بالإنجليزية He groans and holding both palms towards the stars. (المترجمان)

(٣٣٦) Linus, Ialemus ، ابن «أبولو» في الأساطير اليونانية. (المترجمان)

(٣٣٧) Adonis، إله الرغبة والجمال عند اليونانيين. (المترجمان)

(٣٣٨) Hippolytus، بطل مأساة كتبها «يوربيديس» Euripides في عام ٤٢٨ قبل الميلاد. (المترجمان)

(٣٣٩) Narcissus، شاب مختال بنفسه في الأساطير اليونانية؛ وإليه تُنسب كلمة «نرجسي». (المترجمان)

تتجاوز الإسقاطات التي يتضمنها المشهد، بالرغم من ذلك، ما هو أبعد من الإيحاءات الكلاسيكية. لقد تم تصوير الجلد بالسياط وتشويه النفس في عبادة الشمس بفارس القديمة. هذه الطقوس ما هي إلا انعكاسات للمعتقدات القديمة التي تقضي بأنه لكي تسترضي أشباح الموتى فعليك بالتضحية البشرية. استمرت فكرة تقديم القرابين البشرية تلك في المكسيك لحين الغزو الأسباني؛ أما في الغرب وفي مرحلة مبكرة تصل إلى هومر نجد نفس الفكرة في «هايدس»[٣٤٠] وهو يولم ويستمتع بالحيوانات المذبوحة. ومن ثم ليس من الصعب الربط بين الحداد وإراقة الدماء. لا يحتاج الأمر خيالاً جامحًا لاقتفاء نفس التقليد عند الرهبان في العصور الوسطى الذين دأبوا على جلد الذات وإنكارها أو مقاتلي «الهون»[٣٤١] وهم يجرحون أنفسهم حول نعش «أتيلا»[٣٤٢] أو قادة «بعل»[٣٤٣] الملهمين وهم يقطعون أوصالهم بالقرب من مذبح جبل الكرمل.[٣٤٤]

دفعني الفضول في صباح اليوم التالي للذهاب لرؤية «حبيب»، وهو فارسي يعمل في المشغولات النحاسية بمنطقة البازارات. أخبرني أن الرجال الذين شوهوا أنفسهم اغتسلوا هذا الصباح ولم يصبهم أذى. أراني الجروح التي في رأس ابنه، لكنها لم تكن خطيرة. الرجال - وليس الصبية - هم من يجتهدون في جرح أنفسهم. عقب حبيب في التو كاشفًا عن قناعاته بأنه لا يترك الموكب أحد أو يُغمى عليه في الطرقات؛ وأنه لولا وجود هذا الوازع والحماسة الدينية

(٣٤٠) Hades إله العالم السفلي عند اليونانيين القدامى. (المترجمان)

(٣٤١) Huns، رعاة رحل ظهروا فيما وراء نهر الفولجا ونزحوا إلى أوروبا في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي. (المترجمان)

(٣٤٢) راجع كتاب هودجين Hodgkin "إيطاليا وغزاتها" Italy and her Invaders، ج. ٢، ص. ١٩٢. (المؤلف) Attila، ٣٩٥-٤٥٣ م، آخر ملوك الهون، هدد بغزو الرومان في عقر دارهم. (المترجمان)

(٣٤٣) Baal، إله الشمس لدى الفينيقيين والإله المحارب لدى الكنعانيين. (المترجمان)

(٣٤٤)جبل في فلسطين، لليهود والمسيحيين اعتقاد فيه. (المترجمان)

لكانت هذه الجروح التي يتكبدها الناس بدم بارد قاتلة. بدا لي أنه يعتقد - شأنه في ذلك شأن دراويش الدوسة - في وجود معجزة ماثلة في هذا الأمر.(٣٤٥)

في قصر الإسماعيلية ذاك المساء حضر شيخ الصائغين إلى غرفة الاستقبال ومعه بعض الأحجار الكريمة وقطع الألماس الرائعة. أثار حجر «أوبال» عجب مصطفى بشكل كبير. صاح الرجل متعجبًا: «يا حفيظ! توجد نيران بداخله!» عقب علي: «فعلاً تشبه النار.» عاد الأول يخبر: «إنها نيران بحق الخالق. لا ينكر ذلك إلا أحمق.»

عندما استدعيت للدخول على الخديوي بصحبة تورابي أسهبت في إخبار جنابه عن الاحتفال الفارسي. حاول تورابي تخفيف حدة الأمر قائلاً: «هذا أمر عبثي لا يستحق المشاهدة.» وبالرغم من ذلك أقر الخديوي بفظاعة وبربرية هذا الشيء نافيًا عنه التفاهة. تمنى جلالته لو كان حاضرًا. في هذه اللحظة أدرت دفة الحديث إلى الدوسة مستفسرًا عن أي آمال معقودة على إلغائها هذا العام. رد الخديوي أن الأمل يراوده بشدة؛ وأنه وصلته تأكيدات عديدة بأن إلغائها من شأنه أن يولد شعور بالراحة لدى الكثيرين. عقدت مقارنة بين عاشوراء والدوسة مفندًا أسباب اعتقادي أن الأخيرة أشد سوءًا. بينما كنت استحضر الأهوال التي عاينتها في الدوسة مال الخديوي في مقعده للأمام وهو يصغي إليّ جيدًا. وجد الخديوي صعوبة في تصديق شهادتي عليها. قال إنه كلف أربعة عشر مخبرًا سريًا ليتحروا عن المصابين. لا يعرف الأطباء سواء كانوا من المصريين أو الأجانب شيئًا عنهم. لقد قام الدراويش بتهريبهم. بدا جليًا أن

---

(٣٤٥) لا عجب إذن من وجود التقارب المعروف بين الشيعة والصوفيين. يُطلق على الصوفية في مصر، التي هي سنة المذهب شيعية الهوى، الوجه الآخر للتشيع. (المترجمان)

الخديوي قد أصبح مهتمًا بهذا الأمر؛ ومن ثم فإن آمالي في إلغاء الدوسة قد تعاظمت.

عرج حديثنا على موضوع آخر من مواضيع الساعة، ألا وهو الحالة المزرية للآثار الإسلامية التي تنتمي للقرون الوسطى. أقر الخديوي أن التدهور والتخريب المتعمد قد حول العديد منها إلى خرائب، لكنه يأمل أن تقوم نظارة الأشغال - حالما تنتهي من ضغوط العمل لديها - باتخاذ تدابير من شأنها الحفاظ على هذه الآثار.(٣٤٦) حين تطرق حديثنا إلى مساجد القاهرة التي لا يُحصى عددها كشف الخديوي عن امتلاكه معلومات مذهلة عن أوضاعها وأهم ما يميزها. أخبرني أيضًا جلالته عن بعض الأساطير التي يؤمن بها المصريون والتي أسردها فيما يلي.

في الجامع الكبير المعروف بالأزهر، وهو الجامعة والمركز الذي يتلقى فيه العرب علومهم، يظهر ليلاً عمود من النور يمتد من الأرض للسماء؛ كما تحوم حول نافورة الرواق أشباح الرجال الصالحين الذين يأتون للوضوء. في مكان آخر من المسجد الذي يعج بالأساطين يوجد رجل نقي القلب يظهر للأطفال في شكل أقزام أو جن صغير تشرع في اللعب معهم في الظلام فيضحكون ويجرون ويأتون بكل ما هو غريب. يُقال أن هذه الأشباح تسكن الصناديق الكبيرة التي تحتل أسفل حوائط المسجد والتي يحتفظ فيها الطلاب بأغراضهم.

تقول قصة أخرى أنه يأتي كل ليلة بالقرب من باب طولون(٣٤٧) طائفة من أرْوَاحُ أهل البيت لحضور اجتماع مهيب تترأسه سيدة كبيرة؛ كما تتولى التحكيم

(٣٤٦) تم تشكيل لجنة في هذا الخصوص خرجت بنتائج عظيمة. (المؤلف)

(٣٤٧) ربما قصد بتلر باب مسجد ابن طولون. (المترجمان)

بين الشيوخ الجادين الوقورين. تبدأ بالسؤال عن أخبارهم وتتلقى تقاريرهم وتستفسر عن آرائهم. يبلغون مثلا أن المدير الفلاني شخص سيء وأن الحاكم شرير يأخذ المال بسيف الحياء ويتعنت مع الرعية. تُقدم البراهين والحجج على سوء أفعاله ثم يؤخذ رأي المجلس ويحرر فرمان تقوم السيدة بإعلانه. بعد عدة أيام يصل الفرمان إلى الحاكم الفعلي لمصر عن طريق الإيحاء ويُوجه إلى تنفيذه. ضحك أفندينا من صميم قلبه وهو يحكي لي هذه القصة مستخدمًا المؤثرات والإيماءات المعهودة لديه.

اعتقد المسلمون في هذا الوقت أن شيخ المسجد الصغير الذي كان يقع شمال قصر عابدين يظهر كل ليلة جالسًا على قبره اعتراضًا على نقل مرقده.(٣٤٨) يعتقدون أيضًا في كرامات رجل يُدعى البدوي(٣٤٩) الذي يُشاهد في أجزاء متفرقة من العالم لما لديه من القدرة على الطيران. يظهر الشيخ عامة في زمن الحروب حين يحمى وطيسها وهو على حصانه البديع يحارب في صف المخلصين. لقد روى العديد من الجنود الذين شاركوا في الحرب التركية- الروسية أنهم شاهدوا البدوي يجتث شأفة الكفار. من الجلي أن البدوي يضطلع بنفس الدور من الموروثات الذي يلعبه مارجرجس لدى الأقباط.

---

(٣٤٨) كان يجاور قصر عابدين بك مسجد صغير يعرف باسم مسجد الفتح، قام الخديوي إسماعيل بضمه إلى القصر وجدده، وجعل له مدخلاً من حديقة القصر. (المترجمان)

(٣٤٩) السيد أحمد البدوي، ١١٩٩- ١٢٧٦، ومرقده في طنطا. (المترجمان)

الفصل العاشر

الزهور البرية في حي الرمل- الإزماع على إلغاء الدوسة- نوايا الخديوي فيما يتعلق بتجارة الرقيق- المصاعب والاعتراضات- داوود باشا وقطاع الطرق- الكنوز المخبأة- الأسود الذهبية- كوميديا تركية- زفاف أميرة

منحتني زيارة قصيرة لرمل الإسكندرية بغرض قضاء عطلة عيد الميلاد فرصة لمعاينة التغيير الذي طرأ على هذه المنطقة. في الصيف لم يكن هناك سوى الرمال الجدباء التي تنمو النباتات البرية في كنفها على استحياء. أما الآن فقد حرث البدو الأرض وزرعوا الذرة بالرغم من أنها تؤتي محصولاً ضعيفًا. غيرت الزهور البرية وجه الأديم على نحو ملفت، تلك الزهور التي يقتلها الصيف بقسوته ويعطيها الشتاء بلمساته الحانية قُبلة الحياة. كان من بينها الزعفران ببراعمه البيضاء والبنفسجية التي تمسكت بالأمل في تربة قاحلة وعرة. كان هناك أيضًا نبتة جميلة تُشبه «الخلنج»، أما زهرتها الطويلة فتأخذ لون الياقوت وشكل الجرس؛ زد على ذلك أصناف أخرى غير معروفة لنا في إنجلترا.[٣٥٠] بدت الرمال- بفضل هذه الألوان المشرقة والمتباينة للبراعم والزهور- كالذهب المصقول.

(٣٥٠)تنتمي أغلب هذه النباتات التي تنمو في الصحراء بالقرب من ساحل البحر إلى العائلة الغاسولية. (المترجمان)

طاب لي أن أسمع من جناب الخديوي قبل رحيلي أن الدوسة قد ألغيت من الآن فصاعدًا. نزل الخبر على قلبي بردًا وسلامًا وأنا أؤكد لجلالته أنه سينال من الإطراء والتبجيل جراء هذا الصنيع ما يستحقه خاصة في إنجلترا. ألمحت إلى مقالة طالعتها في التايمز الربيع الفائت علقت على وجود حاكم البلاد في هذا الاحتفال.

عقب أفندينا قائلاً: «حسن... سأخبرك بصراحة. لم أتمكن من فعل شيء الربيع الفائت لسببين: كان كبير الدراويش، الشيخ البكري، الطاعن في السن والمعروف بالتحجر والتعصب على قيد الحياة، كما حل موعد الاحتفال عقب جلوسي على العرش بوقتٍ قصير. لذا لم أشأ أن أتخذ إجراءً عنيفًا. لم يكن الناس قد عرفوني على نحوٍ كاف. ليس من حسن السياسة أن تستهل الحكم بقرار عاصف يصيب الرعية بالدهشة ويبث في قلوبهم الريبة. تذّكر أني لم أكمل العامين في سدة الحكم؛ وأحسب أني أبليت بلاءً حسنًا حتى الآن.»

بعد انقضاء أسبوعين وأثناء حديث مقتضب انطلق الخديوي متعجبًا: «بالمناسبة وقعت مصادفة غريبة. تعرف أني عقدت النية على إلغاء الدوسة هذا العام؛ وتعرف أن الشيخ البكري قد لفه الردى منذ فترة وجيزة. لقد لفظ أيضًا الشيخ الذي طالما وطأ بحصانه الأجسام لسنوات عديدة أنفاسه الأخيرة. إن الخلاص من هذه العقبة الكئود أمر جد رائع. ثم ما لبث أن سقط الحصان المستخدم في الدوسة مريضا فشرع الناس يتساءلون: ما هذا الذي يحدث بعد إعراب أفندينا عن رغبته في إبطال الدوسة؟ لماذا يموت الشيخ البكري أولاً ثم يتبعه الشيخ الذي يعتلي الحصان، ثم يخر الحصان مريضًا؟ ولا نعرف من سيلقى حتفه باكرًا! ما معنى ذلك؟ من المؤكد أن الله يقف مع الخديوي ويؤيده.»

علقت قائلاً: «إنهم يقولون الصدق.» واصل الخديوي: «حسن... عندما اختمرت الفكرة في رأسي شاورت علماء الدين فلمست فيهم تحفظًا وإجفالاً. أقروا بأن الدوسة ليست من صحيح الدين، لكنهم أوجسوا خيفة من العامة. أرسلت في طلب شيخ الإسلام،[٣٥١] وأطلعته عما يدور في عقلي طالبا منه أن يُدلي بدلوه في الأمر. لم تفارق الرجل رزانته ولا رصانته، لكن الصمت أطبق عليه. جادلته لقرابة الساعتين مؤكدًا على صحة هذا الإجراء وأن له مناصريه في الشارع، لكن الرجل أبى أن يتكلم بصراحة. قلت له في نهاية المطاف: أتفهم طبيعة المشكلة. إنك تخشى الناس، لكني لا أخشاهم؛ وتشعر أنك لا تستطيع أن تقوم بذلك، لكني سأفعلها. سأضطلع بهذا الأمر؛ وستُلغى الدوسة بأمر الخديوي. عندما سمع شيخ الإسلام هذا الكلام تهللت أساريره وتبدل سلوكه وانبرى قائلاً: آه... إذا أمرت جنابك بذلك فهذا أمر مختلف. سيمتثل الناس حبًا وكرامة عندما يعلمون بالفرمان الخديوي.»

«أنا الشخص الوحيد في بر المحروسة الذي يمكنه فعل، لا الشيوخ قاطبة ولا الناس مجتمعين ولا كافة قناصل الدول الأوروبية. سأنجح لأن الناس تعلم أني مسلم صالح، وأن قلبي عامر بالتقوى. سيصدقني الناس حين أقول لهم أن الدوسة ضد الدين، وأن هذا الاحتفال قائم على أساس فاسد، وأن محمدًا لم يأمر به. لقد سما القرآن في الواقع بالإنسان وكرمه أعظم تكريم؛ فكيف نصبر على هذا الاحتفال الذي يضرب الإنسانية في مقتل؟ لقد أمرت أيضًا بإبطال عادات أكل الزجاج والثعابين وتقطيع الأوصال بالسكاكين وأي ممارسات بربرية أخرى. أما فيما يتعلق برقص الدراويش وصياحهم فلا أرى فيه أذى.[٣٥٢] صحيح

(٣٥١) شيخ الأزهر الآن. (المترجمان)

(٣٥٢) يُسمى بالمولوية. (المترجمان)

أنه سخيف، لكنه بريء؛ والزمن كفيل بأن يقضي عليه بشكل طبيعي مع تقدم التعليم. ومع هذا التغيير الذي طرأ على الدوسة وجدت أيضًا من الأفضل أن أغير موقع الاحتفال بيوم المولد النبوي من بولاق إلى العباسية. أعرب رياض باشا عن تخوفه من هذا التغيير الجذري، لكني مصمم على إجرائه لما فيه من منافع للصحة العامة ولسكان بولاق. ستعمل هذه النقلة على فك الارتباط المتأصل بين الموقع والاحتفال. ومن ناحية أخرى، يمكننا في العباسية إمتاع الناس بشكل غير محدود من الألعاب النارية وكذا تحية المدافع الرابضة فوق قلعة الجبل.»

أدخلت هذه التوضيحات على قلبي إحساسا بالامتنان وشعورًا مماثلاً بالإعجاب من جسارة الخديوي الفذة. أعربت لجلالته عن هذه المشاعر بكلمات لا حاجة لسردها في هذا المقام. بعدها غير عظمته الموضوع قائلاً:

«أنا الآن في خضم أمر جلل. أتمنى أن أصدر فرمانًا يلغي العبودية تماما في كافة المناطق. حسب الاتفاق مع الحكومة البريطانية، يُسمح فقط ببيع العبيد من بيت لآخر حتى ١٨٨٤؛ بالرغم من ذلك أرغب في إصدار فرمان فوري يعلن أن كل العبيد أحرار. أواجه معارضة شديدة من وزرائي: رياض باشا وآخرين. يقولون: «هذا أمر مستحيل؛ سنواجه صعوبات لا نهاية لها فيما يتعلق بالوصايا والمتروكات. قد يتجه المُطلق سراحه بموجب الفرمان الخديوي إلى القنصل البريطاني مطالبًا بنصيب في الميراث الذي تركه سيده لعبيده[٣٥٣] ذلك لأنه قد حُرر طواعية، لكني قلت لرياض: لا أفهمك. إذا طالب عبد بمنقولات

(٣٥٣) يوجد رأي في الشريعة الإسلامية أن أسباب الميراث ثلاث: نكاح (زوجة- أولاد...) وحواشي (أقارب من أخ وأخت...) وولاء (عتق)؛ فلو كان للإنسان عبدًا ثم أعتق فإن الذي أعتقه يكون بينه وبين المُعتق صلة تُشبه القرابة فإذا لم يكن له ورثة يرثونه من نسله وأقاربه ينتقل المال لمن أعتقه. (المترجمان)

على هذا النحو فعلينا فقط أن نخرج الوصية ونبحث عن العبارة التي تقول: أهب عبدي المُعتق كذا وكذا. اسأل المُدعي كيف نال حريته، فإذا أجاب بالفرمان فواجهه بالوصية واصرفه لحال سبيله. أما إذا قال إنه نال حريته بصك عتق من سيده فاطلب منه أن يبرزه. ما قولك في هذا يا رياض؟ حار رئيس مجلس النظار في الرد. ظل لفترة لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة قبل أن يعود إلى اعتراضاته الواهية بأن القنصل البريطاني سيثير المصاعب دومًا.»

قلت: «هذا حمق بَيّنَ. تدرك جلالتك يقينا أن هذا الفرمان من شأنه أن ينال استحسان ليس فقط القنصل البريطاني، بل أوروبا بأسرها. لا يمكن لعمل آخر أن يُكسب جلالتك التعاطف والثقة في إنجلترا من هذا الفرمان؛ إذ أنه دليل دامغ على رغبتك في نقل مصر للمدنية الحديثة. ستظهر دون ريب بعض المصاعب في البداية تعزو إلى التفاصيل. لا تتم الإصلاحات العظيمة بدون الاصطدام مع المغالين لأنها تتعارض مع أصحاب المصالح، لكن سرعان ما يحالف الفرمان النجاح فيُصوب مسار الشاردين. ما أخشاه هو أن النظار والنبلاء ليسوا على نفس القدر من التنوير فيما يتعلق بهذه الأمور كجلالتك. إنهم يختلقون المصاعب عمدًا لأنهم في قرارة أنفسهم يحبون العبودية وسيشعرون ببالغ الأسى إذا قُدر لها الإلغاء. أنا مقتنع تمامًا أنها مسألة شجاعة فقط. حين نُوقش موضوع إلغاء الدوسة قَطب هؤلاء الناس جبينهم وتنبئوا بشرور محدقة. والآن بالنسبة للرق لديهم مصالح، لكن الأهم هو تبنيهم فكرة التنصل من المسئولية، وهي جزء من الشخصية المصرية. لا ينبغي أن ينتاب جنابك هذا الشعور بالخوف؛ إذا تصرفت بشجاعة فسوف تنجح في قضية الرق كما نجحت في الدوسة.»

أجاب الخديوي: «آمل ذلك؛ وأعتقد أنك مصيب فيما ذهبت إليه. أخبرني رياض أيضًا أن ديننا وقرآننا قد أجازا الرق. أشعلت هذه الكلمات غضبي فرددت عليه قائلاً: « أعرف ديني أكثر منك وربما أكثر من أي شخص آخر في أرض الكنانة. أباح القرآن فقط الاحتفاظ بالعبيد من أسرى الحروب، لكنه لم يرخص المتاجرة فيهم.»

عقبت قائلاً: «أجل... وأعتقد أيضًا أنه قضى بأنه لو أتقن العبد عمله ثم رغب في الحرية فعلى سيده أنه يهبه إياها وأن يعطيه مالاً أيضًا. وأزيد من الشعر بيت، لقد نص القرآن كما تفضلت جلالتك بأجل التكريم لبني آدم والبشرية، هذا التكريم الذي تضربه في مقتل ممارسات بيع الإنسان وشرائه كما لو كان بعيرًا أو ثورًا. كيف يتأتى ذلك؟ لا جدال أن العبودية تتنافي مع دين أتباع محمد.»

رد الخديوي: «هذه هذه الحقيقة. حسن... هذا الموضوع يأخذ جل تفكيري. أقلبه في عقلي وأتشاور فيه مع الآخرين كل يوم لمدة ساعتين أو ثلاثة. أعربت لرياض باشا عن استعدادي للإرسال في طلب مجلس العلماء واستشارتهم. سيناوءون التغيير عن بكرة أبيهم، لكن حين يتفهمون أني ماض فيما عزمت عليه فلن يقفوا في طريقي، بل وربما آزروني بنفوس مخلصة لأنهم يدركون في دواخلهم أنني لا أستطيع أن أمس ثوابت الدين. أسر لي الكونت صالا بوجود حالات لشراء العبيد حتى الآن في القاهرة يقوم بها بعض البَاشَوات. أخبرته بضرورة أن يتحرى عنهم ويُبلغ بأسمائهم حتى يمكنني أن أنزل بهم العقاب. آمل في غضون شهور قليلة أن أصدر الفرمان الذي يُنهي العبودية.»

في هذه اللحظة علق تورابي بيك الذي كان حاضرًا طيلة الحوار والذي منعه ضعف سمعه من متابعة الحديث قائلاً: «نعم... نعم... سوف تنتهي العبودية يومًا ما، لكن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً، ربما سنوات أو قل قرون. لا يمكن أن تُلغى الآن... مستحيل.»

التفت إليه قائلاً: «لماذا تقول ذلك يا تورابي بيك؟ هذا ليس صحيح. إذا عمل أفندينا تبعًا لإرادته ووفقًا لصلاحياته فيمكن إبطال الرق، بل سوف يُبطل فعلاً في الحال. إذا تُرك الأمر دون تدخل فقد يستغرق قرونًا، لكن بمقدور جناب الخديوي إنهاء الأمر الآن.» أردفت مخاطبًا الخديوي: «آمل يا مولاي أن يُعزى الفضل لأهله وأن لا تُبخس ما تستحقه. أنا على يقين من أن رياض باشا لا يرغب في إلغاء الرق، لكن الناس في إنجلترا يثقون به، ومن ثم فهم على استعداد لأن يتوهموا أنه صاحب المبادرة التي أتت بكل هذه النتائج الطيبة. ما من شك أنه لو توقف الرق فسوف يبحث رياض باشا عن الثناء.»

عندها نطق تورابي بالحق قائلاً: «هذه هي سياسة رياض. يسعى للاحتفاظ بمقاليد السلطة في يده، ويروق له أن يُصور كبطل الإصلاح في مصر.»

«أجل»، قالها الخديوي مردفًا: «وجدت من اللازم أن أخبره في يوم من الأيام حين ناقشني في نيشان منحته أنه ليس من شأنه؛ وأنني حاكم مصر؛ وأنه بإمكاني أن أقيل حكومته؛[٣٥٤] وأن عليه ألا ينسى هذه الحقائق.»

تلقفت خيط الحديث قائلاً: «مهما يكن الأمر جلالتك فالمصريون – على حد ظني- تتطلع عيونهم نحوك وتهفو قلوبهم إليك، لا إلى رياض.»

(٣٥٤) أقال الخديوي توفيق وزارة رياض باشا في النصف الأول من شهر سبتمبر ١٨٨١ استجابة لمطالب الثورة العرابية. (المترجمان)

«هذا صحيح تمامًا. غايتي ومرادي هو كسب قلوب الناس وحبهم. اجتهدت دومًا لنيل رضا من في دائرة حياتي الخاصة. لست مغرورًا؛ ولا شيء يسعدني أكثر من إدخال السرور والحبور على قلوب الآخرين. وعلى هذا النهج والمنوال سرت قبل جلوسي على العرش. كنت أراعي في تلك الأيام حسن معاملة كل من هم في معيتي وبيتي؛ فإذا مرض أحدهم أعوده في غرفته؛ وإذا نزلت به نازلة أبدي تعاطفي معه. كنت حريصًا على تَسلمهم رواتبهم كل شهر حتى في الأوقات التي تأخرت فيها كافة الرواتب الحكومية. مرة واحدة فقط واجهت فيها بعض المصاعب في دفع الرواتب، لكني أرسلت في طلب تاجر فرنسي وبعته جميع طيور النعام التي في حوزتي.»

تحدثنا في أمور سياسية أخرى، لكن ما سردته هنا يُظهر كيف كانت أفكار الخديوي مُبشرة ومُتنورة. علمت بعد ذلك أن أخطر القيود التي عرقلت سعي الخديوي لإلغاء الرق هو ما نصت عليه الشريعة من أن العبد لا يُوصي، ويرثه سيده حال موته. من الجلي أن هذا التشريع يصب في مصلحة الطبقات الحاكمة، وأنها تريد إبقاء الوضع كما هو عليه وعدم المساس بمتلازمة الدين والشريعة. سيقول الناس أن الفرمان يقوض العقيدة ولا يراعي منزلتها. من أجل ذلك سعى الخديوي جاهدًا لشيخ الإسلام كي يصدر فتوى رسمية تفسر الغموض المتعلق بالنص، بيد أن الشيخ ركب رأسه وأصر على الرفض الشديد.

في مساء اليوم التالي أخذ الحوار منحنى آخر، ألا وهو حالة الأمن في مصر على الأرواح والممتلكات في الوقت القائم مقارنة بنصف قرن ولى. سرد الخديوي قصة رجل من البكوات يُدعى «لطيف». سافر لطيف إلى إستانبول في عهد محمد علي فحصل هناك - عن طريق المكائد والتحايل -

على فرمان بتعيينه حاكمًا عامًا على عموم المحروسة.[٣٥٥] عاد الرجل إلى الديار المصرية محميًا بهذا الفرمان. كان محمد علي خارج القاهرة، ومن ثم توجه لطيف إلى الوزير الذي رحب به بالتهاني والابتسامات. أخبره الباشا أنه سيقوم بعمل كل الترتيبات اللازمة بالإشهار والموكب في الصباح. في اليوم التالي ظهر لطيف في الوقت المحدد واستُقبل أحسن استقبال. حين هم بالمغادرة ووضع قدمه على ركيزة امتطاء الحصان صاح الوزير على حين غرة:



«لقد أقسمت لصديقي وعاهلي محمد علي ألا أخونه مطلقًا وأن أخدمه بروحي حتى الموت. والآن هل تظن أني سأنفض يدي من بيعته من أجل كلب مثلك؟» قبل أن يتغلب لطيف بيك على الصدمة، كان السياف قد أطاح - بضربة واحدة - رأس المغتصب التي أرسلها الوزير في سلة بالبعير إلى محمد علي في الصعيد.

أقر الخديوي أيضًا بصحة ما تردد تمامًا عن تفيدة هانم ابنة محمد علي التي دأبت على الإيقاع بالرجال الوسماء في شراك قصرها حيث يهاجمهم طواشيها بوحشية حتى يُسلموا الروح. حدث ذات مرة أن وقع في شباكها رجل فرنسي. قبل أن يشرع الطواشية في الفتك به أخرج الرجل طبنجته وبدا بالإطلاق.

(٣٥٥) تُعرف بمؤامرة لطيف بيك؛ وذكرها الجبرتي في تاريخه. (المترجمان)

تقهقر المهاجمون ولاذ الرجل بالفرار متسلقا شجرة ومنها إلى خارج السور.

بالرغم من أن الحياة في الوقت الراهن آمنة بشكل مقبول، إلا أن آفة قطع الطرق ما تزال موجودة بين الفنية والأخرى في المناطق النائية. قبل عشر سنوات من تولي داوود باشا منصب مدير قنا في صعيد مصر، لم يجرؤ أحد على السير بمفرده في الحقول نهارًا أو في الطرقات ليلاً. نجح داوود في دفع هذا الوباء. أُلقي جميع المتهمون بارتكاب جرائم عنف في سجن به قبو سحيق يتخذه ثعبان هائل وفتاك وكرًا له. سرعان ما قتل الحنش المجرمين الواحد تلو الآخر كما أشارت التقارير. في كل مرة كان داوود باشا يفغر فاه مصطنعًا الدهشة. كان الرجل متيمًا بالمفاجآت؛ وكان الثعبان حلاً مناسبًا أراحه من متاعب المحاكات وإثبات الأدلة والحبس والإعدام. صحيح أنها وسيلة قاسية؛ ولا شك أن أناسًا أبرياء ذاقوا الأمرين، لكن قنا أصبحت آمنة مثل القاهرة.

كان لدى حكام الأقاليم سلطات هائلة. لقد صُعقت حين سمعت أن أمين بيك الشمسي الذي أمتعنا في الزقازيق بشكل لافت قد زُج به في السجن لمدة خمسة عشر عامًا بتهمة التآمر؛ أما الحقيقة فهي أنه تشاجر حول قطعة أرض مع المدير وهو ابن عم رياض باشا. كان نفس المدير قد أدين سابقًا في عمل وحشي تمثل في استخدام الكرباج[٣٥٦] في جلد أقدام أولئك الذني لا يستطيعون أو يمتنعون عن دفع الضرائب. كان رياض قد ألغى الكرباج بصفة صورية، ونال الاستحقاق عن هذا العمل في برقية أرسلها السيد ماليت إلى الحكومة البريطانية، لكن الواقع يقول أن هذه الممارسات استمرت. عودة إلى القضية فقد تم التعتيم والمدارة عليها حتى تبقى الأمور هادئة. حين تم الإبلاغ

(٣٥٦) سيور من جلد الحيوانات. (المؤلف)

عن هذه الحالة أرسلت الدوائر الدبلوماسية إلى رياض باشا استفسارًا عن صحة الواقعة. بعث الأخير في التو ببرقية إلى مدير الزقازيق الذي اتخذ بدوره التدابير اللازمة لإخفاء معالم الجريمة. وصل المحقق بعد أربعة أيام فوجد المصريين الذين تعرضوا للضرب على استعداد للقسم بأن المدير هو أكثر الناس حنانًا وعطفًا على وجه البسيطة! بذل المحقق جهدًا في التحري والتثبت من أناس آخرين فبرهن على أن خمسة أو ستة مساكين تعرضوا للضرب بشكل وحشي؛ وأن أحدهم كاد يُفضي إلى الموت بسبب إصاباته. اكتشف أيضًا المكان الذي خُبأت فيه الكرابيج. عاد الرجل بهذه الحقائق، ليصطدم بهذه الكلمات، «لا يمكن أن نأخذ بشهادة المصري؛ مطلوب برهان من مصدر أوروبي...»، كما لو أن المدير سيدعو الأوربيين لمشاهدة هذا العرض الممتع! «... ونحسبك تدري أنه لا يمكننا إثارة القلاقل الآن. ليس هذا من الكياسة أو حسن السياسة.»

دعوني أروي الآن قصة أخرى عن مدير الزقازيق؛ والعهدة على من سردها على مسامعي. بينما كان صبيان يلهوان في أكوام القمامة بالقرب من المدينة تعثرا في «زلعة» تبين أنها تحوي كنزًا كبيرًا من الذهب: قلائد وأساور وحلقان ومشغولات أخرى عالية القيمة، ناهيك عن من عشرين إلى أربعين حبة من اللؤلؤ وياقوت خام اشتراه تاجر يوناني على أنه حصى ملون بقرش ثم عاد فجزأه بائعًا القطعة بمائة ليرة. ما إن وصل الخبر إلى أذني المدير حتى سارع بوضع يده على الكنز وألقى القبض على الصبيين، ثم زج بهما في السجن حيث تعرضا للضرب المبرح والجلد بالكرباج بصفة دورية حتى ينهارا ويقرا بمكان بقية الكنز. عندما سمعت هذه القصة كان الصبيان قد أمضيا شهرين في الحبس. في هذه الأثناء قام المدير بتسليم ما سلبه من الكنز إلى الحكومة، لكن يبقى ذلك في ذمة التاريخ، أو على حد قول المصريين «والله أعلم».

سألت الخديوي في إحدى الأمسيات عن القانون الذي ينظم أمر العثور على الكنوز؛ وهل تؤول ملكيتها إلى الحكومة؟ وهل يُمنح الشخص الذي يعثر عليها مكافأة؟ أفاد جلالته أن أي شيء يُعثر عليه في أرض خلاء أو أكوام القمامة أو أرض عامة فإن الدولة هي صاحبة الحق فيه؛ وأما المكافئات فلا توجد. أعتقد أن هذه السياسة خاطئة فكما رأينا أقدم الفلاحون على بيع الكنوز لليونانيين أو الرحالة في حين أنه لو رُصدت مكافأة صغيرة فسوف يتولد لديهم الحافز لتسليمها بكل أمانة وإخلاص. أقر الخديوي بصحة كلامي، لكنه عاد فأوضح أن الإخفاء أيضًا أمر عسير فنادرًا ما يعمل الفلاح منفردًا؛ ومن ثم فإذا عثر على كنز فسيراه أترابه ويبلغون عنه؛ وإن لم يفعلوا ستتولى امرأته هذه المهمة عن طريق «القيل والقال». عدت فأوضحت لعظمته أنه قد يجد شيئًا صغيرًا عظيم القيمة وشديد الندرة ويبادر بدسه في ثيابه في غفلة من الآخرين ثم يبيعه ليوناني عابر. ضربت مثلاً بقطعة ذهبية فريدة أحضرها مسافر من جزيرة «كاي».[٣٥٧] علق الخديوي قائلًا: «لن أذهب بعيدًا كي أدلل لك عن صرامة القانون ففي قطعة أرض تملكها إحدى زوجات أبي عُثر على أسدين رائعين من الذهب الخالص يبلغ طول كل منهما ثمانية عشر بوصة. سُلم التمثالين إلى دار ضرب العملة حيث تم صهرهما وسك أربعة آلاف جنيه ذهبي مصري منهما.»

عقبت قائلاً: «ما شاء الله! يا لها من مأساة فظيعة تجعل القلب ينفطر أسفًا وأسى. حتى مع وجود الحاجة للعملة يبقى السؤال، لماذا لم يكن البديل هو عرض الأسدين للبيع؟»

(٣٥٧) Keos، جزيرة في أرخبيل بحر إيجة تتبع اليونان؛ والقطعة الذهبية إغريقية تعود في الغالب للقرن الثاني أو الأول قبل الميلاد. (المترجمان)

جاء رد الخديوي: «أجل... حقًا... لقد كانت خسارة لأنه لو تم بيعهما لدرا مبلغًا يتراوح من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفًا من الليرات. لم يُكتشف أي شيء يضارعهما من قبل.»

لا أستطيع الجزم بهيئة هذين الأسدين، وهل أخذا شكل أبي الهول أم صورة أسود حقيقية كالتي كانت تُزين عرش سليمان وقصور الفراعنة، لكن بغض النظر لقد كانت قصة محزنة خلفت في قلبي كآبة شديدة.»

قلة قليلة من سكان أهل البلد يشاركون الخديوي المعظم هذه الهموم. أسوق هنا مثالاً عجيبًا على عدم مبالاة واكتراث هؤلاء القوم. بعد مرور يومين أو ثلاثة على هذه الواقعة تواجد اثنان من البَاشَوات معنا في الأمسية خلافًا للعادة. لم يستفيدا كثيرًا من المحادثة لأنهما لا يعرفان حرفًا واحدا من الإنجليزية أو الفرنسية. وجه لهما الخديوي سؤالاً بالعربية عن الفرق بين الأقباط والمسلمين الذين يرتدون عِمَّات سوداء. يعتقد جنابه أن الفرق هو تدلي شريطان صغيران سوداوان من عِمَّات المسلمين. أجاب أحدهما أن الأقباط يضعون عِمَّات سوداء، وهي خضراء في حالة المسلمين!

قلت للخديوي لاحقًا: «حقا! أليس الأشراف هم من يرتدون العِمَّات الخضراء؟»

أجاب جلالته: «صحيح... بالطبع.» استطرد جنابه ثم أكمل: «لم أر مطلقا أشخاصًا مثل هؤلاء. يمضون حياتهم هنا في الأكل والنوم والتدخين ولا ينتبهون بقدر مثقال ذرة لعادات البلد التي يعيشون فيها.[٣٥٨] لا يتمتعون بقوة

(٣٥٨) يجب ألا ننسى أن عدا كبيرا من البَاشَوات أصولهم تركية أو شركسية. (المترجمان)

الملاحظة، ولا يبدون اهتمامًا؛ كما يفتقرون إلى الذاكرة اللاقطة الحافظة. لا يمكنني أن أحيا بهذه الكيفية. أراقب دومًا ما يحدث حولي؛ ولا يسقط من ذاكرتي شيء مطلقًا.» هذا صحيح فالخديوي يتمتع بذاكرة غير عادية.

تابع عظمته الحديث فعرج على المصاعب التي ظهرت على السطح بعد الاقتراح بإلغاء العبودية. وقف أتباع ثلاثة مذاهب فقهية ضد المقترح جملةً وتفصيلاً؛ فقط أتباع المذهب الحنفي ناصروه. قال قاضي القضاة للخديوي في معرض حديثهما عن الدوسة: «أوافق تمامًا على نبذ العادات البربرية التي تخالف صحيح الدين، لكن - لو تسمح لي جنابك - أعتقد أن رغبتك في معالجة الأشياء تسير بسرعة فائقة. يمكنك البدء بإلغاء شيء واحد ثم يليه آخر وبالتدريج في غضون بضع سنين. تأنى ولا تندفع بأقصى بسرعة لأنه لا يمكن التغلب على كل المفاسد بضربة واحدة.»

حينها استفسرت من الخديوي عن إمكانية قيامه بإبطال الاحتفالات الشيعية فأجاب أن هذا أمر عسير لأن الفرس ليسوا من السكان الأصليين أو الرعايا؛ كما أنهم متعصبون جدًا.

قلت: «لكن ليس من الصعب على الأقل إلغاء المواكب التي تطوف الشوارع وإسماع هؤلاء الناس هذه الكلمات: أكره طقوسكم البربرية؛ وإذا لم يكن إبطالها خيارًا لديكم فأضعف الإيمان يمكن إيقاف الاستعراض في شوارع عاصمتي.»

«أجل. من الممكن جدًا جعلهم يقيمون هذه الاحتفالات في أماكن خاصة. في غضون ذلك آمل أن أناقش هذه الأمور مع كبير الفرس وأن أجعله

يصغي لصوت العقل؛ ولا بأس من توزيع بعض النياشين عليهم فإنها تُذهب العقل.» أردف جلالته وعلى شفتيه ضحكة جميلة: «ومن ثم فالأمل في إلغاء الاحتفال بليلة عاشوراء ما زال قائمًا وليس بعيد المنال.»(٣٥٩)

لقد أعطيت من قبل وصفًا مختصرًا لمسرحية مصرية. والآن واتتني الفرصة لأشاهد مسرحية تركية. في أول ليلة من ليالي الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم،(٣٦٠) أرسل الخديوي لي ساع يستدعيني إلى حيث يوجد جلالته بقصر الأمير محمود. لامني الأمير بسبب عدم زيارتي له من قبل في حين أقوم بزيارة أصدقائي الآخرين. قدمت له الأعذار تمامًا كما يصنع الشرقيون؛ وها قد صرت أجاريهم في ذلك. عندما دخل الخديوي توجه إليّ بالحديث قائلاً: «أريدك أن تشاهد المسرحية التركية التي أخبرتك عنها من قبل.»

تجمع في الصالون حوالي اثنا عشر شخصًا من رجالات البلاط. جلسنا ندخن على الأرائك. دخل موسيقيان أولاً أحدهما يحمل آلة موسيقية تُشبه «الفلوت»والآخر معه زوج من «الدرامز» يُشبها الأوعية المعدنية الكبيرة.(٣٦١) انحنيا أمام الخديوي كنوع من التحية ثم تقهقرا إلى أحد الأركان حيث انطلق الطبل والزمر على الفور بصرير وخبط يفقد الأعصاب وليس له علاقة بالموسيقى. بدأت المسرحية الذي تبين أنها نوع من الكوميديا يعتمد على الحوار أكثر من الحركة. في المشهد الأول استأجرت زوجة منزلاً. ارتدت الشابة رداءً

(٣٥٩) لا تجد الآن في مصر أثرًا واضحا لاحتفالات الشيعة بليلة عاشوراء. بالرغم من ذلك يحتفل المصريون على المستوى الشعبي بهذه الليلة عن طريق تبادل نوع من الحلوى يحمل نفس الاسم. يعود احتفال المصريين بهذه الليلة كونه اليوم الذي نجا الله فيه موسى وقومه من فرعون في المقام الأول. (المترجمان)

(٣٦٠) أخت غير شقيقة للخديوي توفيق. (المترجمان)

(٣٦١) يقصد بتلر الناي أو المزمار، ثم الطبلة. (المترجمان)

أزرق اللون من الحرير، وبصحبتها عجوز شمطاء في ثوب قرمزي؛ أما الخادمة فكان لون ثوبها أصفر. تم الترميز للمنزل باستخدام منشر داخلي (فواطة) تدلف النسوة ورائه، مع بقائهما في حيز الرؤية بالطبع مثل حائط «سناوت»(٣٦٢) في قصة «بيرموس وثيزبي».(٣٦٣) بمجرد الاتفاق على قيمة الإيجار دخل الزوج المخمور يتهاوى ويترنح وقد أمسك بسلة كبيرة خالية الوفاض ترمز إلى الأمتعة. حين اختفى الزوج عن المشهد ولج يهودي فظيع الهيئة وبرفقته قزم لا يتعدى طوله قدمين وقد أطلق لحيته. كان اليهودي دائنًا وجاء يطالب بنقوده. بدأت مشادة انتهت بمشاحنة قفز خلالها القزم بسرعة ورشاقة القطط في شتى أرجاء الغرفة وهو يتحرش بالسيدات. عاد الزوج الثمل مع احتدام العراك. كومت السيدات اليهودي والقزم داخل السلة التي عاد الزوج يحملها متبرمًا من ثقل الحقائب. أعقب ذلك مشهدان مشابهان مع تغير الدائن مرة إلى تركي ثم فارسي واختُتِمَا على نفس المنوال. في نهاية المطاف كان على الزوج أن يواجه طابورًا من الدائنين؟ أقرت الزوجة ببذخها وإسرافها مما حدا بالزوج ليفيق من سكره ويتعهد بتسديد ما عليه في وداعة. وهكذا انتهت المسرحية بشكل ضعيف يخلو من التأثير ولا يبعث على الرضا.

في اليوم التالي من الاحتفالات كان هناك موكب ضخم يحمل العروس إلى قصر الجزيرة. رُبطت حمامة من ساقيها أعلى مركبة الأميرة لتجنب العين الحسود. في المساء تم إضاءة الطريق الطويل الذي يحاذي النيل وتصطف

(٣٦٢) Snout's wall.

(٣٦٣) Pyramus and Thisbe، بالرغم من أنها أسطورة رومانية، إلا أنها جرت في بابل خلال حكم الملكة سميراميس. أحب بيرموس ثيزبي، لكن والديهما حالا دون إتمام الزواج فكانا يتهامسان من خلف الجدار. عالج هذه الأسطورة عدد كبير من الكتاب أشهرهم شكسبير. (المترجمان)

أشجار «الأكاسيا» على جانبيه. يرى المرء من فوق الجسر وقع التأثير البديع لهذا الخط من الأنوار البهية والذي ينتهي بوهج متألق عند القصر. لم تُوضع قيود على توافد الناس الذين ازدحم بهم الطريق: جنود وأفراد شرطة ومشايخ أجلاء على حميرهم البيضاء وتجار معممين وأفندية متأنقين. حدث تشابك وارتباك مروري خارج بوابات القصر حيث راحت المركبات تدور وتندفع وتتصادم؛ وانبرى سائقيها يتمادون في سب ولعن بعضهم البعض بالآباء بأسلوب فظ وغير متمدن.

في نفس هذا الطريق المُشّجر اصطحب الخديوي إسماعيل صديقه الحميم، المفتش، لُيُقتاد بعيدًا إلى حيث تم اغتياله.

يطالع المرء في حدائق القصر نوافير رائعة من الرخام ترتكز على أسود منحوتة وممَاش أرضيتها مصنوعة من الفسيفساء الجميلة وتماثيل خلابة و»برجولات» فائقة الحسن.[٣٦٤]



كان هناك أيضًا نباتات الخزيران الضخمة[٣٦٥] ونخيل عجيب وأشجار البرتقال والليمون والرمان وبنت القنصل و»الماجنوليا»[٣٦٦] والكركديه وشجيرات أخرى مزهرة، ناهيك عن الجداول الصغيرة والمجاري المائية التي أضفت على

(٣٦٤) استخدم بتلر اللفظة التركية Kiosk وتعني «كشك الموسيقى». كانت أكشاك الموسيقى تُقام في الميادين العامة، لكن كلمة «كشك» قد تطور معناها في العربية فأصبحت تُطلق على أماكن بيع السجائر والحلويات وخلافه. (المترجمان)

(٣٦٥) يُسمى أيضا بالبامبو الهندي أو الغاب الإفرنجي. (المترجمان)

(٣٦٦) Magnolia، زهرة موطنها الأصلي جنوب شرق الولايات المتحدة. (المترجمان)

المشهد جوًا منعشًا. كان القصر نفسه مضاءً بالأنوار واستمرت الفرق الموسيقية والموائد إلى وقت متأخر من الليل.

الفصل الحادي عشر

تمرد ثلاثة من الضباط برتبة «القائمقام»[٣٦٧] - قرار مجلس النُظار- حديث مع الخديوي- «يقيم الدنيا ولا يقعدها»- زيارة عظيم فارسي- أفكاره عن مصر- المولد النبوي- إلغاء الدوسة فعليًا- الخاتمة

تزامنت تقريبا مع هذه الأجواء الاحتفالية بعض الوقائع التي جلبت الكوارث لمصر؛ وكلفت إنجلترا فعليًا آلاف الأرواح التي زُهقت وملايين من الأموال التي بُعثرت.

شاهدت في الأول من فبراير ١٨٨١ عبر نافذتي بقصر عابدين اضطرابات عجيبة تجري في الميدان الكبير قبالة القصر. تجمع الجنود إثر نفير الأبواق مدججين بالسلاح وراحوا يندفعون هنا وهناك في استثارة وانفعال، بينما انطلق المسعفون على خيولهم في كل مكان. ما حدث هو أمر معروف للجميع. تم القبض على ثلاثة ضباط برتبة القائمقام واقتيادهم لثُكنات قصر النيل وهم: علي فهمي الذي أعرفه جيدًا لأنه كان ملحقًا بخدمة القصر وعبد العال وعرابي بعد أن أرسلوا خطابًا يشوبه بعض الصلف إلى وزير الحربية، عثمان باشا.

(٣٦٧)عقيد. (المترجمان)



أثناء انعقاد المحاكمة العسكرية اقتحم القاعة جماعة ممن شقوا عصا الطاعة وهجموا على عثمان باشا الذي فر عبر النافذة؛ كما جرحوا أفلوطين(٣٦٨) باشا، وكيل الوزارة وعادوا بالضباط الثلاثة إلى قصر عابدين في زهوة النصر. في طريقهم صوب قصر النيل أرسل لهم الخديوي من يأمرهم بالعودة أدراجهم، لكنهم ردوا علي الرسول بأسلوب وقح. مر بهم أيضًا الأمير محمود في مركبته فأرسل مساعده ليستجلي الأمر. كان ردهم: إذا أراد الأمير معرفة الخطب فعليه أن ينزل من مركبته ليعاين بنفسه ما يجري.

سرعان ما تقاطرت المركبات على المراسم وتجمع النظار في المجلس بمعية الخديوي. ظلوا في نقاش طيلة النهار حتى انتهوا إلى القرار المشئوم بالعفو عن

---

(٣٦٨) «أفلوطين» هو اللفظة التي يتفرد بها الأتراك للإشارة إلى «أفلاطون». ينبغي مراعاة أن الصوت الذي يمثله حرف w في اليونانية يوازيه في العربية û وهو oo في الإنجليزية كما في كلمة Boon؛ ومن ثم فكلمة "قانون" (آلة موسيقية) هي في اليونانية κανών **kanûn** و«طاووس» هي **ta'ûs** ταῶς وبالإنجليزية Peacock وكلمة «عربون» هي ἀρραβών **arabûn** وتقابل بالإنجليزية Earnest money. وبالرغم من ذلك من المحتمل أن اليونانيين قاموا باستعارة الكلمتين الأخيرتين. (المؤلف)

قد يكون الطرح الثاني للمؤلف صحيح، لكن فيما يتعلق باسم «أفلوطين» فإن التاريخ يسجل وجود فيلسوف سكندري بهذا الاسم، ٢٠٥ - ٢٧٠ بعد الميلاد. (المترجمان)

المتمردين وإقالة وزير الحربية كما طالبوا. شعر الخديوي بغصة في حلقه من الأحداث برمتها. أخبرناه أنه في أوروبا يتم إطلاق النار على المتمردين أولاً، ثم الاستماع إليهم فيما بعد، لكن مجلس النظار حال دون اتخاذ أي إجراءات حاسمة.

لم تُتح لي فرصة التحدث مع الخديوي منفردًا حول هذا الأمر إلا بعد مرور ثلاثة أيام نظرًا لاستمرار احتفالات الزواج. أخذ الخديوي يتحدث عن التمرد ولا شيء سواه لمدة ثلاث ساعات ونصف وحتى انتصاف الليل. كان مما قال أن قلبه مثقل بالهموم؛ وأنه لا يفكر إلا في هذا الموضوع حتى عافت نفسه الطعام وجفا النوم عينيه. لقد كان غاضبًا على وجه الخصوص لأن الجحود والعقوق أتى من الفوج الذي نال حظوته. قلت له أن الأمر خطير حقًا إذ لا يمكنه أن يُولي ثقته لهذه القوات من جديد. لقد حقق المتمردون غايتهم ولسان حالهم يقول «لقد انتهجنا سبيل العنف وأفلحنا» في سابقة تمثل أشد العواقب خطورة.

«هذا صحيح للأسف. هناك من نصح بترك الأفواج المتمردة لحالها لفترة، ثم تسريحها بهدوء أو إنزال العقاب بها؛ ما رأيك؟»

«أعتقد جلالتك أن هذه النصيحة غير سديدة، فليس من الصواب أو الحكمة أن تعفوا عنهم ثم تعود فتنزل بهم العقاب بعد مرور شهر أو اثنين؛ هذا لا يُسمى عقاب، بل انتقام.»

«إذن كيف كنت تتصرف؟»

«أسرحهم في الحال إذا كان هذا هو المُقدر لهم.»

«لكن... لقد تم العفو عن الضباط بمرسوم رسمي. عندما استقبلت علي فهمي انكب يقبل حذائي ليس مرة واحدة، بل عشرات المرات.»

«إذا كان قد تم العفو عنهم فهذا يغير كل شيء. لقد فات أوان معاقبتهم الآن. إن كلمة الحاكم مقدسة؛ ويجب أن تبقى كذلك.»

«أنت محق. هذا ما أخبرت به السيد ماليت. قلت له لقد أعطيت كلمتي بالعفو عنهم وهذا ما سيتم، بل ما يجب فعله، لكن الأمر مؤسف؛ وأخشى أن نُتهم بالضعف الشديد.»

«أجل... هذا هو... إذا أردت الصراحة. ما كنت لأتفاوض مع المتمردين ولا للحظة واحدة. كان يتعين مبدئيًا إخماد التمرد بإطلاق النار عليهم دون هوادة؛ ثم يتم البحث في مظالمهم بالسبل القانونية بعد أن يعود النظام. لقد حققوا انتصارًا في اللحظة الراهنة. إذا أعطيت الجنود الشعور ولو لمرة واحدة بأنهم كلما رفعوا حرابهم نالوا ما يحلوا لهم من مطالب فسوف تسقط هيبة القانون ويستحيل تسييس الأمور لأنهم يدركون أن السلطة الحاكمة لم تعد في يد الخديوي بل في يد الجيش.»

«أجل، ربما كان الصفح عنهم عملاً ينطوي على وهن، لكن لا أعرف ما هي البدائل التي كانت متاحة؟ لقد مال مجلس النظار برمته ودون استثناء واحد إلى العفو. استدعيت ثمانية عشر قائدًا وضابطًا وقلت لهم: هل بمقدوركم قمع التمرد والقبض على الذين شقوا عصا الطاعة أو تجريدهم من سلاحهم أو إطلاق النار عليهم؟ أجابوا: كلا... مستحيل... لأن القوات برمتها في حالة من الاهتياج. إن مرؤوسينا مصريون من بني جلدة المتمردين؛ ومن ثم فلن يقفوا ضدهم. لقد

نصح القادة المصريون والأوروبيون على حد سواء أمثال «ستون[٣٦٩] باشا» و«بلوتز[٣٧٠] باشا» باللجوء إلى اللين والتلطف. حقيقة... لا أفهم هذا الأمر.»

«ولا أنا. لم يمتد تأثير التمرد إلى الجيش كله؛ كما ينقسم الجنود إلى فريقين في عموم هذه الحالات. إذا قُدر وبادرتم بحث الكتائب الأخرى على إظهار ولائها فأنا متأكد من وجود قوات تلبي في الحين وتهب إلى تنفيذ الأوامر.»

«جائز، لكن تبقى حقيقة أن الذعر الشديد تملك الضباط والنظار. فكرت للحظات في إقالة الحكومة بالكامل وتشكيل أخرى جديدة يُناط بها إطلاق النار على المتمردين، لكني أدركت بشكل تام أن أوروبا ستعتقد أني رتبت الأمر برمته للتخلص من رياض تمامًا كما فعل والدي منذ عامين حين دبر المسيرات العسكرية التي مكنته من الإطاحة بوزارة نوبار باشا. أخبرت السيد «ماليت» بالأمر قائلاً له: لو سلكت هذا النهج لكنت أنت أول من يتهمني بالمعايير المزدوجة، لكنه لم يرد. على نفس المنوال قال لي القنصل الألماني: «إذا كنت جنابك تضمر النية لإقالة الحكومة فاسمح لي أن أسجل رسميًا اعتراض بلادي على هذا الإجراء.» رددت عليه قائلا: «اطمئن فليس لدي هذه النية ولا داعي أن تقلق حكومة بلادك نفسها بتسجيل اعتراضها على أي شيء. أرأيت الصعوبات؟»

أجبته قائلاً: «أجل، حقًا.» ثم أخذت المحادثة منحى آخر لا أرى داع للتطرق إليه هنا. على أي حال تم ترتيب بعض الإجراءات المستقبلية على نحو طيب ومُرضي. حين حُسمت الأمور وعادت إلى نِصابها ظل الخديوي يجتر

(٣٦٩) Stone.

(٣٧٠) Ploetz.

النقطة الأساسية وهي أن الحكومة أظهرت ضعفًا شديدًا. عدت فأقررت بهذه الحقيقة معقبًا أنه مهما تكن المخاطر فلابد من بذل الجهد في محل الحدث لجعل المتمردين عبرة وعظة. لقد كان بمقدور جماعة لا يزيد عددها على أصابع الكفين الاضطلاع بهذا الأمر. أيد الخديوي وجهة نظري مضيفًا: «أحسب أن رياض يتحمل اللوم بشكل كبير. لقد تم تحذيره قبلها بعشرين يوما فلا هو أخبرني ولا هو اتخذ الإجراءات الوقائية.» أذهلتني هذه المعلومة. أخبرت الخديوي أنه لم يُسد إليه النصح الرشيد طيلة الأزمة برمتها؛ وأصررت على ضرورة اللجوء إلى الشدة والحزم إذا تكررت هذه الاضطرابات.

رد الخديوي: «لا تقلق. هذا أمر مُنتهِي. لقد كانت هذه المحنة من أسوأ ما جابهت، لكن على الأقل خرجت منها بدرس. يجب أن يعلموا من يحكم البلاد ومن بيده السلطة والنفوذ إذا ما عنَ لهم التمرد من جديد.»

تناقشت والخديوي من وقت لآخر بعد هذه الواقعة المذكورة آنفًا في شئون البلاد. أطلعني جنابه على ما يجري في الجيش وما يدور في رأسه. في يوم من الأيام كرر على مسامعي حوارًا التقطته أذناه بين جنديين أسفل إحدى نوافذ القصر. ألقى الجنديان باللائمة على ضباطهما بشكل كبير. علق أحدهما قائلا: «لطالما أظهر أفندينا العطف تجاهنا. عليك أن تتذكر أنه شخص عظيم القدر؛ وأنه يحب الله؛ وأنه سبحانه يقف معه وكذا الأنبياء والشيوخ وكل البشر. بمقدور هذا الرجل يا صديقي إذا أراد وبكلمة واحدة فقط منه أن يقيم الدنيا ولا يقعدها!»

بالتطرق إلى أمية الناس أوضح الخديوي أن العبارة التي يُشار بها للمصريين في التركية هي «جبناء ولا يستحون» فالمصريون لا يحسنون التفكير ولا

يقدمون المصلحة العامة. إذا ما حاولوا ممارسة السياسة فإنهم يتعلقون بأشد الأفكار هزلية والتي كان آخرها ما أُشيع من أن رياض يسعى لبيع مصر للإنجليز مقابل المال.

بعد حوالي أسبوعين من واقعة التمرد تلقى الخديوي زيارة من «حسام السلطنة»، أحد النبلاء الفارسيين وعم الشاه. كان رجلاً طاعنًا في السن واختلف الناس في عمره الحقيقي فمن قال سبعين ومن قال ثمانين. كان قد أنهى لتوه شعائر الحج في مكة وعرج على مصر في طريق الإياب. رافقته حاشية ضخمة، تلك الرزيلة التي تنهش بلاد الفرس؛ والتي لم يمنعه شعره الأشيب من الوقوع فيها.

عندما نزل الإسكندرية ومر بقصور كبار التجار الواحد تلو الآخر قال: «ما شاء الله!»؛ وحين علم أن جلتهم من اليونانيين تملكه العجب فأردف: «يا للشفقة! آه يا مصر المسكينة!» عند استقبال الخديوي له في القاهرة لاح الرجل في ثياب مرصعة بالجواهر. اختفت أصابع يديه وراء الخواتم؛ وفي إحداها ماسة في حجم الشلن. كان زيه مزخرفًا ومزدانًا؛ ورداءه من الكشمير وأزراره من الماس؛ أما غمد سيفه ومقبضه فقد لمع ببريق الزمرد والعقيق الأحمر والأزرق. أصيب الرجل بالذهول من بساطة زي الخديوي وسيفه الذي لم يكن مرصعًا بالمجوهرات ولا يختلف عن سيف الباشا العادي. سأله النبيل مستنكرًا: «ألست جنابك خديوي مصر؟! لماذا إذن لا تحوز سيفًا أفضل من هذا بحق الله؟!» رد الخديوي: «لست ممن يهتمون بالمجوهرات. حتى المرصعات وكبكات[٣٧١] الأكمام التي أستخدمها من الذهب العادي كما ترى.

(٣٧١) تُسمى في مصر «مشابك الأكمام». (المترجمان)



كشف الخديوي عن أكمامه ليُرى النبيل الفارسي تمامًا كما فعل معي وهو يجتر القصة. عقب الرجل: «ما شاء الله! نور الله بصيرتك، فهذا النهج ليس من طبائع الملوك؛ في بلادي جرت العادة أن يرتدي الحكام الكثير من المجوهرات فنحن نحبها تمامًا كالنساء.»

في المساء اصطحب الخديوي النبيل الفارسي إلى المسرح. جال الأخير في المكان ثم قال متعجبًا:

«كل هؤلاء الناس من الأوروبيين الكفار؟»

«نعم... تقريبًا كلهم.»

«هذا الأمر حقيق به أن يُسجل في الكتب. أدعو الله أن يعوض على جنابك. إن رؤية مصر في هذه المحنة أمر يقطع أنياط قلبي حقًا، لكن عندما يستقيم الوضع المالي إن شاء الله... فإنك ستخرجهم من البلاد، أليس كذلك؟» رد الخديوي: «حسن... إن الوضع المالي لن ينصلح بهذه السرعة. نحن مدينون بستين مليون ليرة. إذا استطعت تخفيضها للنصف فسوف أشعر بكثير من

الاغتباط والرضا.»

نظر عم الشاه إلى الممثل الإيطالي «روسي»[٣٧٢] الذي كان نجم الأمسية قائلاً: «هل هذا الرجل شخصية عظيمة؟ ثغره يشبه فم الميكانيكي!» عاد النبيل يسأل الخديوي: «هل يروق لك الإنجليز؟»

«أجل.»

«هذا أمر يثير دهشتي بشكل كبير. لا نحبهم بالمرة في فارس. نحن تعساء إذ نقع بين جيشين عرمرمين: روسيا في الشمال وإنجلترا في الجنوب. ينتابنا الخوف الشديد من كليهما. احفظنا يا حفيظ!»

دار الزمن دورته وعاد الاحتفال الآن بالمولد النبوي من جديد. رغم أني لا أشك في تعهد الخديوي بإلغاء الدوسة المشينة التي كنت شاهدًا عليها العام المنصرف، إلا أني وجدت صعوبة في تصديق هذا الخبر السعيد. يستمر الاحتفال لعدة أيام وحتى هذه اللحظة كانت الدوسة مُدرجة كمسك الختام في الليلة الكبيرة. أرسل الخديوي ساعيًا لي في اليوم الأول يدعوني لحضور الاحتفال الخيالي.

اتضح لي على الفور أن مكان الاحتفال قد انتقل من بولاق إلى العباسية؛ وهو ما يؤكد بقوة جدية الخديوي في الوفاء بوعده. كان المكان الجديد عبارة عن قطعة من الأرض في الهواء الطلق يبلغ قطرها نصف ميل؛ وتم ترسيم تخومها الصحراوية بالخيام. أما مداخلها فقد تم تحديدها بمنصات يجلس عليها البائعون متربعين وأمام كل منهم ميزانه وبضاعته وجلتها أشكال صنعت من السكر:

(٣٧٢) Ernesto Rossi، ١٨٢٧-١٨٩٠. (المترجمان)

أبراج ووعاظ وهلم جره. يبيعون أيضًا حلوى تُسمى «غزل البنات»[٣٧٣] تُشبه خيوط الزجاج الرفيعة. يمكنك أيضًا مشاهدة عائلات تجلس حول المجمرة وتتناول القهوة؛ ورجال يحملون مشنات الخبز منادين «الله... الله» والساقيين وهم يقرعون الكؤوس بالتناغم مع الكلمات «مياه... مياه يا عطشان»؛ ناهيك عن المتسولين الذين يصيحون قائلين: «كسرة خبز لله... كسرة خبز لعشائي.» تجد هنا وهناك أناس يغطون في النوم وقد لفوا رؤوسهم غير مكترثين بالضوضاء التي تحيط بهم. أما وسائل المتعة والتسلية فكانت أوروبية نسبيًا عدا عرض مُخزي له علاقة بآلة الرجل. تعجبت حين وجدت فتيات صغيرات يتابعن المشهد دون أدنى شعور بالخجل؛ ورجال يحملون أطفالهم ليحصلوا على رؤية أفضل!

كانت غالبية الخيام التي حددت الإطار الخارجي للمربع الكبير مصنوعة من نسيج رائع. تخص هذه الخيام شيوخ الطرق الدينية المتباينة. يقيم هؤلاء الشيوخ على مدار أيام الاحتفال شعائر تُسمى بالذكر يستغرق الليل بطوله ويؤديه مريدوهم وأتباعهم من الدراويش وهم يرددون عبارة، «لا إله إلا الله»، مئات المرات بشكل منتظم مع تخفيف وترقيق نطق الكلمة الأخيرة. تُصدر جوقة من الرجال أصوات جشاء تخرج من نهاية حناجرهم لا يقدر على الإتيان بها سوى العربي وبعيره؛ تشبه آلية هذه الأصوات الحلقية زئير الأسد. ويتزامن مع هذه الجلبة تمايل وهز ونفض للجسم كله للأمام وللخلف ولأعلى ولأسفل؛ ويتسارع إيقاع الحركات حتى تزيغ العيون وتزبد الأفواه وتنفر العضلات بشكل جنوني للتأكيد على قوة الإيمان. يتجاوز الذكر في بعض الأحايين الساعتين، بيد أنه

(٣٧٣)أورد بتلر ترجمة حرفية لهذه الحلوى فسماها Maiden's tangle وتُعرف الآن في اللغة الإنجليزية بـ Cotton candy. (المترجمان)

حين ينتهي، تختفي نوبة السعار في لحظات ويتفرق الرجال وهم يضحكون ويتبادلون الأحاديث الودية كما لو أن شيئًا لم يكن. حين سؤل أحد الشيوخ عن فائدة الذكر أجاب أنه يغسل القلب ويطهره.

ذهبت بالمركبة في اليوم الرابع الذي وافق يوم الدوسة في العام المنصرم إلى مكان الاحتفال لحضور الموكب الكبير الذي كان مقدرًا له المرور أمام موكب الخديوي كما هي العادة. شُوهدت في حوالي الساعة الواحدة بيارق جماعات الدراويش الضخمة وهي تتقدم. وصل إلى أسماعنا أصوات الصنج والطبل والمزامير؛ وسار مع الموسيقيين المنشدون وهم يرتلون آيات من القرآن أو شهادة التوحيد. قبل أن يمر وقت طويل ظهر خليفة الشيخ الذي وطأ الأجسام في العام الفائت. كان يمتطي حصانًا أسودًا؛ ويرتدي عباءة حريرية عاجية اللون وعمة خضراء مزخرفة يصل قطرها حول الرأس حوالي قدم. سار أمامه وعلى بعد خمسين ياردة بعض خفراء الدرك لمنع المتعصبين والمغالين من إلقاء أنفسهم في آخر لحظة أمام الحصان ليدوسهم، لكن شيئًا لم يحدث؛ ولم تُسجل أدنى محاولة أو تصدر أي إشارة تنم عن رغبة الدراويش في الخروج من الاحتفال بعظام مكسورة. إن الشخص الوحيد الذي عانى أو تظاهر أنه يعاني هو الشيخ الممتطي الحصان. يبدو أن الانخراط في سلسلة من الإغماءات في هذه المناسبات الكبيرة جزء من صميم عمله.

عندما انتهى الشيخ من مروره تقاطرت في عاقبيه الطوائف يتقدم كل منها شيخها على حصان أو حمار كل على حسب ميزانيته. سار التابعون أمام الدواب وهم يحملون سجاجيد الصلاة المطوية الخاصة بالشيوخ وحولهم بيارقهم التي ترفرف على قرع الطبول. مسحت الوجوه الواحد تلو الآخر، لكني لم أعاين

ملمحًا لإثارة أو اهتياج غير عادي أو طبيعي كالذي ينتج عن الحشيش أو «الراقي»[٣٧٤]. وقبل كل شيء لم أر الشحوب والامتقاع الناتج عن الثمالة المقززة التي وسمت العديد من الوجوه بالبشاعة والشناعة العام الماضي. لم أجد كذلك أي رجال عراة ممن يحملون السكاكين والبلطات؛ ولم أشاهد حاملي السيوف وهم يجرحون أنفسهم، أو دافعي المسامير في الخدود والأذرع، أو آكلي الزجاج والأفاعي.

عند وصول الطوائف إلى نهاية خط الخيام يتم إنزال البيارق ولفها، ثم ينزل الشيوخ من فوق مطاياهم ويتفرق التابعون.

وهكذا انقضى الاحتفال الأول بالمولد النبوي بعد إلغاء الدوسة في هدوء ونظام متقن. تم إنجاز المستحيل وأُلغي تقليد مخز وغير إنساني ظل لقرنين من الزمان الملمح الرئيسي المهيب لاحتفالات أتباع محمد في مصر. من يدرك معنى هذه العبارة لا يمكنه أن يمنع نفسه من الإعجاب بالخديوي أو أن يُنكر عليه التشريف الذي يستحقه لما يتمتع به من الشجاعة ونُبل المقصد. أما وقد رأيت بنفسي الشر الذي ناوأه الخديوي فلن أتوقف مطلقًا عن احترامه وتبجيله.

لكن أيامي في القاهرة كانت قد أوشكت على الأفول. قررت لأسباب لا أرى حاجة لسردها في هذا الموضع العودة إلى إنجلترا. كان وداع الخديوي لي مؤثرًا ووديًا وصادرًا من القلب؛ وكان فراقه والأميران الصغيران أمرًا محزنًا عن حق. احتفظ للخديوي - ككل من عمل في خدمته الخاصة - بالولاء والإخلاص؛ ولا أطيق هؤلاء الذين يحركهم الحقد الأعمى في إنجلترا فيقدمون على تقريعه ويقدحون في شخصه.

(٣٧٤) نوع من الخمور التركية. (المترجمان)

كرست كل أوقات فراغي تقريبًا على مدار الشهور الماضية لجمع المادة العلمية لعمل يتناول الكنائس القديمة للأقباط الذين ينحدرون من نسل فراعنة مصر؛ والذين حملوا ببسالة العقيدة التي أوصلها إليهم مرقص الرسول. درست عن ظهر قلب كافة الكنائس التي تقع على تخوم العاصمة، وسعيت لاكتشاف الخطوط المفقودة لحصن بابليون الروماني في القاهرة القديمة، لكن أكثر ما أتحسر عليه وأنا أشد الرحال هو حظر السلطات الحاكمة السفر إلى وادي النطرون حيث تقع الأديرة الصحراوية نتيجة للقلاقل التي يثيرها البدو هناك. وبالرغم من ذلك فقد تمكنت من القيام بهذه الرحلة في مرحلة لاحقة، ومن ثم فقد خرج الكتاب للنور.

لا يمكن لشخص أمضى ولو عام واحد في القاهرة، تلك المدينة الذهبية وتغلغلت روح الشرق في كيانه أن ينسى ذاك المساء الذي ودع فيه هذه الحياة للأبد ليعود من جديد إلى وحشة أوروبا وكآبتها. عشت هذه التجربة وانطبعت في وجداني ذكرياتها الفريدة الوافرة؛ ورأيت حلم الإصلاح الذي يدخل في باب الاستحالة يتحقق؛ لذا ففي خضم كل خواطر الرحيل الشجية لم يكن هناك جهد الحاجة لأردد مع شيمون «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام.»[٣٧٥]

«تم»

(٣٧٥) nunc dimittis servum tuum Domine secundum verbum tuum in pace، لوقا ٢: ٢٩. (المترجمان)

د / محمد السيد علي عزب

- مدير معهد اللغات ق م بالإسكندرية

- أستاذ الأدب الإنجليزي «المنتدب» بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- **Brush upon your English**، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- **Enhance your English Vocabulary**، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.

- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.

- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا «ترجمة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.

- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.

- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.

- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥، آرائهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي **Lambert Academic Publishing**، ألمانيا، ٢٠١١.

- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوي للنشر، بيروت، ٢٠١٢.

- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، ٢٠١٣

م . م / مي محمود سليمان موافي

- مدرس مساعد بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها والترجمة الفورية بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر.

- عملت كمدرس مساعد منتدب بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري.

- قامت بالتدريس في معهد اللغات للقوات المسلحة بالإسكندرية.

- تعمل وتحتفظ بعضوية نشطة في العديد من مؤسسات وجمعيات ومراكز ومكاتب الترجمة الدولية والمحلية.

- اشتركت ولها العديد من الأعمال المترجمة ومنها:

Winning Debates

U. S. Politics

Cities of Truth

كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع محمد عزب)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.

قائمة المحتويات

قائمة الأشكال الإيضاحية[٣٧٦]

(٣٧٦) وضع بتلر في متون كتابه سبعة أشكال إيضاحية هي (١) صورة لسيتي الأول في أبيدوس، مقابل صفحة ٢١ من النص الإنجليزي، (٢) صورة تمثالي «رع حتب» وزوجته «ني فرت» بمتحف بولاق، مقابل صفحة ٤٦ من النص الإنجليزي، (٣) صورة مشربية في القاهرة، مقابل صفحة ٦١ من النص الإنجليزي، (٤) صورة منزل قديم في رشيد، مقابل صفحة ٨٩ من النص الإنجليزي، (٥) صورة قرية مصرية في وقت الفيضان، مقابل صفحة ١٧١ من النص الإنجليزي، (٦) صورة جماعة من البدو، مقابل صفحة ٢١١ من النص الإنجليزي، (٧) حِرَفِي مشغولات نحاسية فارسي، مقابل صفحة ٢٥٤ من النص الإنجليزي. ولما كانت الصور مطموسة ولا تترك نفس الانطباع في القارئ العربي، والمصري خاصة، مقارنة بالقارئ الإنجليزي فقد قام المترجمان بحذفها والاستعاضة عنها بنسخ أفضل (كما في صورة رع حتب وزوجته) أو وضع صور إيضاحية أخرى رأيا أنها هامة لاكتمال المعنى في ذهن القارئ كما في الجدول أعلاه.

ليليت للنشر والتوزيع

رقم الايداع / ١٣١٩٦ / ٢٠١٣ ط١

الترقيم الدولى/٥ - ٣٧ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الحياة في البلاط الملكي المصري

كان وداع الخديوي لي مؤثرًا ووديًا وصادرًا من القلب؛ وكان فراقه ووداع الأميرين الصغيرين أمرًا محزنًا عن حق. احتفظ للخديوي -ككل من عمل في خدمته الخاصة- بالولاء والإخلاص؛ ولا أطيق هؤلاء الذين يحركهم الحقد الأعمى في إنجلترا فيقدمون على تقريعه ويقدحون في شخصه...كرست كل أوقات فراغي تقريبًا على مدار الشهور الماضية لجمع المادة العلمية لعمل يتناول الكنائس القديمة للأقباط الذين ينحدرون من نسل فراعنة مصر؛ الذين حملوا ببسالة العقيدة التي أوصلها إليهم مرقص الرسول. درست عن ظهر قلب كافة الكنائس التي تقع على تخوم العاصمة، وسعيت لاكتشاف الخطوط المفقودة لحصن بابليون الروماني في القاهرة القديمة. لكن أكثر ما أتحسر عليه وأنا أشد الرحال هو حظر السلطات الحاكمة السفر إلى وادي النطرون حيث تقع الأديرة الصحراوية نتيجة للقلاقل التي يثيرها البدو هناك...لا يمكن لشخص أمضى ولو عام واحد في القاهرة، تلك المدينة الذهبية وتغلغلت روح الشرق في كيانه أن ينسى ذاك المساء الذي ودع فيه هذه الحياة للأبد ليعود من جديد إلى وحشة أوروبا وكآبتها. عشت هذه التجربة وانطبعت في وجداني ذكرياتها الفريدة الوافرة؛ ورأيت حلم الإصلاح الذي يدخل في باب الاستحالة يتحقق.

دار غراب للنشر والتوزيع

اللوحة للفنانة / مي فاروق